

فكر علمي ثقافة تقديمية



311

2004

الثقافة الجديدة

* النفط وخيارات المستقبل (ملف)

* تمهيد جديد لكتاب الاستشراق

أدوار سعيد

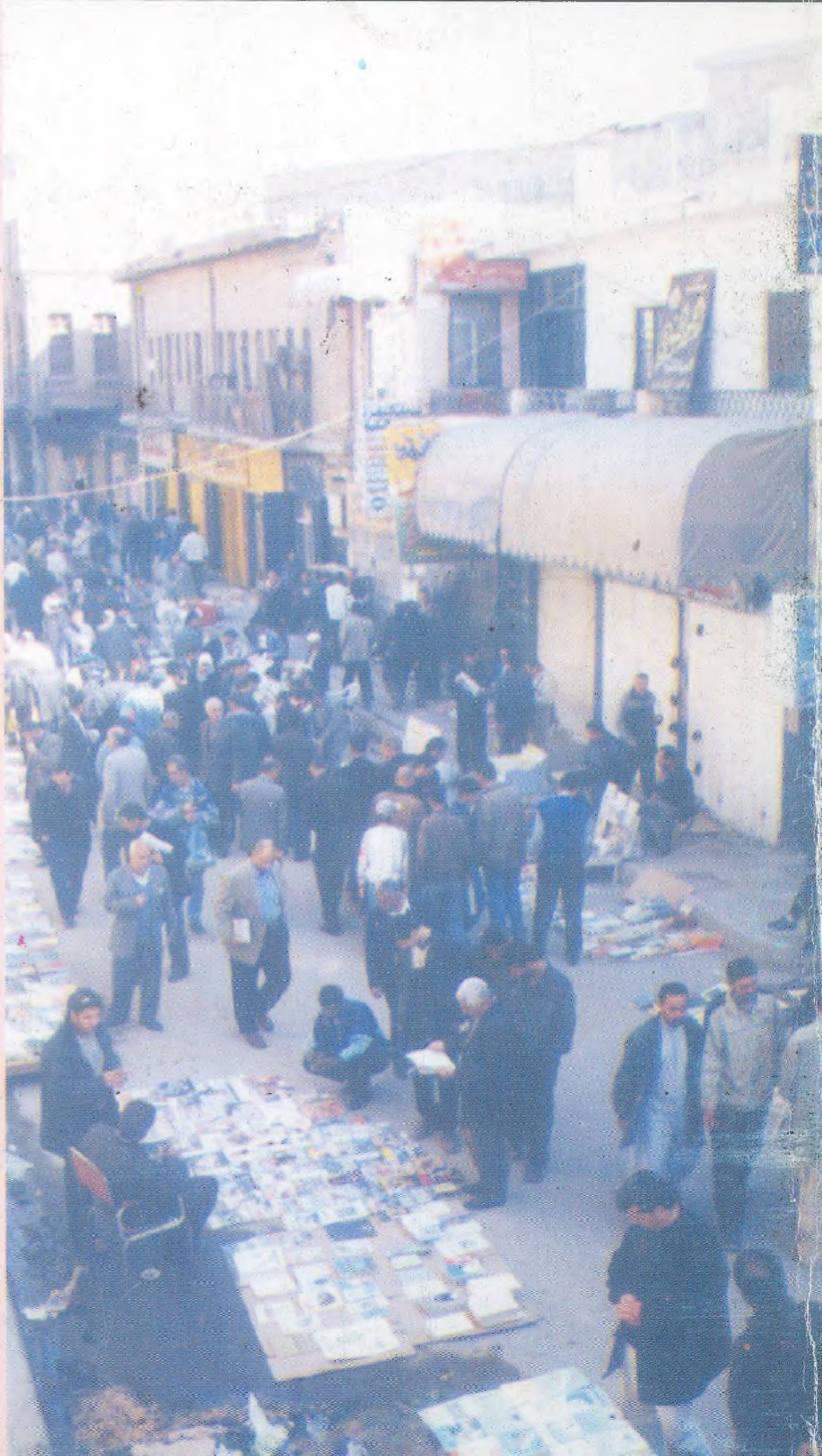
* ثقافة الخضوع وثقافة الحوار

د. عامر حسن فياض

* الثقافة العراقية والمتغيرات الاجتماعية (ندوة)

أدب وفن

مهدي محمد علي	وفاء عبد الرزاق
فيصل لعبيبي	حسن البياتي
رشيد خيون	عبد الحسين العامر
فهد الاسدي	خميس صالح الجميلي
عبد الخالق محمود	كريم عباس زامل
يحيى السماوي	فاضل السوداني
حسن الفرطوسي	ابراهيم الحريري



الثقافة الجديدة



مركز علمي قائم على

الدراسة والبحث

الدراسة والبحث

الدراسة والبحث

الدراسة والبحث

الدراسة والبحث

رئيس التحرير

رأى مهمي

مجلس التحرير

جمال يوسف

مدير التحرير

سعيد يوسف

سليم حاتم

صالح بلال

الناشر

المواد المنشورة تعبر عن آراء اصحابها

الاشتراك السنوي: ٥٠ دولار او مايقابلها - ١٠٠ دولار للمؤسسات

يحول المبلغ مقدما الى حساب رقم ٤٢-٤٦٧١٢٧

ANY HAMED AYOUB

BANQUE LIBANO-FRANCAISE

Bar Elias, LEBANON

او الى حساب رقم: ٢٧-٣٠٧٠٢٠

COMMERCIAL BANK OF SYRIA

Branch 16 Damascus, Mr. FARES FARES

المرسلة باسم رئيس التحرير، فاكس رقم: ٠٠٣٣١-٦٤٢٦٢٥٦٢

E-MAIL: thakafajadida@hotmail.com

HYPERLINK "http://www.althakafaaljadeda.com

ترسل مواد (اكتب وُقِن) بالتعم: مهدي محمد علي

يرجى المراسلة ببيان يكون فيه المجلد وماليتها على العنوان:

سورية، دمشق، ص.ب: ٧١٢٢ او ٢٦٢٢

تليفاكس: ٤٤٤٩٧٢٤

ترجو هيئة التحرير الاخوة المساهمين في المجلة مراعاة ما يلي في
ما يرسلون للنشر

* ان تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير
وسلامة اللغة.

* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكمبيوتر ومرسلة عبر البريد
الالكتروني اما المكتوبة باليد فنرجو ارسال نسختها الاصلية
* لا يتجاوز حجم المادة ٤٠٠٠ كلمة.

* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.

* بالنسبة للمادة المرشحة للنشر الالكتروني: تدرج المجلة باعلام
كاتبها على صفحاتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.

* للمجلة حق اعادة او اختصار التعقيبات التي ترددها.

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

النفط وخيارات المستقبل (ملف)

- 6- دور النفط في الأسواق العالمية علي رجب
- 11- عائدات النفط وتمويل التنمية د. أمال شلاش
- 18- مستقبل صناعة النفط في العراق عدنان الجنابي
- 21 - خيارات إدارة الملكية في صناعة النفط العراقي د. كاظم جواد لفته
- 36 - تمهيد جديد لكتاب الاستشراق أدوار سعيد
- 43- عن الاستشراق في المانيا بين التقاليد والانفتاح د. صادق البلادي
- 45 - امبراطورية الفوضى ماكينزي وارك
- 49 - وزارة البيئة امام مهمات آنية عاجلة د. كاظم المقدادي
- 56 - اخطار اليورانيوم المشع عبد اللطيف زرنه جي
- 67 - من ثقافة الخضوع الى ثقافة الحوار د. عامر حسين فياض
- 70 - الثقافة العراقية والمتغيرات الاجتماعية
- ندوة ساهم فيها (محمّد خضير سلطان، أحمد سعداوي، داود سالم، قاسم السومري، نصيف فلك)
- 84 - نهج وزارة الثقافة وخطة عملها
- 89 - عيد الفتح ابراهيم: شاهد على احتلالين د. جليل العطية

أدب وفن

- 94 - مبدعان بلا حوائز (مبدعان بالجوائز كلها) مهدي محمد علي
- 95 - قفا نيك فيصل لعبي
- 123 - تحريتي الأدبية فهد الأسدي
- 129 - قصيدة الى الغريب عبد الخالق محمود

- 132 - إرحلوا عن وطني يحيى السماوي
- 133 - الزاوية الاخرى وفاء عبد الرزاق
- 134 - النهر د. حسن البياتي
- 135 - ذلك المواطن مهدي محمد علي
- 136 - البحث عن الضفاف عبد الحسين العامر
- 141 - القرايين خميس صالح الجميلي
- 145 - عبور البحيرات كريم عباس زامل
- 148 - كوكب حمزة وزمن الفنان المسروق فاضل السوداني
- 151 - أوراق عراقية في زمن الحرب والأحتلال ابراهيم الحريري
- 155 - مخلوقات تراقب الحياة حسن الفرطوسي
- 157 - اصدارات وردتنا

* صورة الغلاف الأول : شارع المتنبى (بعدسة سعد عمار)

* لوحة الغلاف الأخير للفنان سلام الشيخ



نحو عقد اجتماعي جديد يؤسس لعراق حر متآخ موجد

كانت ٢٠٠٣ سنة العراق بامتياز، فأحداثه عرّضت النظام الحقوقي و عمارة العلاقات الدولية للاهتزاز وأخضعت العديد من مرتكزاتها للمراجعة وفق منطق القوة لا العدل.



لقد شاعت مصادقات وتوافقات السياسية والجغرافيا والتاريخ أن يكون العراق الساحة الأمامية والمعبّر الرئيس للاستراتيجية العالمية للقوة الأعظم نحو إعادة صياغة وتركيب منظومة العلاقات والقواعد الدولية التي أنجبتها موازين القوى بعد الحرب العالمية الثانية. فكانت الحرب على العراق في أذار الماضي، وما مهّد لها ورافقها ونتج عنها من تطورات عاصفة لا تزال في دوامتها. كانت صدمة هائلة هزّت النظام الدولي، ممثلاً بالأمم المتحدة، وهو لا يزال يبحث عن نقطة قرار جديد يستعيد عندها تماسكه. وفي سياقها نداعى نظام بغداد. (وهو الاستثنائي في طغيانه)، والنمطي (مماثل)، في مكوناته البنيوية المتماثلة في العديد من أنظمة ما بعد الاستقلال السياسي التي تماهت فيها الدولة في شخص الحاكم الفرد، واستمدت شرعيتها من أيديولوجيا انتقائية شعبوية. تلك الأنظمة اعتمدت الاستبداد منهاجاً والعصبية الطائفية والعشائرية مرتكزاً والدولة المضخّمة وسيلة.

بات واضحاً للقاصي والداني أن ما يجري في العراق خرج عن المرسوم. فالعراقي يعيش حكمة عميقة في بساطتها: التاريخ لا يُصنع بمعزل عن الشعوب وبالرغم منها. والعراقي الذي يعيش ظرفاً فريداً في تاريخ بلاده المعاصر يواجه تحديات محمّلة بالبشائر والنذر، في أوضاع تزدحم بتناقضات عصبية على القراءة النزيهة، مطواعة لسواها.

لقد حال نهج النظام والعامل الخارجي دون انصاج بديل وطني يحقق الإجماع. فأدى الانهيار المفاجيء والشامل للسلطة إلى خلخلة ثم تصدّع الدولة العراقية "الحديثة" القائمة منذ تأسيسها على توازنات قلقية وغير عادلة. فتعالت مطالب المتضررين، كلٌ يريد زوال الحيف دونما إبطاء أو نقصان. في غياب أطر مؤسسية وحقوقية وإجرائية فاعلة وموثوقة ومقبولة من الجميع تتولى تنظيم التعامل مع هذه المطالبات، وتؤمن اتساقها وتنظيم توافقات ضرورية لتحقيق أعظم قدر منها على أساس المشتركات التي تؤسس للهوية الوطنية الجامعة يشتد الميل لتغليب العصبية الأولية والجزئية، القومية والدينية والمذهبية والعشائرية، واتخاذها غاية ووسيلة سياسية لانتزاع الحقوق بالقوة، وتحويل التنوّع العراقي الفسيفسائي الثري الجميل إلى حقل ألغام وفضاء متوتر، فتشتد المخاوف وتتراحم الهواجس ويضطرب المزاج الجمعي وتخبو مشاعر التفاؤل بالقادم الأفضل.

العراقيون ومن يمثلهم من مراجع وتنظيمات وشخصيات ورموز يقفون أمام اختبار تاريخي. فإمّا الاهتداء إلى حلول وتوافقات ترسي عقداً اجتماعياً جديداً يؤسس لعراق متحرر من الاحتلال، عراق موحّد على أساس وفاق طوعي بين مكوناته، يحترم الهويات الخاصة للجماعات والأفراد، ويصوغ تتاعماً مع الهوية الوطنية المستندة إلى العدل والمساواة والحرية، أو الدخول في دوامة أحداث وتداعيات لا تحمل سوى المزيد من الآلام لشعبنا المثخن بها.

رغم اللوحة الشائكة فإن في مجتمعنا قوى مجرّبة تتصدى للشان العام بمسؤولية ووعي للضرورات وللמوروث الاجتماعي والثقافي والإنساني، وتحصّنكم لذاكرة جمعية تختزن قيم وتقاليده وشائج العيش المشترك التي يمكن أن تحصّن الشعب من الانزلاق في مسالك مهلكة، وترشده إلى دروب الأمان. والمتفقون قادرون على الإتيان بإسهام فعال في هذا الجهد البناء.

دور النفط العراقي في الأسواق العالمية للنفط

علي رجب

قبل الحديث عن أهمية النفط العراقي في سوق النفط العالمي سنحاول إلقاء الضوء على دور النفط في ميزان الطاقة العالمي كمصدر للطاقة وموقف العرض والطلب على هذه المادة، حالياً ومستقبلاً، ودور منظمة الأوبك في إدارة سوق النفط، كونها جهة تؤثر في مستويات الإنتاج العالمي للنفط ومستوى أسعاره والفوائد التي يمكن أن يحصل عليها العراق من صادراته النفطية.

النفط في ميزان الطاقة العالمي

أن حوالي ٩٠% من النفط في العالم يستخدم كوقود لتوليد الطاقة وأن حوالي ١٠% منه يستخدم لأغراض أخرى، مثلاً كمادة أولية لصناعة البتروكيماويات. وهناك إجماع في التوقعات العلمية بأن النفط سيبقى يحتل المركز الرئيس بين مصادر الطاقة لفترة طويلة ومن المتوقع أن تنخفض نسبته قليلاً في المستقبل من حوالي ٤٠,١ بالمائة خلال عام ٢٠٠٠ إلى ٣٩,١ بالمائة خلال ٢٠١٠، وإلى حوالي ٣٨,٤ بالمائة خلال عام ٢٠٢٠ وذلك لمصلحة مصادر الطاقة الأخرى بالأخص الغاز الطبيعي الذي يتوقع أن تزداد نسبة مساهمته مستقبلاً كونه مصدر طاقة "نظيف" ضمن الاعتبارات البيئية.

الطلب العالمي على النفط

يتأثر موقف الطلب على النفط بعدة عوامل أهمها معدل النمو الاقتصادي العالمي وسياسات الدول المستهلكة التي تؤثر سلباً على الطلب بالأخص الضرائب العالمية على استهلاك المنتجات النفطية والدعم الذي تقدمه تلك الدول لتطوير مصادر الطاقة البديلة كي تحل محل النفط. إن الاتفاقيات والمفاوضات العالمية، بالأخص فيما يخص البيئة (كيوتو) قد تؤثر أيضاً على استهلاك النفط. كما يؤثر أيضاً التقدم التكنولوجي الذي يهدف إلى تقليل كمية النفط اللازمة لإنتاج الوحدة الواحدة من الناتج القومي الإجمالي (زيادة كفاءة استخدام النفط).

تتوقع مصادر منظمة الأوبك ضمن سيناريوهاتها الأرجح بأن معدل النمو للطلب العالمي على النفط سيكون حوالي ١,٧ بالمائة سنوياً للفترة ٢٠٠٠ - ٢٠٢٠، وبذلك يتوقع أن يزداد الطلب على هذه المادة من حوالي (٧٧) مليون برميل (معدل العام ٢٠٠٢) ليصبح حوالي (٨٠) مليون برميل/يوم، خلال عام ٢٠٠٥ وحوالي (٩٠) مليون برميل/يوم في عام ٢٠١٠ وحوالي (١٠٧) مليون برميل/يوم في عام ٢٠٢٠. علماً بأن هناك مصادر أخرى أكثر تفاؤلاً تتوقع أن يصل الطلب إلى (١٢٠) مليون برميل/يوم في عام ٢٠٢٠. ويتوقع أن تكون الدول النامية مصدر لأكثر من ٥٠% من تلك الزيادات وبالأخص الصين والهند والدول الآسيوية الأخرى.

العرض العالمي للنفط

هناك عوامل متعددة ومتشابكة تؤثر على موقف العرض العالمي للنفط، منها مستوى الأسعار للنفط والأسعار لمصادر الطاقة الأخرى البديلة. كما تؤثر أيضا سياسات الدول المستهلكة، وبالأخص في مجال دعم عمليات الاستكشاف والتطوير في بلدانها، بالإضافة إلى مستوى الاحتمالات الخاصة بالاكشافات الجديدة للحقول النفطية. كما يؤثر أيضا مستوى التقدم التكنولوجي الذي ساعد في استغلال بعض المناطق الصعبة مثل المياه العميقة في غرب أفريقيا وفي خليج المكسيك والبرازيل وأدى كذلك إلى نسبة استخلاص أعلى من الحقل الواحد والى تخفيض كلف الاستكشاف والتطوير بصورة عامة.

ان مصدر العرض العالمي للنفط هو دول منظمة الأوبك (حاليا ١١ دولة) والدول الأخرى المنتجة والمصدرة خارج الأوبك. كما يمكن أن يؤثر في العرض أيضا طبيعة حركة الخزين أي السحب أو بناء الخزين. ومما يذكر فان دول خارج الأوبك تضم حوالي ٢٠% من الاحتياطي النفطي المؤكد في العالم بينما تنتج حوالي ٤٠% في الإنتاج النفطي العالمي.

وان هذه الدول تنتج بكامل طاقتها الإنتاجية بالرغم من ظروف السوق المختلفة تاركة العبء على دول الأوبك لموازنة العرض والطلب العالمي على النفط.

هناك توقعات تشير إلى أن إنتاج دول خارج الأوبك قد يصل إلى حدوده القصوى أو انه قد يتراجع، قبل أو في نهاية العقد الحالي.

وبالرغم من أن بعض دول خارج الأوبك مثل بريطانيا، النرويج، عُمان وغيرها، بدأت فعلا تعاني من انخفاض إنتاجها، فقد نشرت توقعات سابقة ولعدة مرات حول قرب بدء انخفاض إنتاج دول خارج الأوبك إلا إن ذلك لم يتحقق.

الطلب على نفط الأوبك

يعتمد الطلب على المنتج من قبل دول منظمة الأوبك (نفط الأوبك) بالدرجة الأولى على مستوى الطلب العالمي على النفط بصورة عامة والإنتاج النفطي من دول خارج الأوبك التي تنتج كامل طاقتها كما أسلفنا، كما يتأثر الطلب على نفط الأوبك أيضا بحركة الخزين العالمي للنفط.

خلال السنوات القليلة الماضية بلغ معدل نمو الطلب على النفط العالمي حوالي (٠,٦) مليون برميل/يوم بينما كان معدل إنتاج دول خارج الأوبك يزداد بحوالي (١,٠) مليون برميل/يوم والذي يعني انخفاضا في الطلب على نفط الأوبك. وبالنسبة فإن الطلب على نفط الأوبك انخفض بواقع حوالي (٣,٠) مليون برميل/يوم خلال الفترة ١٩٩٩ - ٢٠٠٣.

تعتقد منظمة الأوبك بأن السنة القادمة لن تكون سهلة بالنسبة للمنظمة حيث يتوقع أن يزداد الطلب العالمي على النفط بواقع حوالي (١,١) مليون برميل/يوم، بينما يزداد إنتاج دول خارج

الأوبك بحوالي (١,٣) مليون برميل/يوم. كما يتوقع زيادة إنتاج سواثل دول الأوبك (التي هي خارج نظام الحصص) بحوالي (٠,٣) مليون برميل/يوم. وبذلك فإن الطلب على نفط الأوبك خلال عام ٢٠٠٤ يتوقع أن ينخفض بواقع حوالي نصف مليون برميل.

أما بالنسبة للفترة ٢٠٠٣ - ٢٠٠٨، فتتوقع مصادر المنظمة أنه يزداد الطلب العالمي على النفط بواقع حوالي (٧,٢) مليون برميل بينما يزداد إنتاج دول خارج الأوبك (بضمنها تصفية سواثل الأوبك) بحوالي ٥,٦ مليون برميل وبالتالي تتوقع المنظمة أن يزداد الطلب على نفط الأوبك خلال الفترة أعلاه بحوالي (١,٦) مليون برميل/يوم.

من جهة أخرى فإن هنالك مشاريع جديدة في منظمة دول الأوبك لزيادة طاقتها الإنتاجية تبلغ حوالي (٦,٠) مليون برميل/يوم إضافية خلال الفترة ٢٠٠٣ - ٢٠٠٨.

ويشير نفس المصدر بأن الطلب على نفط الأوبك يتوقع أن يكون حوالي (٣٦,٠) مليون برميل/يوم خلال عام ٢٠١٠ ويصل إلى حوالي (٥٢,٠) مليون برميل/يوم خلال عام ٢٠٢٠ مقارنة بمستوى الطلب الحالي البالغ حوالي (٢٧,٠) مليون برميل/يوم.

إدارة الأوبك لسوق النفط

بعد انهيار الأسعار في عام ١٩٩٨ اتخذت الأوبك إجراء بتخفيض إنتاجها بالإضافة إلى بعض الإجراءات الأخرى التي مثلت بمجمعتها تحولا نوعيا في سلوكية الأوبك في إدارتها للسوق. لاشك إن منظمة الأوبك مؤهلة أكثر من غيرها للقيام بإدارة السوق النفطية العالمية رغم إن إنتاجها يقل عن مجموع إنتاج دول خارج الأوبك. ولكي تتمكن المنظمة من أداء دورها على أتم وجه يجب توفر شرطين أساسيين، هما: وجود نظام التزام صارم للحصص الإنتاجية للأقطار الأعضاء فيها وتوفير طاقة إنتاجية فائضة لديها وبصورة مستمرة. وهذا يحتم عليها إجراء توسعات مستمرة في طاقتها الإنتاجية تحسبا لحدوث طلب إضافي على نفوطها مستقبلا.

بالإضافة إلى التخفيضات في إنتاجها، كما أشرنا أعلاه، أدخلت المنظمة آلية النطاق السعري التي تهدف إلى استقرار الأسعار وبقاء سعر سلة نفوط الأوبك ضمن المدى السعري المتفق عليه (أي ٢٢-٢٨ دولار للبرميل الواحد). وفي حالة زيادة معدل سعر السلة عن الحد الأعلى (٢٨,٠٠) لأكثر من (٢٠) يوم عمل متعاقبة تقوم المنظمة وبصورة أوتوماتيكية بزيادة إنتاجها بواقع (٥٠٠) ألف برميل/يوم. أما إذا انخفض سعر السلة عن الحد الأدنى (٢٢,٠٠) لأكثر من (١٠) أيام متتالية تقوم المنظمة بخفض إنتاجها بواقع (٥٠٠) ألف برميل/يوم.

إن استخدام الآلية تم لمرة واحدة في شهر تشرين الأول ٢٠٠٠ عندما زادت المنظمة إنتاجها بواقع (٥٠٠) ألف برميل/يوم. إلا أن الحاجة لتطبيق الآلية أخذت تقل لأن المنظمة سلكت طريقة الاجتماعات المتعددة خلال السنة الواحدة لمراقبة السوق بصورة أدق واتخاذ الإجراءات السريعة اللازمة، فمثلا خلال عام ٢٠٠٣ أجرت المنظمة أربعة تغييرات في سقف إنتاجها.

كما قامت المنظمة أيضا بالتنسيق مع بعض الدول المصدرة خارج الأوبك وبالأخص النرويج

والمكسيك ، إضافة إلى التنسيق مع الدول المستهلكة من خلال منتدى الطاقة العالمي الذي اتخذ الرياض مركزاً له.

إن الجهود التي قامت بها منظمة الأوبك أدت إلى استقرار نسبي للأسعار منذ عام ٢٠٠٠ ولحد الآن ، حيث استطاعت المنظمة المحافظة على المعدل السعري السنوي لسلة الأوبك ليكون ضمن النطاق السعري المتفق عليه (٢٢-٢٨ دولار/برميل) خلال الفترة المذكورة ، وهذا دليل واضح على نجاح الأوبك في إدارتها للسوق.

أهمية النفط العراقي

بالرغم من ظروف الحصار والحروب التي مر بها البلد وما أعقبها من أحداث أصابت الصناعة النفطية بالدمار والخراب ، من دون مغالاة أصبح ، متميزاً بين معظم دول المنتجة والمصدرة للنفط وذلك لاجتماع عدة مميزات فيه ، فلما نجد لها مجتمعة في دول أخرى منها:

— ضخامة الاحتياطي النفطي (حوالي ١١٣ مليار برميل مؤكد و ٢١٤ مليار برميل ممكن ومحتمل) وتنوع طبيعة النفط من الثقيل جداً إلى الخفيف جداً.

— احتواء العراق على عدد كبير من الحقول النفطية العملاقة بالأخص المكتشفة وغير المطورة وتعدد المكامن في الحقل الواحد وقربها من السطح ، إضافة إلى ذلك فإن أكثر من ثلث العراق لازال غير مسكتشف.

— كلف الاستكشاف والتطوير منخفضة مع غزارة الحقول النفطية . — كلف الإنتاج (العمليات التشغيلية التي تتراوح بين دولار إلى دولارين للبرميل الواحد والتي تعتبر من الاوطأ في العالم).

— الموقع الجغرافي الاستراتيجي للعراق.

تعدد المنافذ التصديرية وتوفر شبكة معقدة من الأنابيب والموانئ تطل على جميع البحار الغربية من العراق والتي تجعل بالإمكان تسويق النفط العراقي في جميع الأسواق العالمية الرئيسية وبكلف معقولة علماً بأن طاقات تلك الموانئ والأنابيب تزيد كثيراً عن طاقتنا الإنتاجية الحالية .

طاقة العراق الإنتاجية

تاريخياً وصلت طاقة العراق الإنتاجية إلى حوالي (٣,٥ - ٣,٨) مليون برميل / يوم في عام ١٩٧٩ ثم انخفضت بعد ذلك إلى (٠,٧) مليون برميل / يوم في عام ١٩٨٣ بعد غلق الأنابيب السوري وتوقف التصدير عن طريق الخليج العربي أثناء الحرب العراقية الإيرانية . أما خلال مذكرة التفاهم فقد وصلت طاقتنا الإنتاجية إلى حوالي (٣,٠) مليون برميل / يوم وصلت صادراتنا إلى حوالي (٢,٢) مليون برميل / يوم في بعض أشهر مذكرة التفاهم ، وفي الوقت

الحاضر وصل إنتاجنا إلى حوالي (١,٨) مليون برميل / يوم خلال شهر أيلول / ٢٠٠٣ ووصلت صادراتنا إلى حوالي (١,٠) مليون برميل / يوم من المنفذ الجنوبي فقط بسبب الظروف الأمنية وتوقف التصدير مؤقتاً عن طريق الأنبوب العراقي التركي، هذا ويتوقع وصول طاقتنا الإنتاجية إلى حوالي (٢,٨) مليون برميل / يوم خلال النصف الأول من العام القادم وإلى حوالي (٣,٠) مليون برميل / يوم في نهايته. وبسبب الظروف المالية الصعبة حالياً فإن تطوير طاقتنا الإنتاجية إلى الطاقات التي تتناسب والمستوى العالمي لاحتياطياتنا النفطية (٦,٠ مليون برميل / يوم على الأقل) يتحتم علينا الاستعانة بالاستثمارات الخارجية وبالأخص من الشركات النفطية العالمية التي تتميز بتكنولوجياها العالية في هذا المجال على غرار بعض دول الأوبك الأخرى مثل الجزائر وإيران ونيجيريا وفنزويلا.

الخاتمة

يتوقع استمرار النفط كمصدر رئيسي للطاقة في العالم لفترة طويلة وقيام منظمة الأوبك بتلبية الجزء الأعظم من الزيادات المستقبلية على الطلب العالمي على النفط، بالأخص بعد عام ٢٠١٠ بعد يؤمل استقرار إنتاج دول خارج الأوبك أو بدء انخفاضه. إن العراق هو أحد الدول القليلة من بين دول الأوبك القادرة على المساهمة برفد السوق النفطية العالمية بالكميات اللازمة لموازنة العرض والطلب العالمي على النفط مستقبلاً بسبب الاحتياطيات الهائلة لمصادرنا النفطية. إضافة إلى ذلك يتصف العراق من الناحية النفطية بالعديد من الصفات التي تجعله متميزاً بين معظم دول العالم لاحتوائه على عدد كبير من الحقول النفطية العملاقة المستكشفة وغير المطورة وانخفاض تكاليف إنتاجها... الخ. إن ذلك يجعل العراق مرشحاً لأن يلعب دوراً أكبر مستقبلاً ضمن نطاق منظمة الأوبك، وكذلك ضمن النطاق السياسي الدبلوماسي العالمي أيضاً. إن العراق كأحد الدول المنتجة والمصدرة للنفط الكبيرة في العالم وأحد الدول المؤسسة لمنظمة الأوبك ينظر باهتمام كبير إلى ضرورة استمرار استقرار سوق النفط العالمي وتجنب الهزات التي تربك السوق وبالتالي فإن من مصلحة العراق ومن مصلحة الأوبك أيضاً أن يبدأ العراق بتطوير طاقاته الإنتاجية وبالسريعة الممكنة لتتناسب مع المستويات الهائلة لاحتياطياته النفطية. إلا أنه يفضل أن يكون ذلك بصورة منظمة بحيث يكون دخول طاقات العراق الإنتاجية الإضافية (بعد بلوغ طاقاته الإنتاجية السابقة) بتوقيينات معينة ومدروسة تسهل من إمكانية استيعاب السوق النفطية العالمية لتلك الزيادات ومن دون إرباكات كبيرة بالسوق.

عائدات النفط وتمويل التنمية

د. آمال شلاش

بيت الحكمة

ظلّت عوائد النفط العراقي المصدر الاساسي بل والوحيد لتمويل برامج التنمية والإنفاق الإستثماري الحكومي عموماً طوال العقود الخمسة اللاحقة لمنتصف القرن الماضي. وبالرغم من ارتفاع معدلات نمو تلك العوائد وارتفاع معدلات الإستثمار ومعدلات النمو الإقتصادي التي شهدتها الإقتصاد العراقي في سنوات لعب فيها النفط دور مأكنة النمو. إلا أن الإقتصاد العراقي لم يصل إلى مرحلة الإنطلاق أو إلى مرحلة النمو الذاتي. فقد عجزت سياسات التنمية الصناعية والزراعية عن تنويع الإقتصاد العراقي وتحريره من هيكل أحادي الجانب يربط فرص النمو في الإقتصاد برمته بما يتحقق من عائدات نفطية تحكمها اشتراطات الإقتصاد الدولي ومقتضيات السياسة الدولية التي لم تكن مؤاتية دائماً. وظل الإقتصاد يعجز بمشاكل تتفاقم على أرضية التخلف الإقتصادي والإجتماعي، ويرزح تحت أعباء متزايدة نشأت عن القروض أولاً ثم عن الديون والأعباء المترتبة عنها والتعويضات المفروضة منذ عام ١٩٩١.

وفي الوقت الذي تشكل فيه أولويات معالجة أعباء الديون الخارجية والدين العام وتمويل عمليات إعادة الإعمار، الإهتمام العاجل للسياسة الإقتصادية لعراق ما بعد الحرب... فإن التطلعات لاستئناف التنمية وتعويض سنوات التعطيل والتأجيل لبناء مقومات التطور المادي والإنساني تطرح نفسها هي الأخرى كأولوية لا تقل إلحاحاً ليس على صعيد المواطن فحسب، بل لتعزيز قدرة الإقتصاد الوطني على النمو وتجعل الأعباء المتراكمة والجديدة على المدى الطويل.

ويرد هنا التساؤل الأهم: هل ستمول عائدات النفط إحتياجات التنمية من جديد؟ هل سيعود الإقتصاد العراقي للإعتماد من جديد على إيرادات النفط والتعامل معه كمصدر للدخل الريعي الذي يمول جميع الإحتياجات، أم نتطلع إلى استخدامها كثروة تنمي التراكم وتنوع الإقتصاد وتضعه على مسار الإنطلاق والنمو الذاتي...؟ وما هي مستلزمات وتكاليف ذلك؟ وهل يوسع الإقتصاد المحلي توفير وتحمل ذلك؟

1- واقع وآفاق الإنتاج النفطي

تكاد تتفق العديد من دراسات خبراء النفط المحليين ودراسات وكالة الطاقة الدولية وخبراء النفط في العالم (*) على المرونة الكبيرة التي تتيحها إحتياطيات النفط العراقي الهائلة (١١٤) مثبتة و ٢١٤ محتملة وظروف استخراج ذات الكلفة الواطئة إلى إمكانية زيادة الطاقة الإنتاجية التي وصلت إلى ٢,٣ م/ب/ي منذ عام ١٩٩٨ وإلى ٣ م/ب/ي خلال (٦ أشهر) إلى سنة ثم إلى ٣,٥ م/ب/ي خلال سنة من بدء الإستثمارات الجديدة ثم إلى ٦ م/ب/ي خلال خمس سنوات. ومن المعلوم أن القدرة على تحويل الإنتاج إلى إيرادات تتوقف على الطاقة التصديرية والمقدرة كحد أقصى بـ ٣,٥ م/ب/ي وبضمنها ١ م/ب/ي للخط العراقي عبر السعودية المتوقف منذ سنوات وإمكانية توسيعها بالنزاع مع التوسع في الإنتاج.

(*) أنظر على سبيل المثال: "الإستثمارات الأجنبية في العراق المسوغات والمخاطر" مناظرة فكرية د. همام الشماع- د. عبدالاله مصلح، بيت الحكمة سلسلة ٢٦، ١٩٩٩.

ومن المتوقع حسب تلك التقديرات أن تصل قيمة الاستثمارات المطلوبة في قطاع إنتاج النفط والغاز وتصديرها إلى حوالي (٣٠) مليار بضمنها كلف الاستثمار الأنيّة والكلف المطلوبة للوصول إلى طاقة ٦ مليون برميل يومياً ونفقات النشاط الاستكشافي للمحافظة على مستوى الإحتياطي وتحسين طاقة التصدير والتصفية، ومن المتفق عليه أيضاً أن احتياجات الاستثمار خلال السنوات الخمس الأولى لا تقل عن ثلثي المبلغ المشار إليه.

هل سيتمكن القطاع النفطي من تحقيق ذلك دون اللجوء إلى الاستثمار الأجنبي؟
لاشك أن تحقيق ذلك الاستثمار يفترض وجود مدخرات محلية لدى القطاع النفطي، كذلك المقدرة على استقدام استثمارات أجنبية للعمل في القطاع النفطي، والنجاح ربما في عقد ترتيبات مالية لعقود مالية تسدد من النفط الخام المنتج، ويعتمد هذا التصور على الفرضيات التالية:

- * إن الشركات العالمية لديها الرغبة في الاستثمار في العراق (*).
- * بقاء التدفقات المتفائلة بشأن السوق العالمية: عرض النفط وحصة دول أوبك فيه، ونمو الطلب في الأسواق الرئيسية ومستويات أسعار مقبولة.
- * بقاء نظام الحصص داخل أوبك قائماً على أساس الاتفاق وإمكانية زيادة حصة العراق في سقف إنتاج أوبك.

* إن هناك قبولاً عاماً وإن لم يكن بدرجة الإجماع على صيغ الاستثمار في الاستكشاف والإنتاج التي تسود حالياً في الإقتصاد العالمي ومنها ما يشابه عقود الإمتيازات القديمة وغيرها من نوع الشركات المشتركة أو المشاركة في الإنتاج أو عقود الخدمة أو صيغة إعادة شراء الحصص المؤممة سابقاً. (**). ويتوقف هذا القبول على مدى فهم التحولات التي أحدثتها العولمة وتحرير الإقتصادات أمام رأس المال والتجارة بشكل عام وتحول السوق النفطية ذاتها من سوق البائع إلى سوق المشتري، الأمر الذي أفقدها ميزة التحكم بالسعر والتصرف في السوق إلى حد كبير.

ومع تحقق صحة تلك الفرضيات تبقى طاقة العراق الإنتاجية هي المحدد الوحيد للحصول على عائدات نفطية من تصدير ٤ مليون برميل يومياً عام ٢٠٠٥ و ٦ مليون برميل يومياً عام ٢٠١٠. فهل ستفي تلك العائدات باحتياجات التنمية؟ وما هي تلك الاحتياجات؟ تتوقف عملية التنمية في اقتصاد يعيش أوضاعاً طبيعية على المقدرة في تدبير الموارد الحقيقية لتنفيذ برامج الاستثمار. وتعتمد المصادر تقليدياً إلى المدخرات الوطنية وهي مجموع مدخرات قطاع الأعمال + مدخرات الحكومة + مدخرات القطاع العائلي، والموارد الخارجية (الأجنبية) على اختلاف أشكالها. وظلت أدبيات التنمية المدرسية تؤكد على مسلمات نظرية تفترض وجود علاقة عكسية أو وثيقة بين مستوى الادخار المحلي ومستوى التمويل الخارجي وتقرر بـنتيجة

(*) وهذا أمر لم يعد ممكناً التعامل معه كحقيقة مطلقة في ظل العولمة حيث لا تضطر الشركات لمجابهة الدول... بل العكس هو الصحيح فالسياسة أصبحت في خدمة الإقتصاد وليس الإقتصاد في خدمة السياسة.

(**) لجأت إيران إلى اعتماد هذه الصيغة مؤخراً كذلك عملت دول معروفة بالتشدد في سياستها النفطية كفرنزويلا والجزائر على فتح قطاعها النفطي أمام الاستثمار الأجنبي والقطاع الخاص في مجالات الإنتاج والتصفية والتوزيع والتسويق.

هي " إن الاستعانة برأس المال الاجنبي إنما تتم لغرض سد النقص أو سد الفجوة الموجودة في الموارد المحلية المخصصة للاستثمار " وسوف يترتب على تلك أعباء مالية يلتزم الاقتصاد المدين أو المضيف للوفاء بها، وإن مدى تأثير تلك الأعباء على ميزان المدفوعات تتوقف بالدرجة الأساس على كيفية استخدام الموارد الاجنبية والسياسات الاقتصادية الحاكمة لها أكثر من اختلاف شكل تلك الموارد، قروضا كانت أم إستثمارات، أجنبية مباشرة وغير مباشرة. وغالبا ما يتم الاستشهاد هنا بنموذج البلدان الآسيوية والصين.

أما الفرضية المهمة الأخرى فهي إن هناك حدودا ضيقة جدا للاحتلال بين الموارد الأجنبية والموارد المحلية. فالعجز الذي يحدث في الموارد الأجنبية - عند مستوى معين للنمو - لا يمكن التعويض عنه بزيادة الصادرات من السلع والخدمات المحلية فهي حصيلة غير قابلة للزيادة. ستمكن تدفقات الإستثمار الأجنبي المباشر - تحت شروط معينة - أن يسهم في سد النقص الموجود في الموارد المحلية لتمويل الإستثمارات المطلوبة لبرامج التنمية. وزيادة قدرة الإقتصاد على خدمة أعباء التمويل الخارجي وهي ثمن أو كلفة لأصحاب رأس المال وتمثل جزءا من الناتج القومي الإجمالي. وترتبط قدرة الإقتصاد بدورها بالمتغيرات الأساسية للنظام الإقتصادي والتي تحكم اتجاهات نموه في المستقبل. فالتغيرات التي ستطرأ على معدل الإدخار ومعدل الإستثمار ومعامل إنتاجية الإستثمار وحجم الصادرات والواردات ومعدل نمو الدخل القومي خلال عملية التنمية هي التي ستحدد قدرة الإقتصاد الوطني على خدمة التزاماته الخارجية. على المدى القصير، تعتمد تلك القدرة على حجم السيولة والعوامل المؤثرة فيها. أما على المدى الطويل، فترتبط بمرحلة النمو الإقتصادي وبطبيعة مسار وسرعة عملية التنمية الإقتصادية.

في ظل فرضيات نظرية النمو النيو كلاسيكية، يمكننا أن نوضح الآلية التي تعمل فيها الإيرادات النفطية لإحداث التعادل بين فجوة الموارد المحلية (الإستثمار - الإدخار المحلي) وفجوة التجارة الخارجية (الواردات - الصادرات) حيث كانت الصادرات تغطي دائما الفجوة الأكبر وهي فجوة الموارد المحلية. لقد بلغت نسبة الناتج المحلي الإجمالي في عام ١٩٩٣ بالمقارنة مع مثيله لعام ١٩٨٩ (٢١%) فقط، ويبين ذلك مدى اعتماد الناتج المحلي الإجمالي على النفط.

وعلى الرغم من التحسن النسبي في نمو الناتج الزراعي بعد عام ١٩٩٠ (ارتفعت مساهمته من ١٨,٩% عام ١٩٩٠ إلى ٣٥,٥% عام ١٩٩٣) في غياب مساهمة النفط، إلا أن قيمة الناتج المحلي الإجمالي استمرت بالإنخفاض (إنخفض من ٧٥ مليار دينار عام ١٩٩٠ إلى (١٨) مليار فقط عام ١٩٩٦ بسبب توقف تدفق الصادرات النفطية). إن ضيق القاعدة الإنتاجية (الزراعية والصناعية) تجعل نمو القطاعات الأخرى محكوماً بالعائدات النفطية سواء من حيث التوسع في الإستثمار أو تشغيل الطاقات القائمة ويفسر ذلك أمران:

* ارتفاع مساهمة المستلزمات المستوردة إذ بلغت نسبتها إلى قيمة الإنتاج الصناعي ٢٩,٤% في عام ١٩٩٠.

* الإنكشاف العالي على الخارج في توفير التكنولوجيا، إذ بلغت نسبة استيراد السلع الرأسمالية ٢٦% من مجموع استيرادات العراق (باعتبارها مؤشرات على القدرة على تمويل

الإستيرادات) عام ١٩٨٨ و ٣١,٥% عام ١٩٩٠. (*) ولعل ذلك يفسر تراجع مساهمة الصناعة في الناتج المحلي الإجمالي من ١٢,٣% عام ١٩٨٩ إلى ٤,٨% عام ١٩٩٣.

وفي ضوء الاحتياجات الملحة لاستئناف التنمية لابد من مواجهة حقيقتين أساسيتين هما اشتراطات عملية إعادة الإعمار وإعادة جدولة الدين الخارجي. لابد لنا ابتداءً أن نقر باحتياجات تعويض التوقف في عمليات الاستثمار (المادي والبشري) طوال سنوات الحصار ومنها تعويض قيمة الإندثار ورأس المال الثابت حيث انخفضت نسبة تكوين رأس المال الثابت إلى الناتج (بأسعار ١٩٨٠) من ٢٩,١% عام ١٩٩٠ إلى ١٢,٦% عام ١٩٩٣ (**). أما بالنسبة لتعويض قيمة الإندثار في البنية التحتية الأساسية، فبحسب تقدير الأمم المتحدة والبنك الدولي Iraq: watching Brief تشير التوقعات إلى فترة لا تقل عن أربع سنوات لإنجاز عمليات إعادة الإعمار والإعمار الضروري للنهوض بالإقتصاد العراقي. وحدد التقدير مبلغ ٣٦ مليار دولار يتم استثمارها في بيئة آمنة ومحفزة يخصص معظمها للإستثمارات في البنية الأساسية وتشمل ١٤ قطاعاً، مضافاً إليها ٢٠ مليار لتغطية احتياجات الإستثمار في القطاعات العامة التي لم تتناولها تقديرات التقرير. وتقوم تلك التقديرات على فرضيات معينة أهمها:

* إن الإستثمارات ستقود عملية إنتقالية إقتصادية واجتماعية تؤمن الحماية الإجتماعية كما تطلق إمكانات النمو الإقتصادي وتعزز مؤسسات الحكومة التي تتمتع بالسيادة والشفافية.

* إن القطاع الخاص سيكون على المدى المتوسط وسيلة حاسمة لتحقيق نمو اقتصادي قوي وخلق للوظائف.

* أن بإمكان عائدات النفط أن تسد فجوة الأموال المطلوبة بمرور الوقت.

* وعلى هذا الأساس توقعت ميزانية عام ٢٠٠٤ توفر عائدات نفطية بمقدار ١٢ مليار، والعمل على إيجاد مناخ استثماري ملائم خارج قطاع النفط يتم التمهيد له عبر سلسلة من الإجراءات المتعلقة بتحرير التجارة واجتذاب الإستثمارات الأجنبية المباشرة التي يعول عليها في سد الفجوتين.

فمع فك ارتباط نمو الناتج المحلي الإجمالي مع الصادرات النفطية، والأخذ بالإعتبار أعباء الديون الخارجية يصبح اجتذاب الإستثمار الأجنبي المباشر "الملاذ الأخير" لإعادة الإعمار واستئناف التنمية. ويفترض ذلك حصول زيادة معدل في النمو الإقتصادي وتحقيق فائض في الميزان التجاري يكون له تأثير على ميزان المدفوعات وتقليص حجم البطالة ونقل التكنولوجيا وبنية السوق المحلية والآثار السياسية والاجتماعية.

معايير اختيار القطاعات التي يوجّه نحوها الإستثمار الأجنبي المباشر

لابد أن يتم اختيار القطاعات وفق أسس تراعي الميزة النسبية والمعايير الاجتماعية أحياناً كإنتاج السلع والخدمات الأساسية، ومعايير تحقيق أهداف التنمية والتطور التكنولوجي. وسنناقش آثار الإستثمار الأجنبي المباشر على النمو الإقتصادي والفائض بقدر تعلقها بأهداف التنمية وفق المعايير التالية:

(*) انظر: "الإقتصاد العراقي في ظل الحصار وآفاق المستقبل" مجموعة باحثين - بيت الحكمة ١٩٩٨ ص ٤٩.

(**) المصدر نفسه - ص ٤٦.

أولاً: أثر الاستثمار الأجنبي المباشر على النمو الإقتصادي

- 1- يشجع الاستثمار الأجنبي المباشر الاستثمار المحلي من خلال خلق فرص استثمارية جديدة للشركات المحلية في الصناعات القائمة، ويخفف النقص الحاصل في العملات الأجنبية والبنية التحتية. كما أنه من الممكن للاستثمار الأجنبي المباشر.
- 2- الاستثمار الأجنبي المباشر يحفز الاستثمار المحلي من خلال آثار الارتباطات الصناعية - شراء المدخلات المحلية وتجهيز الشركات المحلية بالمدخلات الوسيطة. إلا أن الروابط محدودة حيث لم يتطور قطاع الأعمال بشكل كفوء لخدمة متطلبات الاستثمار الأجنبي المباشر.
- 3- زيادة صادرات البلد
- 4- الاستثمار الأجنبي المباشر يوفر المعدات والتكنولوجيا التي لا يمكن صناعتها محلياً.
- 5- المؤشر الأساسي لقياس أهمية الاستثمار الأجنبي المباشر في الإقتصاد المحلي هو:
- نسبة الاستثمار الأجنبي المباشر إلى إجمالي تكوين رأس المال الثابت.
- مساهمة الاستثمار في زيادة تكوين رأس المال الثابت الذي يؤدي إلى زيادة حجم الناتج المحلي الإجمالي.

- ان إعادة الإعمار لا توسع الطاقات.

- كذلك إن الاستثمار في طاقات عاطلة يتم تشغيلها لا يوسع الطاقات.

لكي يصبح الاستثمار حقيقياً يجب أن يترتب عليه خلق طاقات إنتاجية، أما إذا إقتصرت على مساهمات في ملكية الأصول الإنتاجية الوطنية (مشتريات الأجانب لأصول قائمة) فلن تكون له آثار تنموية لاحقة (*).

6- وتوسيع الاستثمار الأجنبي المباشر لفرص النمو سيتم خلق وظائف جديدة وزيادة فرص العمل (في حالة تناسب تكنولوجيا الإنتاج مع طبيعة سوق العمل المحلية كما ونوعاً) وإلا فمن الممكن أن يقع عبء اجتماعي كبير نتيجة البطالة الناشئة عن لجوء الشركات إلى مشاريع ذات رساميل كثيفة ومنافسة المشاريع المحلية.

ثانياً: أثر الاستثمار الأجنبي المباشر في تحقيق الفائض

يمكن النظر إلى دور الاستثمار الأجنبي المباشر من خلال مساهمته في تحقيق فائض في الميزان التجاري، ويتوقف ذلك على مدى مساهمة تلك الاستثمارات في حدوث زيادة أو توسيع في الطاقات الإنتاجية تسهم في زيادة الصادرات أو تقليل الواردات. وعند مقارنة الآثار التي يحدثها الاستثمار الأجنبي المباشر بحسب القطاع الذي يسهم فيه نلاحظ الأولوية التي يتصدرها قطاع النفط (الفقرة (٢) في الجدول أدناه) في اجتذاب الاستثمارات وفي التأثير على النمو وخلق الفائض.

(*) تقاس المساهمة الصافية في تكوين الأصول الثابتة المنتجة = الواردات الرأسمالية (وتشمل العوائد المعاد استثمارها) + استهلاك رأس المال - مدفوعات دخل الاستثمار.

المساهمة في
خلق الفائض

غير مباشرة	وفورات خارجية ترفع الإنتاجية	لا توفر موارد ذاتية لخدمة أعبائها	لا تولد طاقات إنتاجية	1- الإستثمارات في البنى التحتية
مباشرة	سوق دولية مؤاتية	لا تتطلب مستلزمات مستوردة	زيادة الطاقات الإنتاجية	2- الإستثمار في القطاعات المنتجة للسلع والخدمات من أجل التصدير
مباشرة	سوق دولية مؤاتية + قيمة الصادرات أكبر من قيمة المستلزمات المستوردة	لا تتطلب مستلزمات مستوردة	زيادة الطاقات الإنتاجية	3- الإستثمار في القطاعات المنتجة للسلع والخدمات من أجل التصدير
مباشرة	نسبة من الواردات في هيكل الصادرات	تتطلب مستلزمات مستوردة	زيادة الطاقات الإنتاجية	4- الإستثمار في القطاعات المنتجة للسلع والخدمات من بدائل الإستيراد
مباشرة	الوفر في العملة الأجنبية	تتطلب مستلزمات مستوردة	زيادة الطاقات الإنتاجية	5- الإستثمار في القطاعات المنتجة للسلع والخدمات من بدائل الإستيراد
لا تأثير		لا تتطلب	خلق طاقات إنتاجية	6- قطاعات إنتاج سلع وخدمات جديدة للإستهلاك المحلي
تأثير سلبي		تتطلب مستلزمات مستوردة	خلق طاقات إنتاجية	7- قطاعات إنتاج سلع وخدمات جديدة للإستهلاك المحلي

خاتمة

وبناء عليه فإن الإستثمار الأجنبي المباشر .. ليس أحد الخيارات المطروحة للتعامل مع متطلبات النهوض بالإقتصاد العراقي الذي كبّله الديون ودمرته الحروب بل أصبح الخيار الوحيد.

فكيف نتعامل معه .. وكيف نحقق أقصى المنافع وأقل الأضرار ؟

الشروط التي تحقق المزايا المثلى من الإستثمار الأجنبي المباشر

* هناك علاقة موجبة بين تحرير التجارة والإستثمار الأجنبي لأبد من تحققها. ولذا يقترن صدور الأمر الخاص بالإستثمار الأجنبي بإجراء تغييرات أساسية على النظام الإقتصادي العراقي.

* هناك ضرورة لأن يرتبط الإستثمار الأجنبي بالتجارة في إطار التنمية، أي أنه ينبغي التعامل معه في إطار نظرية التنمية وليس التجارة الدولية.

شروط المزايا

1- الإنتقائية في اختيار المشاريع: هدف تنموي وليس هدف تصحيح: مشاريع ذات آثار تكنولوجية.

2- الإنتقائية في حجم وتوقيت التدفقات

— حرية الحكومة في تحديد مكونات وحجم الإستثمار.

— قدرة الحكومة على وضع سياسات للتدخل في إدارة التدفقات الواردة.

— منع التعرض للصدمات.

3- مراقبة رصيد الإستثمار الأجنبي المباشر وإجمالي تدفقاته

4- منع إساءة استعمال القوة الاحتكارية للشركات المستثمرة

5- إقامة قواعد للسلوك تحكم تصرفات المستثمرين الأجانب، وذلك لمنع الرشوة والفساد والتهرب الضريبي.

6- تشكيل هيئة عليا للإستثمار الأجنبي تضم وزارة المالية ووزارة التجارة ووزارة التخطيط ووزارة الصناعة، البنك المركزي تتولى تنفيذ القانون بالتنسيق فيما بينها.

7- وضع خطة تنفيذ أمر الإستثمار الأجنبي المباشر في إطار عملية إعادة الاعمار والتنمية تحدد فيها نسبة الإستثمار إلى الناتج المحلي الإجمالي ومعدلات النمو المتوقعة والمرغوب فيها.

8- التعامل مع موضوع الإستثمار بشفافية تامة تتيح متابعة ورصد التقدم المتحقق والشغرات في القانون أو التنفيذ.

9- ضرورة تعبئة الوعي العام لرصد الممارسات والآثار الضارة والتصدي لها، ويعول على المنظمات غير الحكومية والجمعيات الأهلية والأحزاب الوطنية القيام بأدوار فاعلة تمارسها نظيراتها في بلدان العالم الأخرى بنجاح.

مستقبل صناعة النفط في العراق

عدنان الجنابي



الاحتياطي:

التحدث عن مستقبل صناعة النفط في اي مكان لابد أن يبدأ بفهم احتياطي ذلك البلد. لأن السياسة النفطية للمستقبل لابد أن تركز على امكانيات الانتاج، واحتياجاته الاستثمارية ومن ثم فهم دوره في الاسواق العالمية. وتتعلق السياسة النفطية في دورة استثمارية تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات، وهي الفترة الزمنية بين استكشاف الاحتياطي، والاستثمار فيه ودخوله الاسواق.

أ- الاحتياطي: الثابت الذي تم استكشافه ويمكن انتاجه بالسبل الفنية المعروفة حالياً وبالكلف والأسعار السائدة، من المكامن الهيدروكربونية في الطبقات الحاملة للهيدروكربونات السائلة وكما هو معلن رسمياً - (١١٢) بليون برميل. وعلى معدل الانتاج السائد قبل العمليات العسكرية والبالغ (٣) مليون برميل يومياً، يكفي لإنتاج مائة عام.

ب- يؤدي التقدم التكنولوجي والمعرفة المتكاملة للمكامن المكتشفة الى توسع في النفط الذي يمكن انتاجه من نفس الاحتياطي. فنسبة الاستخراج من النفط المكتشف في المكامن (Oil in Place) تتزايد بتحسين طرق الاستخراج، كما ان المعرفة العمودية والافقية للطبقات الحاملة للنفط تؤدي كلها الى زيادة الاحتياطي الثابت والتوسع في الاحتياطي (Reserve expansion). ويتوقع الخبراء الى ان يبلغ هذا التوسع في الاحتياطي الثابت في العراق حوالي (١٠٠٩) بليون برميل اضافية من المكامن النفطية المكتشفة حالياً.

ت- يعتبر الاحتياطي المحتمل (Probable Reserve) في العراق من أوسع الاحتياطيات النفطية في العالم. فبالرغم من ارتفاع احتمالات العثور على النفط في العراق الى أعلى نسب في العالم، فإنه من أقل الاقاليم النفطية تغطية بالنسبة للنشاط الاستكشافي بسبب الظروف السياسية والحروب والحصار. ويقدر الاحتياطي المحتمل في العراق بحوالي (١٥٠) بليون برميل.

وهذه الاحتياطيات تجعل كميات النفط التي يمكن استخراجها في المستقبل (Ultimate Recovery) تقدر بأكثر من (٣٦٠) بليون برميل. وهذا يكفي للاستمرار بمعدل الانتاج بالطاقة المتاحة حالياً لمدة ثلاث قرون ونصف!...

منذ عام ١٩٥٨ بدأت شركات الامتياز النفطية العاملة في العراق آنذاك بإتباع سياسة معاقبة العراق بالحد من انتاجه، والتقليل من حصته في الاسواق العالمية. وزادت هذه السياسة وضوحاً بعد سن قانون رقم ٨٠ لعام ١٩٦١ والمعروف بقانون الاستثمار المباشر.

ولم يتعافى انتاج العراق حتى عام ١٩٧٥. واستمر انتاج العراق بالتزايد حتى بلغ اقصاه في نهاية عام ١٩٧٩ إذ بلغ أكثر من (٣,٥) مليون برميل يومياً ثم عادت طاقة العراق على الانتاج والتصدير بالتدهور طوال فترات الحروب والحصار بين عام ١٩٨٠ حتى هذا العام. ويتوقع لانتاج العراق النفطي ان يبلغ (٢) مليون برميل نهاية هذا العام، وقد يصل الى (٣,٥) مليون برميل يومياً في نهاية عام ٢٠٠٤.

أطر السياسة الداخلية:

لكي يأخذ العراق دوره في الاسواق العالمية، ولكي تتوفر للصناعة الوطنية أطر مناسبة للقيام بهذا الدور، لابد من إعادة هيكلة صناعة النفط الوطنية داخليا بما يحقق الاهداف التي تحددها حكومة وطنية ذات سيادة ومنتخبة من قبل الشعب.

1- وأول ما يجب عمله في هذا المضمار هو عودة تشكيل شركة نفطية وطنية تعنى بالاستكشاف والاستخراج والتصدير. ولا فرق أكانت هذه التشكيلة على شكل شركة قابضة تضم الشركات العامة للاستكشاف والحفر ونقط الشمال والجنوب ونتاج الغاز - أو كانت شركة نفطية عضوية التكوين كما كانت شركة النفط الوطنية العراقية (I.N.O.C.).

2- تشريع قانون مناسب لضريبة الدخل على الانتاج النفطي والغازي يخضع له كافة المنتجين للهيدروكربونات السائلة والغازية سواء كانوا شركات عامة (حكومية) أو خاصة (محلية أو أجنبية). ومثل هذا القانون يسهل عمل جميع المنتجين ويضمن حصص المجتمع ووزارة المالية في هذه الصناعة الاستخراجية. ولابد ان تكون نسبة الضريبة المقبولة في العراق عالية بسبب انخفاض كلف الانتاج وارتفاع معدلات الاستخراج للبئر الواحدة.

3- وضع إطار يسمح لمشاركة القطاع الخاص المحلي والاجنبي في صناعة النفط التحويلية والتوزيعية (عدا الاستخراج). وينبغي ان يشترط هذا التشريع وضع حد أدنى للجانب العراقي، بما لا يقل عن ٥١% وخاصة في النقل والتوزيع.

4- عدم السماح بأي نوع من المشاركة أو الالتزامات الدائمة في القطاع الاستخراجي للنفط والغاز، وترك البت في هذا الموضوع لبرلمان منتخب بصورة شرعية. وهذا لايعني بطبيعة الحال عدم الاستفادة من التكنولوجيا المتاحة عالمياً، وخاصة لدى الشركات الامريكية والبريطانية والفرنسية والالمانية والايطالية عن طريق عقود المقاول وحسب محاصصة الانتاج ذات الامد المحدود والتي تنتهي بسداد الكلفة وهذه المرونة ضرورية لتمويل الاستثمارات الكبيرة المطلوبة لإعادة التأهيل والتطوير في المراحل الاولى.

5- تفعيل قانون صيانة الثروة النفطية وتطويره للحد من الممارسات غير السليمة فنياً وبيئياً، وان يكون تطبيقه شاملاً على جميع الوحدات العاملة في صناعة النفط والغاز، وان يطبق من قبل هيئة مستقلة.

6- اعتماد ستر اتيجية للتعجيل في نقل نمط استهلاك الطاقة محلياً من النفط الى الغاز لتعظيم فائدته الاقتصادية والبيئية، والتسريع في بناء قاعدة صناعية معتمدة على الميزة الاقتصادية للغاز المحلي في مجالات لها ميزة نسبية واضحة مثل الاسمنت، والكهرباء، والزجاج... الخ. كما يجب التسريع في إدخال الغاز العراقي الى السوق الاوروبية عن طريق تركيزه في البحر الابيض المتوسط.

الاستراتيجيات:

ينطلق العراق من قاعدة واضحة تؤهله للتوسع السريع في الاستثمار في الطاقة الانتاجية. فهو الاوطأ كلفة في العالم بين المنتجين المهمين. ففي الوقت الذي تقدر الاستثمارات اللازمة لانتاج برميل واحد يومياً بأكثر من (١٠,٠٠٠) دولار خارج منطقة الخليج، ونصف هذا المبلغ في منطقة الخليج، فإن المبالغ اللازمة في العراق لانتاج برميل واحد يومياً لا تتجاوز

(٣,٢) الاف دولار. أي ان اضافة مليون برميل يوميا قد لا تتجاوز ثلاثة مليارات دولار. كما ان منافذ التصدير الحالية عن طريق المينائين البحرين والانبوب المار بالسعودية والانبوب السوري والانبوب المارة بتركيا قادرة على تصدير نحو ستة ملايين برميل يوميا. ولن يكون ذلك بطبيعة الحال دون الحاجة الى استثمارات في الصيانة والتوسيع وطاقات الخزن المناسبة.

ولابد للعراق الجديد ان يأخذ مكانه المناسب في الاسواق العالمية والذي حرّمته منه شركات النفط الاجنبية وانظمة الحكم الدكتاتورية. ويؤهل العراق لهذا الدور انخفاض الكلف الاستثمارية والاستخراجية وغازة احتياطياته التي يتفق جميع الخبراء على انها الاقدر في العالم على توفير الاحتياطيات الجديدة للرصيد العالمي من الكربوهيدرات السائلة والغازية. وتدل المؤشرات على ان الغاز الطبيعي العراقي قد يكون الاكبر في العالم بعد روسيا وايران. والبلد الذي يملك الاحتياطي الكبير وبكلفة استثمارية وتشغيلية واطئة مثل العراق يجب ان يسعى الى سياسة نفطية توسعية مبنية على:

- أ. اتباع سياسات تؤدي الى اسواق عالمية مطردة الاتساع، واقتصاد عالمي عالي النمو.
- ب- اتباع سياسة سعرية معتدلة ومستقرة.
- ج- بناء علاقات طويلة الامد وتكاملية مع الاسواق المهمة في العالم وخاصة المتسعة منها.

ولابد لاي استراتيجية عقلانية لبلد له صفات العراق ان تكون مبنية على مؤشرات أهمها:

- 1- توفير أعلى عوائد في الامد القصير. لدعم اعادة اعمار وتوفير زخم تنموي لا يقبل التأخير.

- 2- وضع منظور تاريخي لحجم الاحتياطي العراقي يجعله على الاقل في مصاف احتياطيات الدول المجاورة والتي لا تتجاوز نسبة الاحتياطي الى الانتاج فيها (١٠٠) سنة.. وهذا يعني بلوغ طاقة الانتاج المستهدفة في الامد المنظور (٩) مليون برميل يوميا.

- 3- توفير طاقة انتاجية تتجاوز الحاجة المباشرة للأسواق المتاحة آنيا، وذلك لاستباق دورة الاستثمار التي تبلغ (٣-٥) سنوات، وتوفير اداة فاعلة بيد العراق للتأثير في الاسواق العالمية وقيادتها نحو التوسع والاستقرار.

- 4- التقييم العاجل، وباحدث التقنيات للمكامن المنتجة والتي تعرضت الى سوء استغلال، واتخاذ موقف حازم وفوري في اي ممارسة تضر بمستقبل الاستخراج من هذه المكامن.

- 5- فتح حوار مباشر مع شركات النفط العالمية (I.O.C) حول المساعدة في ادخال التقنيات الحديثة الى صناعة النفط العراقية، ومستقبل واشكال التعاون الممكنة في المراحل اللاحقة، دون الدخول بتعاقدات دائمة حول الانتاج لحين قيام حكومة منتخبة وشرعية في العراق.

- 6- تكوين صندوق لتمويل الاستكشاف في البادية الغربية وبقية انحاء العراق غير المستكشفة، وتأجيل أي التزام استثماري بصدها، لكي يكون العراق في وضع تفاوضي افضل في المستقبل، ولتتعامل المفاوضات العراقي على معلومات ثابتة، لا على مخاطر مجهولة. والعبء الاستثماري لهذا الصندوق سيكون ضئيلا بالمقارنة بمردوده المضمون لارتفاع احتمالات العثور على احتياطيات جديدة.

خيارات ادارة الملكية في صناعة النفط العراقية

د. كاظم جواد لفته *

مدخل:



ان حديثاً جدياً متمسماً بالمهنية وروح المسؤولية العالية عن قرار سياسي عراقي محض بشأن تحرير النفط من سلطة الدولة وخصخصته في الوقت الحاضر مازال بعيداً عن الواقعية ويكتنفه الغموض والتسرع. هذا الحديث من المحتمل أن يثير القلق والتشويش في الفكر السياسي العراقي الراهن، الذي يواجه مخاض عسير لولادة خيارات بناء هياكل دولة جديدة يكون فيها الانسان العراقي نقطة البدء والهدف والعقيدة معاً. ان العقل السياسي العراقي، بعد اجتيازه امتحان مواجهة النظام البائد، بحاجة ملحة للتهدئة وجمع الشتات والعقلانية ووضوح الهدف وآلية العمل حول القضايا الكبرى التي تواجه حاضر العراق ومستقبله مثل قضايا الحكم والادارة العامة والسلام الاجتماعي وادارة مستلزمات التطوير الاقتصادي والتقني وغيرها. والسياسات والاستراتيجيات الخاصة بالقطاع النفطي في كل ذلك مكانة ووظيفة تتصفان بالاهمية القصوى والخطورة والتعقيد والتأثير في المسار الذي ستتوّل اليها محاولات اعادة بناء شاملة للمجتمع والاقتصاد والانسان في آن واحد. من هنا سيكون للنقاش المفتوح حول اتجاهات وكيفيات ادارة صناعة النفط دوراً مهماً في تقرير شكل ومحتوى واتجاه مايراد ان يصبح عليه العراق حاضراً ومستقبلاً.

ما طرحه الدكتور فاضل الجليبي في محاضراته "حاضر ومستقبل صناعة النفط في العراق" (جريدة المؤتمر، الصادرة في لندن، عدد ٣٥٢ في ٣/٦/٢٠٠٣) من طروحات يشير الى عمق التفهم لمعضلات صناعة النفط، وكذلك يوظف الحوار عنها ويقرر منهجية دراستها ورسم سياسات ملائمة لها من منطلق الدراية والخبرة والرغبة الوجدانية في أن ينعم الشعب كله بثرواته الوطنية، وان لاتصبح هذه الثروات سبباً لعبوديته واذلاله، وان لا يؤدي التصرف بها الى اعادة شروط انتاج آليات إقصائه عن المشاركة الفاعلة في تقرير وتحقيق عمليات الجهد الوطني العام لتطبيع الحياة في البلاد.

وفي هذا الصدد يتبنى الدكتور الجليبي الطروحات التالية:

* "ان فكرة الدولة الراعية والمالكة للنفط والمتصرفة بعوائده خطأ يحول الدولة من نظام ادارة الى قوة قمعية. وان الدولة حولت النفط من سلعة الى عقيدة.. وفيما جعل منه الحاكم ملكاً شخصياً.."

* بناء على ذلك، يقترح "تحرير النفط من سلطة الدولة وخصخصته والتخلي عن فكرة ان النفط هو ريع للدولة.. وان الخصخصة تشمل الاحتياطات النفطية".

* ولتحقيق هذه الاقتراحات يرى ضرورة "طرح صناعة النفط على شكل أسهم عامة في سوق مالية واعتماد مبادئ (الضرائب المستقطعة من الشركات كعائدات للدولة) و (نظام المدفوعات) .. و اشراك كافة المواطنين في آليات هذه الصناعة وعوائدها.."

* بروفيسور إدارة أعمال

* ونتيجة لذلك، يؤشر د. الجلبي الاطر الاساسية التي ينبغي اعتمادها لتجاوز صعوبات الاقتصاد العراقي، بمعنى آخر الاهداف التي تبنيها عملية خصخصة صناعة النفط وهي "خدمة الديون الخارجية، تأمين حاجات الاستيراد، إعادة اعمار البلاد".

وفي ضوء الاهداف العامة للسياسات الاقتصادية والاجتماعية التي يراد تحقيقها في عراق المستقبل ومنها هدف الاستفادة والعقلانية القصوى من الثروات النفطية من خلال تبني وتنفيذ استراتيجية شاملة لما ستكون عليه الصناعة النفطية حاضراً ومستقبلاً أرى ضرورة تثبيت عدد من المقدمات الأساسية:

* اقتصاد السوق أكثر قدرة وكفاءة في ادارة الموارد الطبيعية والبشرية مقارنة بالتخطيط المركزي للدولة. ان آليات عمل قوانين السوق توفر فاعلية اقتصادية أكبر لادارة الصناعة النفطية مقارنة بالقرارات البيروقراطية للجهاز الاداري الحكومي. وان عملية الخصخصة من خلال آليات قوى السوق ستحقق اهدافها الاجمالية بنجاح أكبر مقارنة بآليات الجهاز البيروقراطي للدولة.

* ضرورة الاقرار بحالة التفاضل النوعي والكمي للمؤسسات والقطاعات والنشاطات الاقتصادية والانتاجية المختلفة والتوزيع والاستهلاك والاستثمار والادارة عند البحث في تغيير شكل ملكيتها.

* ضرورة الاقرار بالاهمية السياسية لاستراتيجية خصخصة مؤسسات القطاع العام والاقرار بأهمية البعد التاريخي لتطور المؤسسات والقطاعات الانتاجية والاخذ بالاعتبار ما أسماه الاقتصاد الامريكي (H.Saimon) "ذاكرة المؤسسة" في اجرائيات نقل الملكية.

* الاقرار بأهمية الربط العضوي بين مبدأ حرية السوق وبين ضرورة الانسجام الاجتماعي عبر اختيار أحد نماذج الادارة والرقابة قبل الشروع الفعلي بالخصخصة أو خلال فترة تحقيقها.

* في اقتصاد السوق تؤدي الدولة وظائفها عبر سبيلين: الاول، كمؤسسة سياسية تنظم وتضبط النشاط الاقتصادي والاجتماعي العام في البلاد من خلال التشريع القانوني وتطبيقه، الثاني، كمؤسسة اقتصادية من خلال امتلاك قطاعات ومؤسسات وأنشطة انتاجية وخدمية معينة تخضع لفعل قوانين السوق شأنها في ذلك شأن المؤسسات الخاصة.

عند النظر بشيء من التروي الى طروحات خصخصة الصناعة النفطية العراقية من زاوية مقدماتها وتبعات تبنيها في الواقع العراقي تتضح لي جملة معضلات أوجز الحديث عنها كما يلي:

أولاً: الدولة

لغاية اللحظة الراهنة لا توجد مقدمات سياسية أو دستورية يمكن بموجبها الافتراض بأن شكل ادارة الدولة المقبلة، المزمع تكوين مؤسساتها وجهازها الحكومي على ضوء تبني قسيم جديدة، سيكون مماثلاً لشكل الادارة الشمولية للدولة العراقية منذ عام ١٩٥٨، وخصوصاً الادارة البعثية المقبورة بعد عام ١٩٦٨. ان الاختلاف النوعي بين ماهية الدولة "المستقبلية" والدولة "السابقة" يكمن في نموذج الادارة ووظائفها وليس في ماهية مؤسسة الدولة ذاتها.

فإذا ما قُدرَ لفلسفة بناء الدولة الجديدة الانتصار على فلسفة إدارة الدولة البائدة (وهو ما نامله) فليس بمستطاع الجهاز الحكومي الجديد امتلاك امكانيات وآليات تحويل سلعة النفط الى عقيدة والتالي الى قوة قمعية. ومن الانصاف القول بأن بقاء قطاع النفط في يد الدولة الفتية سيكون بمثابة اغراء كبير لها لتحويله الى اداة مؤثرة في تخطيط وتنفيذ سياساتها وتوجهاتها المختلفة وضمان شروط وجودها. بيد ان الطبيعة الديموقراطية المفترضة لمقدمات بناء مؤسسات دولة جديدة والوجود المفترض الفاعل لمنظمات المجتمع المدني ستكون بمثابة صمام امان واق من الوقوع في شرك الاغراء هذا.

ثانياً: الأهداف

يبدو ان الاهداف المراد التوصل اليها من خصخصة الصناعة النفطية، كما يستشف من محاضرة الدكتور الجلي، ذات طبيعة خارجية (نسبة الى نشاط الصناعة ذاتها)، تتمثل في خدمة الدين الخارجي، تأمين الاستيراد، اعمار البلاد وليست اهدافاً داخلية لهذه الصناعة تتناول تطويرها وزيادة كفاءتها الفنية والتنظيمية والاقتصادية. هذه الاطروحة تتنافى، في المضمون، مع التجربة العالمية في خصخصة المؤسسات والقطاعات الانتاجية والخدمية والتي تهدف الى نقل المؤسسة أو القطاع من دائرة مركزية الادارة الحكومية البيروقراطية لنشاطاتها الاقتصادية المختلفة الى دائرة فعل السوق المفتوحة، حيث الاثر الفاعل لمؤشرات المنافسة والابداع وتحمل مسؤولية المخاطر وظروف عدم التأكد وامكانيات تطبيق المنجزات الحديثة في الادارة وتكنولوجيا الانتاج وتنظيمه.

ان تحقيق اهداف خارجية للخصخصة في الامدين القصير والمتوسط يعني إبقاء نشاطات الصناعة النفطية خارج دائرة التفاعل العضوي مع بقية قطاعات الاقتصاد، وهي الحالة التي اتصفت بها الصناعة النفطية العراقية على الدوام. ومن المحتمل أيضاً ان يكون احد اهداف الخصخصة جذب الاستثمارات الخاصة (الوطنية أو الاجنبية) نحو الصناعة النفطية لتحديث وزيادة الانتاج فيها كهدف داخلي. بيد ان مقارنة المخاطر السياسية والاجتماعية والاقتصادية، المصاحبة لعملية نقل ملكية قطاع النفط، مع حجم الاستثمارات المطلوبة (خمسة مليارات دولار كما يشير الدكتور الجلي، وفي حدود ملياري دولار في تقديرات اخرى) لعملية اصلاح والتاهيل لأرجاع قوة الطاقة الانتاجية للقطاع الى وضعها الطبيعي لن تكون في صالح اتخاذ وتنفيذ ستراتيجمات تجاه أحد أهم ميادين الحياة في العراق المعاصر، ذلك ان الكلفة الاجتماعية لتبني وتحقيق أي ستراتيجية غير مدروسة بما فيه الكفاية في هذا الشأن ستكون أكبر مقارنة بالنتائج الأنية وعلى المدى المنظور لها.

ثالثاً: الملكية والادارة

للملكية وظائف محددة تنشأ مع الطابع الجوهري لهذه المؤسسة (كما هو حال مؤسسة الدولة، أو مؤسسة السوق أو غيرها من مكونات المنظومة المؤسساتية العامة في البلاد) وامتداداتها في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وان نقل الملكية، عن طريق الخصخصة،

سيؤدي بالضرورة الى تحولات كمية ونوعية في طبيعة هذه الوظائف واهداف وسبل تحقيقها.. هذا التحول الهيكلي النزع في وظائف الملكية سينشأ بسبب تغيير ستراتيجية ادارة نشاط موضوع الملكية وتغير المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية الدائرة حول استغلال هذا الموضوع والاستحواذ على ثمار ادارة نشاطه والتصرف بها.

بيد ان المسألة الجوهرية في هذا السياق تتعلق بالمسار الذي ستصبح عليه علاقة الترابط المتبادل مابين شكل الملكية ونمط ادارتها. في العراق اتسمت العلاقة دائماً مابين ملكية الدولة لقطاع النفط والنمط البيروقراطي الحكومي في ادارة شكل الملكية هذا بالانسجام وعدم الانفصال الهيكلي والوظيفي، مما قاد في المحصلة النهائية الى نتائج كارثية على مستوى الانسان والاقتصاد الوطني والقطاع ذاته. وفي حالة نقل الملكية من الدائرة البيروقراطية للجهاز الاداري الحكومي الى دائرة القطاع الخاص، فسنجد انفسنا امام حتمية ظهور ظاهرة اقتصادية جديدة، يتلخص مضمونها بالانفصال البنيوي والوظيفي مابين شكل الملكية الجديد وبين مايلائمه من نمط تنظيمي واداري جديد. ان تبني آليات اقتصاد السوق في ادارة النشاط الاقتصادي العام في البلاد وما يلزم هذا الاقتصاد من طابع ديمقراطي في سلوك مؤسسة الدولة ورقابة منظمات المجتمع المدني المفتوح وكذلك تعمق عمليات التخصص وتقسيم العمل في الانتاج الاجتماعي تقود الى بروز نزعات انفصال الملكية عن الادارة وحتمية تجزئة حقوق الملكية الى مكونات مستقلة وامكانية تجمعها من جديد في اشكال وتراكيب متنوعة، تفترض، بدورها، ظهور انماط جديدة هي الاخرى لادارتها.

ان المثال الكلاسيكي لهذه الظاهرة هو الارتقاء الكمي والنوعي لوظائف ادارة المؤسسة الاقتصادية. ففي مجرى تعمق تقسيم العمل الاجتماعي والتخصصي فإن الوظيفة الانتاجية لادارة الاعمال ستكون خاضعة بشدة لوظيفة التطوير الاستراتيجي للمؤسسة، وان هذه الوظيفة، بدورها، تقررها السياسات الاستثمارية والتسويقية والابتكارية وغيرها، مما يحتم، بالنتيجة، فصل هذه الوظائف عن الملكية، بمعنى آخر، ان تحقيق وظائف ادارة الاعمال سيتم خارج نطاق علاقات الملكية التقليدية.

ان اقتراح طرح صناعة النفط العراقية على شكل اسهم عامة في سوق مالية ما هو الا اقرار واقعي وقانوني بانفصال الملكية عن ادارة الاعمال (Business Administration) وليس جدلاً اكاديمياً في موضوع النظرية الاقتصادية. لكن نقل ملكية قطاع النفط بهذه الصيغة التنظيمية/ القانونية (انشاء شركة أو شركات مساهمة، اتحاد او اتحادات مالية/ صناعية وغيرها في مجال صناعة النفط العراقية) سوف لن يجعل من المساهمين (حَمَلَة الاسهم) مالكيين واقعيين للشركة أو الاتحاد، إذ ان هذه الصيغة المقترحة لادارة صناعة النفط ماهي في حقيقة الامر الا سبيل مؤسستي لفصل الملكية عن الادارة. ولغرض ان يحقق هذا السبيل المؤسساتاتي اهدافه ووظائفه بانتظام وكفاءة عالية يجب أن يُصار في البداية الى تهيئة ملائمة لشروط تأسيسه، باعتباره جزءاً مكملًا لمنظومة مؤسساتية عامة، والى اختيار نموذج اداري ملائم للصيغة التنظيمية/ القانونية المقترحة في ظروف الواقع الحالي والمستقبلي للاقتصاد العراقي.

رابعاً: الاقتصاد والادارة

من خلال استقرار مواقف القوى السياسية العراقية المعارضة سابقاً لنظام الحكم البائد، والاطلاع على السياسات المعلنة لقوى التحالف الدولي التي ساهمت في تحرير العراق، وكذلك على ضوء الاتجاه العام الدولي في مجال اشاعة الديمقراطية السياسية والاقتصادية في أنظمة الحكم للبلدان المختلفة، يمكن القول، بأن العراق مقبل قريباً على انشاء دولة عصرية تتسم بديموقراطية مؤسساتها وباقتصادها الحر والمفتوح والتنوع الكبير في منظمات المجتمع المدني والتعددية السياسية وإشباع حقوق الانسان وحقوق الملكية والاستقرار السياسي (وخاصة سيادة مبدأ التداول السلمي للسلطة السياسية) وغيرها من المظاهر المميزة لدولة متحضرة.

هذه المقدمات السياسية والدستورية والقانونية، وايضاً الرغبة الاكيدة في الغيش الكريم المشترك في وطن واحد هو العراق لدى ابنائه جميعاً ماهي إلا شروطاً أساسية لاغنى عنها مطلقاً عند الحديث عن امكانية تغيير طابع ملكية قطاع النفط، بل يمكن الجزم هنا بأن هذه الشروط ماهي إلا مكونات عضوية لنجاح التحولات الاقتصادية والاجتماعية المنشودة.

غير ان هذه المقدمات، والتي افترضت غير جازم بامكانية تحقيقها في الامدين القصير والمتوسط لتبني وانجاح عملية خصخصة قطاع النفط العراقي من الناحية الفنية على الأقل، سوف لن تكون كافية إذا لم يؤخذ بنظر الاعتبار طابع الاقتصاد العراقي. وفي السياق ذاته تكتسب أهمية بالغة مسائل حرية وهدفية وعقلانية اختيار نموذج اقتصاد السوق ومايلائمه من نموذج اداري لقطاع النفط في الظروف الجديدة بمعزل عن ضغط العوامل المختلفة للفترة الانتقالية الحالية، والتي لا أحد يجزم، حسب اعتقادي، بطول فترتها الزمنية ولا النتائج التي ستتمخض عنها. سأتناول في هذا الصدد اربعة معضلات رئيسية:

1- من الناحية العملية لا يوجد تراكم حقيقي وكاف لرأس المال خارج دائرة الصناعة النفطية يمكن توظيفه في هذه الصناعة من قبل القطاع الخاص الوطني في حال الشروع في خصخصتها بواسطة آليات السوق المعروفة. من ضمن اسباب هذه الظاهرة الاقتصادية يمكن الإشارة الى السياسات المتعمدة التي تبناها النظام المقبور في تدمير شروط نشاط ونمو طبقة وسطى كان يخشى منافستها السياسية المستقبلية له. ضف الى ذلك سياسات توزيع الثروة الوطنية التي تبناها النظام البائد والرامية الى خلق موالين سياسيين له من أفراد وعشائر وطوائف ومناطق جغرافية اختيرت بعناية فائقة ومقصودة، مما ادى الى تشوه شروط التطور الاقتصادي العام في البلاد وحرمان الغالبية العظمى من الشعب العراقي من التمتع المشروع بخيراته الوطنية واستبعادهم من المساهمة الفاعلة في الجهد الاقتصادي والسياسي العام لتطوير البلاد وازدهارها. في هذا السياق أجد نفسي مضطراً للاتفاق مع وجهة نظر الداعين الى ضرورة عزل بعض فئات الحزبيين البعثيين من الحياة السياسية في البلاد. واضيف اليها فكرة "العزل الاقتصادي" من دائرة صناعة النفط تجديداً (وفق قانون خاص) لكل من استفاد بدون وجه حق مشروع أو ساعد على اساءة استخدام الثروة الوطنية سواء كانوا أفراداً أم جماعات أم شركات.

لاتتعلق الدعوة الى العزل الاقتصادي من مبررات اخلاقية حسب (رغم فداحة الظلم

الاجتماعي والاقتصادي الذي لحق الغالبية العظمى من الشعب العراقي ومناطقه) بل من مبررات اقتصادية على قدر كبير من الخطورة السياسية على النظام السياسي الذي نسعى لاعادة بناء قواعد وقيم متحضرة فيه. الخطورة السياسية تكمن في كون هؤلاء الاشخاص (وبعضهم عرب وأجانب) قد جمعوا ثروات طائلة سيحاولون استخدامها، إذا اتاحت لهم الفرصة للعودة الى السلطة (و/ او المساعدة في العودة الى السلطة) عبر ("نافذة") الصناعة النفطية بعد ان اخرجوا عنوة من (باب) دائرة الحكم. ان امكانية الاستحواذ على أسهم صناعة النفط وبالتالي ادارة نشاطها، عبر المنظومة المصرفية - المالية الجديدة، سيمنح هؤلاء قوة اقتصادية كبيرة ومهيمنة يتمكنهم، في ظروف الديموقراطية السياسية الجديدة، من اكتساب النفوذ السياسي والسعي الى العودة للحكم مجدداً، أو في أقل تقدير الى اثارة عدم الاستقرار في المنظومة السياسية الجديدة والهشبة قصد اعاقا الجهد العراقي نحو تطبيق الحياة السياسية في البلاد.

2- إن طرح صناعة النفط على شكل أسهم عامة في سوق مالية يتقضي وجود سوق فعلية لها بنيتها التحتية، هياكل وآليات عملها، قوانين ضابطة، وثقافة تنظيمية لمؤسساتها وغيرها من الشروط والمؤشرات اللازمة لمنظومة اقتصادية متكاملة.

من هنا تقتضي الضرورة العملية تكوين مثل هذه المنظومة، ومن ضمنها منظومة السوق المصرفية - المالية، قبل الشروع في عملية خصخصة مؤسسات القطاع الحكومي ومنها المؤسسات النفطية ولا بد ان تصبح فعليا آلية المنافسة الحرة والنزبية هي المحور الذي يجب ان تستند اليه جميع الافعال الهادفة الى الاصلاح الاقتصادي، وان يكون للتدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي، في ظروف ومجالات وشروط يضمنها قانون خاص، دوراً فاعلاً في تأمين شروط اداء اقتصادي عام فعال ومتوازن. وبما ان عملية تكوين سوق مصرفية - مالية لتداول الأسهم والسندات والادخارات والاستثمارات سترتبط عضوياً بغايات ومبادئ ونماذج بناء منظومة عامة للنشاط الاقتصادي في البلاد، فإن مقدمات بناء المنظومة الاخيرة ستقرر هياكل الدولة الجديدة، السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، من خلال المفاضلة ما بين خيارات نماذج متنوعة لاقتصاد السوق، والتي هي بدورها، مشروطة بتنوع كبير في أشكال الملكية. ان الاختيار الصائب لنموذج اقتصاد السوق والمنظومة الاقتصادية العامة الملائمة له سيكون ضماناً أكيدة لاختيار نموذج فعال وملائم لادارة شكل الملكية الجديدة لمؤسسات صناعة النفط.

3- يمكن تصنيف نماذج اقتصاد السوق الى اربعة فئات كبيرة.. الاولى، مبنية على قاعدة عمل آليات السوق الموجهة ذاتياً للاقتصاد (الولايات المتحدة الامريكية، بريطانيا، استراليا، وغيرها).

ويكون حجم ملكية الدولة فيها ضئيلاً، والتدخل الحكومي المباشر لضبط وتنظيم عمليات الانتاج والادارة في حدوده الدنيا. الفئة الثانية، نموذج اقتصاد النزعة الاجتماعية (المانيا، فرنسا، البلدان الاسكندنافية وغيرها) حيث الدور الاجتماعي الكبير للدولة في توجيه الاقتصاد عبر آليات السوق، ووجود منظومة متطورة للضمان الاجتماعي، والحصة الكبيرة لملكية القطاع العام في الناتج القومي الاجمالي. لكن هذا النموذج يتصف أيضاً بعدم المرونة

بحكم سعي الدولة الدائم لإيجاد حلول وسط مقبولة بين مطالب رأس المال والعمل، اما الآليات التي عليها ان تتكيف مع أو تؤثر في تغيرات حالة الأسواق (Marketeering) فهي بعيدة عن الكمال. الفئة الثالثة، نموذج العامل الانساني (اليابان وغيرها)، حيث الدور الهام والكبير للأنسجام في علاقات التفاعل المتبادل والشراسة ما بين رأس المال والعمل والنقابات والدولة. الفئة الرابعة والاخيرة، النموذج المطبق في الكثير من البلدان النامية، والذي يشتمل على توليفات متنوعة من خصائص الفئات الثلاثة السابقة لأقتصاد السوق، حيث تكون فاعلية ادائه مشروطة بالتنوع الكبير في الهياكل الاقتصادية والسياسية لهذه البلدان.

4- نماذج اقتصاد السوق اعلاه تقابلها ادارة مساهمة (Corporate Governance) ، ويمكن تصنيفها هي الاخرى الى مجموعتين كبيرتين. الاولى: نموذج التوجه السوقي (الولايات المتحدة الامريكية، بريطانيا، وغيرها) حيث الدور الحاسم لأسواق الاسهم والرأسمال في توجيه نشاط الشركات المساهمة وبالأخص مسائل الادارة وضمان مصالح المساهمين. المجموعة الثانية، نموذج التوجه الاجتماعي أو "المؤسّس" على علاقات (Relationships) (بلدان اوروبا القارية، اليابان وغيرها)، حيث الدور الكبير للبنوك في توجيه نشاط الشركات المساهمة وضمان مصالح جميع من له علاقة بنشاط الشركة المساهمة مثل المساهمين، الدولة، جماعات العمل، اجهزة ادارة الشركة وغيرهم. هذا النموذج الاداري يتميز بديموقراطيته مقارنة بالنموذج الاول. وبما ان توصيف هذه النماذج الادارية يخرج عن نطاق الغرض المرسوم لهذه الدراسة، أود الإشارة فقط الى بعض الدلائل الأساسية التي يمكن استخدامها في مقارنة هذه النماذج واختيار النموذج الأمثل والملائم لظروف العراق الجديدة:

- الأشخاص الفعالين (مساهمي الشركة وكل من له علاقة أو مصلحة في نشاطها).
- هيكل وحجم تملك أسهم الشركة المساهمة.
- أهمية المساهمين وكيفية توزيع الادوار فيما بينهم.
- اسلوب الرقابة على نشاط الشركة المساهمة.
- هيكل وصلاحيات ادارة (Management) الشركة المساهمة.
- آلية توفير الاموال الاستثمارية للشركة المساهمة لأغراض التطوير.
- مستوى جاهزية القواعد القانونية المنظمة لإنشاء وعمل المؤسسات المساهمة في شكل جمعية مساهمة (Joint Stock Company) أو شركة مساهمة (Corporation).
- آلية تأمين الشفافية والانفتاح في نشاط الشركة المساهمة.
- آلية ضمان مصالح المساهمين، وبالأخص حملة الاسهم الصغار.

خامساً: النفط

على ستر اتيجية الخصخصة الأخذ بنظر الاعتبار واقع التفاوت الكبير في المضامين السياسية والاقتصادية والاجتماعية لوظائف ومؤشرات وفعاليات الصناعة النفطية المتنوعة:

1- من الناحية العملية يمكن خصخصة نشاطات مصافي التكرير ومصانع

البتر وكيمياويات ومحطات تعبئة الوقود، كما هو الشأن بالنسبة لخصخصة مؤسسات القطاع العام خارج نطاق الصناعة النفطية، بدون تكلفة سياسية واجتماعية كبيرتين (رغم كثافة رأسمال هذه الأنشطة) بعد استكمال انشاء منظومة اقتصادية جديدة تسودها المنافسة النزيهة واحترام حقوق الملكية الخاصة وكما ان تدخل الحكومة في نشاط هذه الدائرة من الاقتصاد الوطني لا يخل باليات عمل اقتصاد السوق ويكون مبرراً اقتصادياً. ان الكفاءة الاقتصادية لنشاط فروع الصناعة النفطية، المشار اليها أعلاه ستكون خاضعة لمستوى واتجاهات التغييرات الهيكلية في الاقتصاد وتاثر تطوره ودرجة انفتاحه على السوق الدولية في التجهيز الرأسمالي والتكنولوجي واستقطاب الاستثمارات ومؤشرات تصدير المنتجات.

2- لا يمكن لعملية خصخصة نشاط استخراج النفط (خلال وقت نقل الملكية وبعد إنجاز هذه المهمة) ان تتحقق بدون دفع تكاليف سياسية واجتماعية باهظة الثمن نظراً للمكانة الخاصة التي يشغلها النشاط الاستخراجي والتصدير للنفط في الاقتصاد العراقي وفي التوجهات السياسية والاجتماعية للقوى والجماعات السياسية العراقية وفي الوعي الجمعي للشعب العراقي.

ان المسألة النفطية في وعي العراقيين تتمحور حول قطبية ثنائية صارمة: فإما ان يكون النفط نقمة وإما ان يكون نعمة. في الحالة الاولى، يمكن للنفط ان يكون مصدراً للنار والحرمان والافكار والتكيل والابادة وعدم اليقين بالمستقبل، وفي الحالة الثانية، يمكن له ان يكون مصدراً للنور والرفاهية والتطوير والحياة الكريمة واليقين بقدام الايام. وفي اعتقادي ان خصخصة النشاطات الاستخراجية والتصديرية للنفط ستكون موضوع نقاش سياسي جماهيري ساخن وعلى أوسع نطاق، وهو ما أتمنى ان يكون نقاشاً مسؤولاً في إطار حر ديموقراطي شامل ومفتوح، لغرض الوصول الى خيارات مقبولة ودائمة ومستقرة في هذا الشأن البالغ الحساسية.

3- نظراً للوظيفة الانتاجية الفنية البالغة الاهمية لنشاطات نقل النفط بالانابيب وموانئ تحميل النفط وتوزعها الجغرافي الراهن، فإن خصخصة هذه الفعاليات، بغض النظر عن مسألة خصخصة استخراج النفط أم لا، ستكون ذات نتائج فنية واقتصادية باهضة الثمن ايضاً. ان تنوع المنافذ الحالية لنقل وتصدير النفط والامكانيات الفنية لاحتلال بعضها محل البعض الآخر (امكانية تغيير اتجاهات النقل والتصدير التي يوفرها الخط الاستراتيجي لنقل النفط) ستكون في حال الخصخصة معرقة للنشاط الانتاجي الاعتيادي ومثار نزاعات دائمة مابين الاشخاص الاقتصاديين في نشاطات الاستخراج وفي مناطق مختلفة وداخل كل نشاط على انفراد من هنا أرى ضرورة بقاء ملكية هذه الفعاليات وادارتها في يد الدولة الفتية لفترة زمنية كافية على ان ينظم ذلك بقانون خاص.

4- تكتسب استراتيجية الدولة حول اشكال وكيفيات استغلال الاحتياطيات النفطية في باطن الأرض صفات الاستثنائية والتعقيد السياسي والفني:

أ- الاحتياطيات النفطية المتاحة والكامنة في العراق لا تتصف بصفة أصول ثابتة (Fixed Assets) او متداولة حتى يمكن تغيير شكل ملكيتها. انها في المحصلة النهائية قاعدة مادية

لتطوير الاقتصاد العراقي، وان كفاءات استغلالها سوف تساعد في تكوين شروط التطوير المبتغاة أو في تكوين شروط تكرر حرمان وتخلف الشعب العراقي. ان مبررات إصدار قانون رقم ٨٠ لعام ١٩٦١ مازالت ماثلة للعيان وطرية في الذاكرة العراقية لمعالجة آثار شكل وكيفية تملك واستغلال الاحتياطات النفطية من قبل شركات النفط الأجنبية "الخاصة" العاملة آنذاك في العراق. لقد استخدمت الشركات النفطية الأجنبية الاحتياطات بمثابة أداة اقتصادية لتحقيق أغراض اقتصادية في الضغط على الدولة العراقية لتغيير مضمون ومسار سياساتها العامة، وفي نفس الوقت، قامت دولة النظام البائد هي الأخرى باستخدام ورقة الاحتياطات النفطية كأداة لتحقيق أهداف سياسية من خلال منح عقود امتياز استغلالها لشركات نفطية لدول معينة.

ب- بسبب انعدام "العدالة" الجغرافية لتوزيع المكامن النفطية بين مناطق البلاد المختلفة، فمن الحكمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية إيجاد وتبني استراتيجية عامة تضمن مشاركة جميع مناطق العراق في الاستغلال العقلاني والهادف لهذه الثروة الطبيعية. وفي الوقت الحاضر ليس هناك من خيار آخر، أفضل من مؤسسة الدولة الجديدة وعبر إنشاء منظومة اقتصادية جديدة لتدارك "خطأ" الطبيعة لكي ينعم كل عراقي بهذه الخيرات.

ضف الى ذلك، ان مسألة عدم تبلور فلسفة ادارة الدولة الجديدة وشكل الادارة، المركزي أو اللامركزي تضيف تعقيدات أخرى الى موضوع سيادية التصرف بالاحتياطات.

ج- من الناحية الفنية والاقتصادية فإن خصخصة النشاط الاستخراجي النفطي لا تعني بالضرورة خصخصة الاحتياطات النفطية المتاحة والعكس صحيح تماماً. بمعنى آخر، ان الهدف من الاستثمار الخاص في اكتشاف وتهيئة احتياطات نفطية جديدة وتطوير حقول نفط جديدة (وهو ما يتطلب استثمارات رأسمالية ضخمة) هو تكوين الشروط المادية للنشاط الانتاجي اللاحق، أي الاستخراجي ذو التكاليف التشغيلية الضئيلة الذي يعني بالأساس التملك الخاص للأصول الثابتة لنشاط الاستخراج أيضاً. صفة التشابك الانتاجي هذه لنشاطات الاستكشاف والاستخراج يمكن فك ارتباطها الوظيفي الإداري فقط في حالة بقاء الاحتياطات النفطية المتاحة حالياً في يد الدولة (ومقدارها يزبو على ١٠٠ مليار برميل تكفي ١٠٠ سنة بمستويات استخراج بداية الثمانينات من القرن الماضي التي كانت عند مستوياتها العليا) ويصار الى خصخصة النشاط الاستخراجي فقط. وفي السياق ذاته يمكن اقتراح خصخصة الاحتياطات النفطية الكامنة، حيث يتوفر العراق على امكانيات كبيرة تؤهله ليحتل مركز الصدارة الأول في حجم الاحتياطي النفطي القابل للاستخراج في العالم.

د. وبما ان العراق عضو مؤسس لمنظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) فإن تغير شكل ملكيته واحتياطاته النفطية واستخراجها سيعني تحولاً هيكلياً جوهرياً في الإطار المنظم لسياسات هذه المنظمة في حجوم الانتاج والأسعار وما سيترتب على ذلك من انعكاسات ونتائج مؤثرة في السوق النفطية الدولية.

ان التملك الخاص للاحتياطات والاستخراج في آن واحد سيقود الى بروز وهيمنة نزعة سلوكية في الادارة تمكن الشركة (أو الشركات) من تحقيق هدف الاسترداد السريع لرأس

المال المستثمر والحصول على هامش ربح تسمح به متغيرات السوق النفطية الدولية في الظروف الجديدة. ومن المحتمل جداً أن تغيب مصلحة العراق في خضم التلاحق السريع لهذه الانعكاسات والنتائج وما يترتب عنها من آثار سلبية قد تهدد استقراره السياسي والاقتصادي. وفي كل الأحوال فإن خيارات ملكية الاحتياطيات النفطية المتاحة والكامنة يقررها الشعب العراقي. وبهذا الصدد اقترح ان يُصار الى تقرير شكل ملكية الاحتياطيات النفطية والغازية والمبادئ العامة لاستغلالها وادارتها في دستور البلاد القادم على ان تترك قضايا ادارة و ملكية الاستخراج والنقل بالانابيب وموائء تحميل النفط لقوانين خاصة بهذا الشأن.

سادساً: النظرية والتجربة

هل تستند اطروحة خصخصة صناعة النفط العراقية على مبررات نظرية؟! وهل هذه المبررات كافية للاقناع وصالحة للتطبيق المثمر؟ وهل هناك تجربة عالمية في هذا المجال يمكن الاسترشاد بها في تأطير مضمون واتجاهات الحوار حول هذه الاطروحة؟

1- لقد جرى نقل ملكية الاف مؤسسات القطاع العام الى القطاع الخاص في الكثير من بلدان العالم المتطورة اقتصادياً أو النامية في الربع الاخير من القرن الماضي. اسباب هذه النزعة العامة كثيرة، تبتدأ من محاولات تقليص أو الغاء نفوذ سلطة الجهاز الحكومي البيروقراطي في ادارة هذه المؤسسات وتنتهي بمحاولات اقامة نموذج "الرأسمالية الشعبية" في بعض البلدان. غير ان الاسباب الرئيسية لهذا التوجه العالمي، الى جانب اسباب سياسية، هي بدون شك اسباباً اقتصادية عامة منها: ضرورات زيادة كفاءة ادارة نشاط هذه المؤسسات وتقليل عبء كلفة ادارتها على ميزانية الدولة العامة والرغبة في دخولها المثمر علاقات العولمة الاقتصادية والمالية والتقنية والمعلوماتية. وفي نفس الوقت، فإن غايات نزعة خصخصة مؤسسات القطاع العام وتقييم نتائجها هي مثار جدل وخلاف لدى الباحثين. ومن الممكن ايراد الموضوعات التالية لتأطير الحوار حول مبررات خصخصة الصناعة النفطية العراقية:

أ. الموضوع الاجتماعي: ترى في مؤسسة القطاع العام قدرة أكبر على علاج نواقص وسلبات السوق مقارنة بمؤسسة القطاع الخاص خلال مرحلة الانتقال نحو نموذج اقتصاد السوق ذلك ان حيثيات النشاط الاقتصادي والاداري للمؤسسة الاولى تأخذ في نظر الاعتبار تكاليف الجانب الاجتماعي لذلك النشاط عبر أداء وظائف معينة مثل سياسات التشغيل والاجور والاسعار وغيرها، حتى وقت اكتمال اجراءات تكوين منظومة اقتصادية سوقية ملائمة. في هذا السياق، فإن على عملية الخصخصة إدراج تكاليف البعد الاجتماعي المتباين في الستراتيجيات المقترحة لاشكال ملكية الفروع المختلفة لصناعة النفط الحالية أو المستقبلية (الاحتياطيات المتاحة والكامنة، الاستخراج، النقل، المصافي والصناعة البستروكيماوية وغيرها).

ب. موضوع النفوذ السياسي: ترى في المؤسسة الخاصة نشاطاً اقتصادياً وادارياً أقل عرضة للتأثيرات السياسية للدولة، أو لصالح جماعات الضغط السياسي في ظروف اكتمال

آليات عمل إقتصاد السوق. قد يكون هذا الأمر صحيحاً، ولكن بالمقابل فإن القوة الاقتصادية الكاسحة التي يتوفر عليها قطاع النفط العراقي ستمكن الرأسمال الخاص النفطي الكبير من اكتساب النفوذ السياسي الكافي وبالتالي التأثير في المسارات العامة لسياسات الدولة ومواقف القوى السياسية في البلاد. من هنا تقتضي الضرورة السياسية القصوى إيجاد منظومة مؤسسية عامة ونموذج ملائم لإدارة الرأسمال الخاص الكبير في قطاع النفط تأخذ في نظر الاعتبار معضلات ومبررات وأهداف تكوين دولة عراقية جديدة وتلتزم بها. وفي هذا السياق يمكن الافتراض بأن طبيعة علاقة الدولة الجديدة بقطاع الأعمال (الرأسمال الخاص الوطني والأجنبي) ستأخذ أحد الأشكال الثلاثة التالية:

الأول، قطاع الأعمال منفصل عن الدولة (وهو نموذج صحيح للعلاقة ولكنه مثالي لا يمكن الوصول إليه دائماً)، الثاني هيمنة قطاع الأعمال على الدولة واستغلالها بقوة، الثالث ارتباط قطاع الأعمال والدولة ضمن هيمنة الأخيرة. ومن الصعب التكهن الآن بما سيؤول إليه في نهاية المطاف شكل وطبيعة العلاقة بين الطرفين بسبب غموض الموقف الحالي حول المقدمات الأيديولوجية والسياسية لبناء الدولة الجديدة.

ج. موضوع الحوافز: ترى في شخص المالك الخاص قدرة كبيرة على امتلاك حوافز قوية لكسب الأرباح وتعظيمها مقارنة بمسيري (Managers) مؤسسات القطاع العام المكلفين بسهام وصلاحيات الإدارة من قبل الدولة، وإن المالك الخاص يتحمل مسؤولية قراراته الإدارية، وأنه سيدفع "غرامة" باهضة الثمن في حال أخفاقه الإداري قد تصل حد الإفلاس، مما لا يتوفر لدى مسيري ملكية الدولة. هذه الموضوعات تتجاهل واقع كون الدولة في مستطاعها، إذا امتلكت حزمة أسهم كبيرة أو ميطرة أو غيرها في رأسمال المؤسسات التي جرت خصصتها جزئياً (مثلاً امتلاك الدولة السهم الذهبي Golden Share ضمن حزمة أسهمها في رأسمال الشركة)، تستطيع ممارسة الرقابة على أداء وسلوك مسيري ملكيتها، مقارنة بعدم استطاعة حملة أسهم الشركات المساهمة الخاصة ذات الملكية المشتتة من فعل ذلك. وهذا المبرر، الذي يتعلق بهيكل ملكية رأس المال، يمكن استخدامه في المراحل الأولى من عملية خصخصة جزئية لصناعة النفط.

د. موضوع الرأسمال البشري في الإدارة ترى بأن اختيار طاقم إدارة المؤسسات الخاصة يستند إلى معايير الكفاءة والتأهيل المهني، بينما اختيار مؤسسات القطاع العام ينطلق من معايير المحاباة السياسية والقرب من أصحاب القرار السياسي وغيرها. إن معضلة تأهيل واختيار كادر إداري كفء ومسؤول ستكون إحدى معضلات إدارة الصناعة النفطية العراقية في الظروف الجديدة، وخصوصاً في مستويات الإدارة العليا (Top-management). كان النظام البائد يتبنى سياسة تشغيلية تمييزية خاصة توفر له سيطرة مطلقة على جميع مفاصل العمل الإداري في الصناعة النفطية تنافي المعايير المعروفة في اختيار الكادر الإداري وفي السياق ذاته يمكن الافتراض بأن سياسات المالكين الجدد لصناعة النفط بعد الخصخصة في مجال التشغيل الإداري قد تستند إلى ذات المعايير السابقة قصد تحقيق مصالح اقتصادية وسياسية تستهدف الآثار السريعة و/أو التأثير في مسار الحياة السياسية للبلاد.

هـ. وأخيراً موضوع المنافسة، التي ترى في عملية الخصخصة الإطار الرحب لإنشاء وتوفير شروط منافسة فاعلة سترغم جميع المؤسسات الاقتصادية، بغض النظر عن شكل ملكيتها على العمل بفاعلية ومسؤولية كبيرتين. هذا صحيح تماماً، ولكن إشكالية خصخصة الصناعة النفطية (وبالأخص استخراج وتصدير النفط الخام) لا تعني فقط تغيير شكل الملكية، وإنما، بدرجة كبيرة، صياغة هيكلية جديدة لإدارة مؤسسات هذه الصناعة تساهم في تكوين المنافسة وتستفيد من مزاياها الإيجابية الكثيرة. ولغرض تحقيق هذا الهدف المؤسسي، فإن صياغة هيكلية جديدة لإدارة الصناعة النفطية تتطلب المفاضلة مابين خيارات كثيرة لنماذج متنوعة منها: أولاً، الأشكال القانونية المنظمة لتأسيس وعمل الشركات المساهمة، وثانياً، الأشكال التنظيمية لتكامل نشاط الشركات المساهمة في السوق عبر المنافسة. إن الأشكال التنظيمية للتكامل الاقتصادي والانتاجي والتقني في نشاط المؤسسات المساهمة تؤثر الأشكال القانونية المنظمة لتأسيسها وعملها (تكامل أفقي أم عمودي) وترسم حدود وأنظمة علاقات التفاعل المتبادلة فيما بينها (علاقات الملكية، التزامات التعاقد، نظم المساهمة، قواعد إعادة التنظيم، صلاحيات ومسؤوليات الإدارة وغيرها). هذه الخيارات القانونية والتنظيمية وسبل تحقيقها الاجرائية سيكون لها جميعاً أثراً كبيراً في تكوين بيئة مؤسسية متكاملة ونزيهة لعمل آليات المنافسة السوقية.

2. تباين وجهات النظر والتقييمات حول الموضوعات النظرية المبرزة لستراتيجية خصخصة مؤسسات القطاع العام التي تمت الإشارة إلى أهمها أعلاه.

هذا الأمر طبيعي ومتوقع بسبب اختلاف الرؤى الأيديولوجية والسياسية وغيرها لدى القوى الاجتماعية المختلفة والمهتمين بدراسة هذه الظاهرة. ضف إلى ذلك اختلاف منهجية تقييم كفاءة أداء النشاط الاقتصادي الجديد في الظروف الجديدة، وخاصة مسألة فرز تأثير عملية تغيير شكل الملكية من إجمالي تأثير العوامل الأخرى المميزة لمرحلة الانتقال إلى اقتصاد السوق أو تحسين آليات عمل قوى السوق. على سبيل المثال: تباينت تقييمات التجربة الروسية في خصخصة مؤسسات القطاع العام، منها من يرى أن تغيير شكل الملكية (خارج دائرة الصناعة النفطية) قد أثرت إيجابياً في تأسيس هيكلية جديدة للاقتصاد الروسي وزيادة إنتاجيته بصفة عامة، وتفق المؤسسات الخاصة على نظيراتها الحكومية في أهم المؤشرات الاقتصادية، وإن الفروقات النوعية والكمية فيما بينهما كانت كبيرة في مؤشرات كفاءة الانتاج ومتواضعة في مؤشرات الاستثمار والتحديث واستخدام تكنولوجيا متطورة في الانتاج والإدارة.

أما تقديرات البنك الدولي لعام ١٩٩٦، مع الإشارة إلى عدم حصول تغييرات ذات شأن حتى الآن فقد كانت مغايرة: ضعف تأثير تغير شكل الملكية على الكثير من مؤشرات نشاط المؤسسات الخاصة مثل حجم الانتاج والاجور والعمالة.

أما في ميدان خصخصة الصناعة النفطية الروسية (باستثناء شبكة النقل بالانابيب حيث مازالت ملكيتها حكومية لغاية الآن)، والتي جرت هي الأخرى خارج نطاق السبوق في مراحلها الأولى، فقد أدت إلى النتائج التالية: ظهور احتكار القلة (حوالي ثلاثة شركات استخراج كبرى خاصة وشركة غاز واحدة تمتلك الحكومة ٣٥% من أسهمها)، الانخفاض

الحاد في حجم الانتاج، هبوط الاستثمارات، هروب الرأسمال الى خارج البلاد، عدم المقدرة على جذب استثمارات وطنية أو أجنبية كبيرة، مظاهر عدم كفاءة الادارة ونزاهتها، صراع المصالح الحاد والاستخدام المفرط للنفوذ السياسي وغيرها.

3. ان دراسة التجربة الروسية (و غيرها من التجارب العالمية) يمكن لها ان تُفيد في تلافي الوقوع في شر اك أخطاء التسرع وعدم النظر بشمولية وموضوعية وبأبعاد مستقبلية لأوضاع الصناعة النفطية ومكانتها المتميزة في الاقتصاد العراقي عند تبني ستر اتيجية خصخصة نشاطها. هذه الدراسة ستكشف عن وجود سمات مشتركة ومتشابهة بين التجربة الروسية التي حصلت أوائل التسعينات من القرن الماضي ومازالت تداعياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ماثلة للعيان لغاية اللحظة الراهنة وبين ما يُراد تخطيطه وتنفيذه للصناعة النفطية العراقية: النظام السياسي الشمولي السابق، مركزية التخطيط الاقتصادي لنشاط الصناعة النفطية، مكانتها الكبيرة في الاقتصاد الوطني، غلبة الاتجاه التصديري في نشاطها ضعف ارتباطاتها الانتاجية بالقطاعات الاخرى للاقتصاد، التوزيع الجغرافي "غير العادل" لأنشطتها المختلفة، كثافة رأسمالها وغيرها من المؤشرات.

وفي نفس الوقت توجد سمات اخرى تتباين فيها الصناعة النفطية العراقية عن نظيرتها الروسية: التسييس الكامل لنشاط الصناعة النفطية العراقية، الاستقطاب السياسي والاجتماعي الكبير حولها، التوزيع غير العادل والاستخدام السيء لنتائج نشاطها، احتكار ادارتها وفق اعتبارات لا تمت للمهنية والكفاءة بصلة، عدم شفافية البيانات عن نشاطها وغيرها.

ان التفكير الجدي والمسؤول في رسم ستر اتيجية خصخصة الصناعة النفطية العراقية، يجب، في تصوري أن ينصب بالاساس على حل اشكاليات احتمال ظهور تناقضات سياسية واقتصادية واجتماعية حادة بين اهداف هذه الستر اتيجية والنتائج المتوقعة منها من خلال اثاره النقاش الاكاديمي وال جماهيري حول المقدمات الرئيسية التالية (و/أو غيرها) قبل الشروع باتخاذ خيار تغيير شكل ملكية هذه الصناعة:

- ضرورة تكوين منظومات مؤسسية، سياسية واقتصادية وقانونية، ملائمة في البلاد.
- ضرورة تكوين منظومة مؤسسية ملائمة لادارة نشاط صناعة النفط.
- التحديد الدقيق والمسؤول لمواضيع وأولويات نقل ملكية صناعة النفط.
- النقل العادل لمواضيع الملكية وعما إذا كان هذا النقل مجانياً أو طبقاً لآليات السوق.
- الأخذ بنظر الاعتبار فداحة الظلم الاجتماعي الذي عانت منه طويلاً بعض مناطق وفئات الشعب العراقي.

- ضرورة تغليب المصالح الوطنية تجاه الأجنبية وبما لا يخل بمعايير الكفاءة الاقتصادية والادارية.

- التوفيق العقلاني الهادف بين حاجات التطور والنمو المستقبلية للاقتصاد وبين الرغبة المشروعة للشعب العراقي في إزالة آثار الفقر والتخلف بأسرع وقت ممكن.

سابعاً المهام والمشاكل

سيكون مفيداً الإشارة الى بعض معضلات تحقيق عملية خصخصة صناعة النفط العراقية في المرحلة الانتقالية التي يشهدها العراق الان على كل المستويات عبر تأطير الحوار حول المحاور الرئيسية التالية لأختبار وتنفيذ ستر ايجابية عامة بهذا الشأن
اولاً: اولويات الخصخصة طبقاً للعائدية القومية لرأس المال ولطبيعة النشاط الانتاجي النفطي:

1. العائدية القومية لرأس المال:

- رأس مال الدولة (خيار الرفض المطلق للخصخصة).

- رأس المال الخاص (الوطني) حصراً.

- مشاركة رأس مال الدولة والخاص والوطني.

- رأس المال الاجنبي حصراً.

- صيغة المشاركة بين الرساميل الثلاثة أعلاه.

- صيغة المشاركة بين الرساميل الخاصة والوطنية والاجنبية بدون مشاركة الدولة.

2. مرحلة النشاط الانتاجي:

- الصناعة النفطية بكاملها (الاحتياطات النفطية المتاحة والكامنة زائداً الاصول الانتاجية الثابتة لجميع المراحل الانتاجية اللاحقة).

- الصناعة النفطية باستثناء احتياطات النفط المتاحة.

- الصناعة النفطية باستثناء احتياطات النفط المتاحة والنقل بالانابيب وموانئ التحميل الوطنية.

- الصناعة النفطية باستثناء النقل بالانابيب وموانئ التحميل الوطنية.

- صناعات تكرير النفط والبتر وكيمياويات ومحطات تعبئة الوقود فقط.

3. النشاطات الانتاجية الحالية والجديدة (المستقبلية) والعائدية القومية لرأس المال.

- الحالية والجديدة تبقى ملكاً للدولة وتحت ادارتها (خيار الرفض المطلق للخصخصة).

- الحالية تبقى ملكيتها للدولة على ان يصار الى خصخصة الجديدة (الراسمال الخاص الوطني).

- الحالية تبقى ملكيتها للدولة على ان يصار الى خصخصة الجديدة (الراسمال الاجنبي).

- الحالية تبقى ملكيتها للدولة والجديدة مشاركة الدولة مع الراسمال الاجنبي.

- الحالية تبقى ملكيتها للدولة والجديدة يتشارك بها الراسمال الخاص الوطني والاجنبي.

- الحالية تبقى ملكيتها للدولة والجديدة تتشارك بها رساميل الدولة والخاص الوطني والاجنبي.

- الحالية والجديدة تتشارك بها رساميل الدولة والخاص الوطني والاجنبي.

- الحالية والجديدة تتشارك بها الرساميل الخاصة الوطنية والاجنبية.

- الحالية والجديدة حصراً للراسمال الخاص الوطني.

- الحالية والجديدة حصراً للرأسمال الاجنبي.
 - ثانياً: تنظيم وإدارة نشاط مؤسسات القطاع النفطي و عملية خصصتها:
 - 1- تنظيم نشاط المؤسسات وعملية الخصخصة:
 - إنشاء وزارة نفط و /أو مجلس وطني أعلى لشؤون النفط (وفق قانون خاص ينظم العلاقة بينهما) للرقابة الادارية والفنية والمالية وإبرام العقود وغيرها من المهام.
 - إنشاء شركة أو شركات نفط وطنية عامة (حكومية) حسب الأنشطة والمناطق الانتاجية تُنَاطُ بها مهام إدارة الانتاج النفطي.
 - إنشاء شركة أو ، شركات نفط وطنية مساهمة عامة (حكومية) مع امكانيات الاخيرة في تأسيس فروع لها أو ، شركات مساهمة عامة مرتبطة بها تنظيمياً وحسب أوجه النشاط والمناطق الانتاجية.
 - إنشاء عدة شركات نفط مساهمة خاصة مع امكانية الاخيرة في تنظيم تكاملها الانتاجي والاداري والمالي عبر تكوين اتحادات أو مجموعات مالية - صناعية طبقاً لقوانين خاصة.
 - امكانية تبني صيغة عقد إدارة خاص مع احدى أو مجموعة شركات خاصة وطنية أو اجنبية متخصصة حسب الوظائف والأنشطة والمناطق الانتاجية.
 - 2. إدارة نشاط المؤسسات وعملية الخصخصة:
 - تهيئة القاعدة القانونية لنشاط المؤسسات النفطية.
 - تهيئة القاعدة القانونية لإدارة عملية خصخصة الصناعة النفطية.
 - اختيار ملائم لأحد (أو توليفة من) نماذج إدارة الشركة المساهمة واتحاد الشركات المساهمة.
 - تأهيل واختيار الكادر الاداري المتخصص.
 - ثالثاً: مشاكل مرتبطة بالاطار العام لستراتيجية خصخصة الصناعة النفطية:
 - 1- طبيعة المنظومات السياسية والاقتصادية والقانونية العامة (القديمة والجديدة) في البلاد.
 - 2- الخصائص الاقتصادية والفنية لصناعة النفط.
 - 3- الإدارة الحديثة للشركات النفطية المساهمة في الظروف الجديدة.
 - 4- العولمة المتسارعة للنشاطات الاقتصادية المختلفة.
 - 5- التركة الاجتماعية والاقتصادية الشائنة لسياسات النظام السابق في مجال النفط.
-و على الرغم من خطورة وتعقيد وشمولية وحساسية الحديث عن معضلات خيار استراتيجية تغيير شكل ملكية القطاع الانتاجي الرائد في السياسة والاقتصاد، فأنتني متفائل بقدره العقل السياسي والاكاديمي العراقي على البحث الدؤوب عن خيارات صائبة وحلول ناجعة تضع شعب العراق على الطريق الصحيح في الاستمتاع العقلاني المسؤول بثمار حريته و ثرواته.



هذا النص كتبه أدوار سعيد قبل رحيله في الخامس والعشرين من أيلول الماضي.. وإنا إذ نعيد نشره هنا، فذلك لأنه توفّر على خلاصة ميسرة لأهتماماته المتنوعة وموقفه الإنساني من القضايا الشائكة والمتداخلة لعالمنا المعاصر. جمع صاحب "الاستشراق" في سيرته الفكرية المعرفة الموسوعية مع النقد الجذري للخطاب الاستعماري. الالتزام الأخلاقي الصارم مع ذاكرة الفلسطينيين المنفي خارج المكان، والرؤية العالمية للتاريخ مع حساسية عالية للخصوصيات والتميزات الثقافية. ذلك ما أهل أدوار سعيد لأن يكون من صنف المفكرين النادرين في عصرنا، وما جعل من غيابه خسارة حقيقية يصعب تعويضها.

تمهيد جديد لكتاب الاستشراق

أدوار سعيد

قبل تسع سنوات ألحقت بكتابي "الاستشراق" خاتمة جديدة حاولت فيها توضيح ما قلته وما لم أقله في ذلك العمل، مركزاً ليس فقط على المناقشات الكثيرة التي أثارها منذ صدوره في ١٩٧٨، بل أيضاً كيف أن هذا العمل الذي يدور على تصورات المستشرقين لـ "الشرق" أثار تفسيرات وتصورات متزايدة الشطط للموضوع. لكنني اليوم لا أجد في هذا مدعاة للغضب، بقدر ما أجد بعض الأسف للمفارقة الساخرة التي ينطوي عليها الموقف. السبب ربما يتعلق بتقدم السن، وأيضاً فقدانني في الأونة الأخيرة صديقي ومرشدي على صعيد الثقافة والسياسة، إقبال أحمد وإبراهيم أبو لغد، والحزن تبعاً لذلك، ولكن أيضاً التصبر والتصميم على الاستمرار. في مذكراتي "خارج المكان" (١٩٩٩) وصفت نشأتي في عوالم غريبة في تناقضها، مقدماً لنفسي وقرائي صورة مفصلة عن تكوين شخصيتي في فلسطين ومصر ولبنان، لكنها كانت سيرة شخصية تركت جانبا السنين الطويلة من حياتي السياسية بدءاً من ١٩٦٧.

أما "الاستشراق" فقد كان وثيق الارتباط بتاريخنا العاصف في العقود الأخيرة، الذي يبدو أنه يمتد إلى ما لا نهاية. وتبدأ الصفحة الأولى من الكتاب بوصف للحرب الأهلية اللبنانية في ١٩٧٥ التي تواصلت إلى ١٩٩٠، لكن العنف وسفك الدماء يستمران إلى هذه اللحظة. ثم شهدنا فشل عملية أوسلو وانطلاق الانتفاضة الثانية، وعذاب الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة وإعادة احتلالهما من قبل إسرائيل. ثم ظاهرة التفجيرات الانتحارية والخراب الرهيب الذي أحدثته، وصولاً إلى أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ البشعة، والحرب على أفغانستان والعراق بنتيجتها. وما أنا أكتب هذه السطور مع استمرار الاحتلال الإمبريالي اللا شرعي للعراق من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا، الذي قد يتناهى إلى كوارث تصعب على التصور. أن هناك من يرى في كل هذا مظاهر صدام دائم لاهل له بين الحضارات. لكنني لا اعتقد ذلك.

كان بوذي القول أن في الولايات المتحدة الآن فهما أفضل للشرق الأوسط والعرب والمسلمين، لكن المؤسف أن الأمر ليس كذلك. الوضع في أوروبا يبدو أفضل، ولأسباب عديدة.

ألا أن الموقف في أميركا يستمر على التحجر وتزايد انتشار التعميمات المهنية والكلية الانتصارية ضد الآخر، سواء كان الأجنبي عموماً أو المعارض الداخلي. ولعل السماح بنهب وإحراق المتاحف والمكتبات في بغداد كان "المعادل الموضوعي" الأوضح لهذه الروحية. أن ما لا يستطيع قادتنا فهمه، كما يبدو، هو استحالة إزالة التاريخ أو مسحه مثل مسح السبورة لكي نستطيع بعد ذلك تسطير المستقبل الذي نريد عليها وفرض أنماط حياتنا على بشر نعتبرهم أقل قيمة. ونسمع دوماً من كبار المسؤولين في واشنطن وغيرها عن تغيير خريطة الشرق الأوسط، وكأن المجتمعات القديمة هناك وكل ما فيها من البشر مجرد قطع من الحجارة يمكن رصفها بهذا الشكل أو ذاك حسب ما نريد. لقد حصل هذا أحياناً كثيرة لما يسمونه "الشرق" ذلك الكيان المصطنع فكرياً في شكل شبه أسطوري، الذي أعاد الغرب تشكيله مراراً كما يحلو له منذ غزو نابليون لمصر وأواخر القرن الثامن عشر. وتم كل مرة في تلك العملية إغفال أو جرف ذلك التنوع اللامتناهي في تواريخ المنطقة وثقافتها ولغاتها، لكي يغدو كل منها شظايا متناثرة لا معنى لها، مثل بقايا من كنوز تاريخ العراق التي هربت من بغداد. ما أقوله أن التاريخ من صنع الرجال والنساء أنفسهم، مثلما يمكن إعادة صنعه أو إعادة كتابته لكي يصبح الشرق "شرقنا"، أي ملكنا الذي يمكننا التصرف به كما نريد. ولا بد من النظر بإعجاب إلى طاقات ومواهب شعوب المنطقة في كفاحها لتحقيق هويتها وما تريده لمستقبلها. لقد شهدت المجتمعات العربية والمسلمة هجوماً ضارياً عليها بحجة تأخرها وافتقارها إلى الديمقراطية والغائها حقوق المرأة، إلى درجة جعلتنا ننسى أن مفاهيم مثل الحداثة والاستنارة والديموقراطية ليست بالأفكار البسيطة المتفق عليها مسبقاً، مثل شيء يمكن القول فوراً بوجوده أو عدم وجوده في هذا المكان أو ذاك. لكن ما نسمعه في كل مكان هو ذلك الاستخفاف المذهل من قبل تلك المجموعة العجيبة من المتكلمين باسم السياسة الخارجية الأميركية، الذين يصورون الشرق الأوسط وكأنه حيز فارغ يمكن فيه لأميركا خلق "ديموقراطية مصطنعة وسوق حرة مصطنعة". كلا، لا حاجة إلى معرفة العربية أو الفارسية أو حتى الفرنسية لكي تتشدد عن حاجة العالم العربي إلى الديمقراطية وكيف أن أقامتها في العراق سيعني انتشارها فوراً إلى بقية الدول العربية حسب نظرية أحجار الدومينو.

لكن هناك فرقاً بين معرفة الشعوب الأخرى والتواريخ تقوم على الفهم والتعاطف والدراسة المعنوية المقصودة لذاتها، والمعرفة التي تأتي جزءاً من حملة شاملة تهدف إلى إثبات الذات. فهناك في التحليل النهائي تباين عميق بين إرادة الفهم خدمة للتعايش وتوسيع الأفق، وإرادته وسيلة للسيطرة. والمؤكد أن من بين الكوارث الفكرية في التاريخ ما نراه الآن من حرب إمبريالية مدمرة افتعلتها مجموعة صغيرة من المسؤولين الأميركيين غير المنتخبين ضد بلد من العالم الثالث يعاني أصلاً من الديكتاتورية والدمار، وذلك على أساس أيديولوجي يتلخص بالسيطرة على العالم وموارده. وقد نجح هؤلاء في تمويه غايتهم هذه بفضل التبشير والدعم الذي لا قوه من مستشرقين خانوا أمانتهم العلمية.

التأثير الرئيسي على البنتاغون ومجلس الأمن القومي يأتي من أشخاص مثل برنارد لويس وفؤاد عجمي، الخبيرين بالعالمين العربي والإسلامي اللذين قدما للصقور اختلاقات فكرية

شنيعة مثل "عقلية العرب" وتراجع الحضارة الإسلامية المستمر منذ قرون، الذي لادواء له سوى أميركا وقوتها. ونجد المكتبات التجارية في أميركا اليوم مليئة بمؤلفات مهلهلة بعناوين صارخة على الإسلام والإرهاب، أو "فضح الإسلام، والخطر العربي أو الإسلامي أو الاثنين معاً، وكلها من تأليف معلقين مغرضين يستقون معرفتهم من "خبراء" يفترض أنهم توصلوا إلى فهم أعماق تلك الشعوب "الشرقية" الغربية الطابع. إضافة إلى ذلك هناك تلك الجوقة الإعلامية الكبرى، من تلفزيون "فوكس" و "سي أن أن" إلى ما لا حصر له من الإذاعات التبشيرية واليمينية والصحف الشعبية وحتى المجلات الأرقى نسبياً، وكلها تعيد وتكرر تلك التراهاات والتعميمات الفارغة لإثارة الأميركيين ضد "الشياطين الأجانب".

ولولا هذه الحملة المنظمة ضد أولئك الناس الذين لا يشابهوننا ولا يقدرّون "قيمنا" -الحملة التي تلخص جوهر التقليد الاستشراقي- لما كانت هذه الحرب. وهكذا فإن المستشارين الأميركيين للبيت الأبيض والبنّتاغون ينتمون إلى النوعية نفسها التي جاء منها الباحثون المأجورون الذين جيشتهم قوى الاستعمار الهولندي في ماليزيا وإندونيسيا، والجيش البريطاني الذي غزت الهند ومصر والعراق وغرب أفريقيا، والفرنسية التي استولت على الهند الصينية وشمال أفريقيا. ويستعمل الخبراء الأميركيون الكليشيات والتعميمات نفسها التي قدمها سابقوهم، والتبريرات نفسها لاستعمال القوة ضد تلك الشعوب (لأنها بالتالي "لا تفهم سوى لغة القوة" كما تؤكد معزوفتهم من قديم الزمان). وقد انضم إلى هذه الجوقة في العراق جيش جرار من أصحاب الأعمال الساعين إلى المتاجرة والعقود، والخبراء الذين سيعيدون صياغة حياة العراق السياسية والثقافية، من كتابة النصوص المدرسية المقررة إلى تدوين الدستور، وبالطبع أيضاً سياسته النفطية.

يعلّمنا التاريخ أن كل إمبراطورية تدعي أنها ليست كمثلاتها، وأنها تتفرد عنها بغاياتها النبيلة في إيصال رسالة الحضارة والتطوير وإشاعة الديموقراطية، وأنها لا تستعمل القوة إلا بوصفها الخيار الأخير. والمؤسف أن هناك دوماً الكثيرين من المتقنين المستعدين للإدلاء بشهاداتهم عن حسنات الإمبريالية ونكرانها لذاتها في مساعيها هذه.

بعد ٢٥ سنة على صدور "الاستشراق" يعود السؤال عما إذا كان عصرنا الحديث قد شهد نهاية الإمبريالية، أم أنها مستمرة في الشرق منذ غزو نابليون لمصر قبل قرنين. وقد قيل للعرب والمسلمين دوماً أن نفسية الضحية والتركيز على مساوئ الإمبريالية يشكل نوعاً من التهرب من المسؤولية عن أوضاعهم الحالية. أنها مقولة المستشرقين الدائمة: "لقد فشلتم. لقد أضلّتم طريقكم". وهذه بالطبع هي مساهمة في. أس. نايبول في مجال الأدب: ضحايا الإمبريالية يكتفون بالبكاء والعويل فيما تصل الأوضاع في بلادهم إلى الحضيض. لكن بالسطحية هذا الموقف، الذي لا يريد مواجهة تواصل تأثيرات الإمبريالية عبر السنين على حياة أناس مثل الفلسطينيين أو الكونغوليين أو الجزائريين أو العراقيين. لننظر إلى الخط الذي بدأ باحتلال نابليون لمصر واستمر بظهور علم الاستشراق، ثم الاستحواذ على شمال أفريقيا، وتواصل مع المشاريع الاستعمارية في فيتنام ومصر وفلسطين، ثم مع الصراع على النفط والسيطرة الاستراتيجية في الخليج والعراق وسورية وفلسطين وأفغانستان، لننظر أيضاً إلى

تصاعد الحركات القومية المناهضة للإمبريالية، وبعدها مرحلة التحرر القصيرة ثم مرحلة الانقلابات العسكرية والثورات والحروب الأهلية والتعصب الديني والردود اللا عقلانية على تحديات العصر، وفي المقابل الهجمات التي لاتعرف الرحمة على أجيال جديدة من "السكان المحليين". وكل من هذه المراحل ينتج معرفته المشوهة بالآخر، والتميط التبسيطي المهين له، والحجج السياسية المتحذقة ضده.

فكرتي في "الاستشراق" كانت استعمال النقد المستمد من التوجه الإنساني لفتح مجالات جديدة للصراع وتقديم سياق متواصل من التفكير والتحليل، بدلا من ردود الفعل الآنية الغاضبة التي تقيد تفكيرنا. وقد أطلقت صفة "الإنسانية على هذا التوجه، وواصل استعمالها بعناد بالرغم من استهجانها من قبل الناقدين ألما بعد حدائين. اقصد ب"الإنسانية" في الدرجة الأولى كل محاولات فك ما وصفه الشاعر الإنكليزي وليام بليك بـ "الأغلال التي يصنعها الذهن" للتمكن من استعمال العقل في شكل تاريخي عقلائي، وصولا إلى فهم تأملي. إضافة إلى ذلك فإن النظرة الإنسانية هذه تتغذى من حسها الجمعي المتمثل بارتباطها بالباحثين الآخرين والمجتمعات والمراحل التاريخية الأخرى - بحيث لا يمكن القول أن هناك باحثا إنسانيا منعزلا.

مؤدى القول أن كلا من المجالات والظواهر مرتبط بالبقية كلها، وأن ما من شيء في عالمنا معزول عن التأثيرات الخارجية. وأن علينا الكلام عن قضايا مثل الظلم والمعاناة بعد وضعها بدقة في سياقها التاريخي والثقافي والاجتماعي -الاقتصادي. دورنا إذا هو توسيع حقل النقاش. وقد قضيت الكثير من حياتي في السنين الـ ٣٥ الأخيرة في الدفاع عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير، لكنني حرصت على القيام بذلك مترافقا مع كامل الانتباه إلى واقع الشعب اليهودي وما عاناه من الاضطهاد ومحاولات الإبادة. ويعني هذا أن الاعتبار الأهم هو توجيه الكفاح من أجل المساواة في فلسطين/ إسرائيل نحو هدف أنساني، أي التعايش وليس القمع أو الإنكار. ولم يكن من قبيل الصدفة إشارتي إلى الجذر المشترك بين الاستشراق واللاسامية. ويبدو لي تبعا لذلك أن من الضروري للمتقنين المستقلين أن يقدموا دوما نماذج بديلة من النماذج التبسيطية المقيدة القائمة على العداء المتبادل السائد منذ زمن طويل في الشرق الأوسط وغيره.

لا بد من الإشارة في هذا المجال إلى أنني، كباحث أنساني التوجه، تلقيت تعليمي قبل ٤٠ سنة في حقل الأدب المقارن، الذي تعود أفكاره الرئيسية إلى ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر. وكانت هناك قبل ذلك المساهمة العظيمة من الإيطالي جيامباتيستا فيكو، الذي استبقت أفكاره مواقف غوته وهمبولت ودلتاي ونيشته وغادامر وغيرهم من المفكرين الألمان - ثم كوكبة فيلولوجيي لغات الرومانس في القرن العشرين التي تضم أريش أورباخ وليو سبتزر وارنست روبرت كوتيوس.

فكرة الفيولوجيا بذاتها تثير لدى الأجيال الشابة انطبعا عن علم منكفى على ذاته لا يعرف غير الكتب الصفراء المكسوة بالغبار. لكن الفيولوجيا هي فن الفهم الأعماق والأكثر إبداعا للتاريخ والحضارات. ولعل أفضل تجسيد له بالنسبة لي اهتمام غوته بالإسلام عموما وبحفاظ الشيرازي خصوصا، ذلك الولع العميق الذي أدى إلى كتابة "ديوان الشرق والغرب"، ثم إلى فكرته عن "أدب العالم"، أي دراسة آداب الأمم في وحدة سيمفونية تحفظ خصوصيات كل منها

ضمن المنظور الجمعي. هناك مفارقة كبيرة عندما نرى أن العولمة اليوم، في عملها على توحيد الكل بأشكال تحدثت عنها سابقا، تقترب في شكل متزايد من ذلك النوع من الرتابة والتجانس الفكريين اللذين تقصد غوته مقاومته. وقد أكد أريش أورباخ على هذه النقطة في مقال بعنوان "فيلولوجيا الأدب العلمي" نشره في ١٩٥١، أي مطلع الحرب الباردة. وكان أورباخ نشر كتابه العظيم "مايميسس" في ١٩٤٦ في بيرن، بعدما ألفه أثناء لجوئه إلى اسطنبول أبان الحرب الثانية حيث عمل أستاذا للغات الرومانس. وكان هدفه من الكتاب وصف تنوع وحيوية تمثيلات الأدب الغربي، من هيومبروس إلى فرجينيا وولف، للواقع المتعين. لكن قراءة مقالته في ١٩٥١ توحى بأن الكتاب كان مرثية لحقبة اتسم الباحثون فيها بالقدرة على تفسير النصوص عن طريق الفيلولوجيا، بكل ما تتطلبه من التمعن في النصوص والوقائع والحساسية وقوة الحدس وسعة المعرفة والتمكن القوي من عدد من اللغات، لدعم ذلك النوع من الفهم الذي دعا إليه غوته في مقاربته للأدب الإسلامي.

المعرفة الوثيقة بالتاريخ واللغات ضرورية بالطبع، لكنها لا تكفي، مثلما لا يكفي تكديس كل ما أمكن من المعلومات للتوصل، مثلا، إلى مقاصد شاعر مثل دانتي. ذلك إن الشرط الرئيسي للفهم الفيلولوجي الذي تحدث عنه وحاول ممارسته أورباخ وسابقوه هو محاولة الدخول على النص المكتوب بتفهم وتعاطف ذاتي، ومن منظور المؤلف وزمنه. أي أن الفيلولوجيا في تطبيقها على آداب العالم لا تقوم على التباعد والعداء للزمن الآخر والحضارة الأخرى بل على زوحيية إنسانية تعتمد ما يمكن وصفه بأنه الكرم أو حسن الضيافة - بمعنى أن ذهن القائم بالتفسير يعمل على فسح مكان لذلك "الآخر". وهذا الفسح الخلاق لأعمال تبقى دون ذلك غريبة وبسعيدة هو الصفة الأهم لمهمة المفسر.

كل هذا بالطبع تعرض للتخريب والدمار في ألمانيا النازية. ولاحظ أورباخ بعد الحرب بأسف الرتابة المتزايدة متلازما مع التخصص المتزايد في حقول البحث، وهو ما قلص من إمكانات القيام بذلك العمل الفيلولوجي كما جسده أورباخ، بحرصه على التدقيق مترافقا مع الانفتاح الذهني المطلق. والمحزن أكثر إن الفترة التي تلت موته في ١٩٧٥ شهدت المزيد من التراجع على صعيد الفكر والممارسة، وفقدان البحوث الإنسانية لموقعها الريادي السابق. وها نحن نجد طلابنا اليوم، بدل قراءة النصوص بالمعنى الحقيقي للقراءة، ينشغلون بنقف من المعلومات المأخوذة عن الإنترنت أو وسائل الإعلام. الأسوأ من ذلك أن التعليم يلقي تهديدا من بعض القوى القومية والدينية المحافظة التي تتناقل وسائل الإعلام أفكارها في شكل لا تاريخي يركز على عنصر الإثارة. ولعل من بين أسوأ الأمثلة أسلوب تغطية الحرب، التي تصور وكأنها نوع من الألعاب الإلكترونية أو "الضربات الجراحية" التي لا تسبب خسائر بشرية تذكر، وتطمس بذلك حقيقة الحروب الحديثة وما فيها من الهول والدمار. وهناك أيضا بالطبع الدور الأساسي الذي يلعبه الإعلام في إدامة قلق وغضب المشاهدين عن طريق التركيز على "شيطانية" ذلك العدو الغامض الذي لا نعرف عنه سوى أنه "إرهابي". وقد أمكن استغلال ذلك بسهولة خصوصا في الأجواء التي خلقتها أحداث ١١/٩.

أن علي، كاميركي وعربي، أن اطلب من القارئ أن لا يستخف بفاعلية تلك النظرة التبسيطية

إلى العالم من قبل حفنة من كبار المسؤولين المدنيين في البنتاغون، التي صاغوا على أساسها سياسة الولايات المتحدة إزاء العالمين العربي والإسلامي. أنها نظرة مدعومة بأضخم موازنة عسكرية في التاريخ، تدور على أفكار مثل الإرهاب والحرب الوقائية وتغيير النظام، وتتناولها وسائل الإعلام "وخبرائها" -المجمعون دوماً على تبرير الخط الرسمي- من خلال نقاشات لانهاية لها تزيد من فجاجة تلك الطروحات الفجة أصلاً. هكذا حلت محل الفكر التأملي والنقاش العقلاني والمبدأ الأخلاقي القائل بأن على البشر صنع تاريخهم بأنفسهم تلك الأفكار المجردة التي تحتفي التي بفرادة أميركا أو الغرب عموماً، ولا تعطي أهمية للسياقات التاريخية وتتنظر باحتقار إلى الثقافات الأخرى.

ربما وجد البعض في موقفي تنقلات حادة بين التفسير الإنساني من جهة والسياسة الخارجية من الثانية، وإن حضارة تكنولوجيا لا سابق لها من حيث القوة، وتمتلك إضافة إلى ذلك الإنترنت ومقاتلات "أف ١٦" تحتاج إلى قيادة خبراء بالسياسات التكنولوجية مثل دونالد رامسفيلد وريتشارد بيرل. لكن ما يضع في هذا هو التشابك الكثيف والاعتماد المتبادل في الحياة الإنسانية، الذي لا يمكن اختزاله إلى معادلة أو إغفاله بدعوى عدم أهميته.

هذا جانب واحد من جوانب النقاش في إنحاء العالم. وإذا نظرنا إلى العالم العربي والإسلامي نجد أن الوضع لا يختلف كثيراً. وكما لاحظت الباحثة رلى خلف فإن المنطقة شهدت انزلاقاً سهلاً إلى عدااء أميركا لا يتم عن فهم يذكر لمجتمعها. ولما كانت الحكومات عاجزة عن التأثير على سياسات أميركا نحوها فهي تحول جهودها إلى قمع شعوبها، وما يؤدي له ذلك من الضغائن والغضب والعجز وما شابه من السلبيات التي لا تساعد على انفتاح المجتمعات. وهكذا نجد مجتمعات تتغلب فيها مشاعر والإحباط على الأفكار العلمانية حول الإنسانية والتاريخ والنمو، ويتزايد فيها التعليم الديني القائم على التلقين والحفظ عن غيب ورفض كل أنماط المعرفة العلمانية باعتبارها من صنع "الآخر". وكان الاضمحلال التدريجي للتقليد الإسلامي العظيم المتمثل بالاجتهاد من بين الكوارث التاريخية الرئيسية في زمننا، وتراجع معه التفكير الانتقادي والتناول الجاهد لعالمنا ومشاكله.

لا يعني هذا أن العالم انقسم ثقافياً إلى استشرى جديد عدائي من جهة ورفض شمولي من الثانية. وبالرغم من نواقصها فقد كشفت القمة العالمية التي عقدتها الأمم المتحدة في جوهانسبورغ السنة الماضية عن اهتمامات مشتركة كبرى توحى ببيروز رأي عام عالمي جديد يعطي وزناً جديداً لتلك المقولة التبسيطية المعهودة عن "عالم واحد". لكن علينا أن نعترف أيضاً أن من المستحيل الإحاطة بكل أوجه الوحدة البالغة التعقيد لعالمنا المعلوم، حيث يسود الاعتماد المتبادل بين الأجزاء إلى درجة لا تسمح لأي منه بفرصة الانعزال.

أن من الضروري تحدي الضغوط والصراعات الكبرى التي تعمل على تقسيم البشر في شكل زائف إلى وحدات كبرى تحت عناوين مثل "أمريكا" أو "الغرب" أو "الإسلام" لكل منها هويته الشمولية التي تطمس التباينات الكبيرة بين الأفراد. ولا يزال في حوزتنا من أجل ذلك المهارات التفسيرية العقلانية التي خلقها التعليم القائم على مبدأ الإنسانية، التي لا يعني التزامها مجرد الحنين إلى القيم الكلاسيكية بل الممارسة الناشطة للخطاب العلماني العقلاني اللصيق بعالمنا. العالم

العلماني هو عالم التاريخ كما يصنعه البشر أنفسهم. الفكر الانتقادي هو ما يرفض الانضمام إلى الصفوف المرتصة ضد من يتفق على تسميته "العدو". وعلينا بدل الأخذ بمقولة مصطنعة مثل "صدام حضارات" التركيز على التفاعل التاريخي البطني بين الحضارات، بكل ما بينها من التشابهات والاستعارات المتبادلة والتعايش، تلك العناصر الأهم بكثير مما تعترف به النظريات التبسيطية المزيفة. لكن القيام بهذه المهمة التفسيرية الواسعة يحتاج إلى الكثير من الوقت والتقصي الانتقادي الصبور، في زمن يلح على الأفعال وردود الأفعال الفورية.

الموقف الإنساني يدور على الإنسان في فرديته وحدسه الذاتي، وليس على الأفكار والمرجعات المفروضة مسبقاً. والواجب قراءة النصوص أنتجت واستمرت في الحيز التاريخي، حيزنا الأرضي. لكن هذا لا يستثنى اعتبارات القوة، بل أنني، بالعكس، حاولت إبراز تسلسل وتداخل اعتبارات القوة، إلى حتى أكثر مجالات البحث عمقا وبعداً عن الاهتمامات المباشرة.

أخيراً، وهو الأهم، التوجه الإنساني هو خط المقاومة الوحيد، بل الأخير، لنا ضد الممارسات اللاإنسانية والمظالم التي تشوه التاريخ. ولا شك أن ما يدعمنا اليوم هو عالم الإنترنت الديمقراطي المفتوح لكل المستعملين، في شكل لم تحلم به من قبل أجيال الطغاة أو المتزمتين. ولو لا هذا العالم لم تكن هناك الموجة الكبرى من الاحتجاج على الحرب على العراق من قبل تلك المجاميع البديلة في كل مكان، التي تركز على حقوق الإنسان والبيئة وقضايا التحرر عموماً، واعتمدت من أجل المعلومات والاتصال على هذه الوسيلة الحديثة.



عن "الاستشراق في ألمانيا بين التقاليد والانفتاح"

د. صادق البلادي

في جامعة مارتين لوثر في هالة بشرق ألمانيا، والتي هي من مراكز الاستشراق الهامة، نظم سمينار علمي أواخر عام ٢٠٠٢/ أوائل ٢٠٠٣ عن "الاستشراق في ألمانيا بين فترة التنوير إلى ثورة آذار ١٨٤٨ - بين التقاليد والانفتاح".



فكرة السمينار ان رؤية الأوربيين إلى العالم الإسلامي، رغم ما شابها من أوهام وتخيلات في أغلب الأحوال، لم تكن دائماً سلبية على الإطلاق، بل كانت تختلف اختلافاً كبيراً حسب الزمان والمكان والمحيط الاجتماعي. وإن النظر إلى التاريخ الفكري في ألمانيا مثلاً يكشف أن الموقف من العالم الإسلامي قد تغير هناك من قرن إلى قرن ومن عصر إلى آخر. ولذلك يخرج السمينار باستنتاج أنه لا يمكن الاتفاق تماماً مع فرضية إدوارد سعيد في كتابه الشهير "الاستشراق"، والذي ما زال تأثيره قوياً على أبحاث الاستشراق الغربي منذ صدوره عام ١٩٧٨. فهو يزعم أن الغرب قد استولى على الشرق بفضل "مستشرقيه" العلميين، والفنيين، اللاهوتيين، لا بل أنه أوجد لهم ليثبت تفوقه وعقلانيته وأحققيته في الهيمنة الثقافية والسياسية على العالم. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الكم الأعظم من معارف الغرب عن الشرق جرى صياغته في القرنين التاسع عشر والعشرين، وأن السيطرة الكولونيالية المباشرة قد توسعت بين ١٨١٥ و ١٩١٤ من ٣٥% إلى ٨٥% من الكرة الأرضية، فسيبدو القبول بأن هذا الشكل من السيطرة مرتبط باستيلاء الغرب فكرياً على العالم، أمر له ما يبرره. أما القول بأن الصلف الغربي تجاه الشرق هو الموقف الفكري العام للاستشراق طوال كل مراحل التاريخ الأوربي، فهو مفهوم غير صائب. فسواء في القرن التاسع عشر، حيث تتركز دراسة إدوارد سعيد، أو في عصور سابقة كانت هناك في أوربا مواقف فكرية ومصالح متضاربة، حددت العلاقة بالشرق، وتعاقبت في فترات زمنية قصيرة، لا بل تزامنت أحياناً، بعضها مع بعض: تعصب ديني، مخاوف مشوشة من تزايد الغرباء، الإيمان بإمكانية التسامح، الإعجاب بثقافة العالم المقابل، وحسابات السلطة البراغماتية. وفي نطاق المجال الألماني بشكل خاص تظهر هذه التمايزات بكل وضوح. وتبين الدراسات أن التيارات الفكرية التي ظهرت في ألمانيا في الفترة بين عامي ١٧٠٠ و ١٨٥٠ قد نظرت إلى حضارة الشرق ليس فقط بدون تحيز، بل بتعاطف وإعجاب كبيرين. وكانت هذه التيارات المنفتحة على العالم الإسلامي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحركة التنوير الساعية إلى التخلص من التحيزات الموروثة، والمؤمنة بالمساواة بين البشر، كل البشر أينما كانوا. ومن أهم الشخصيات الألمانية التي كانت مولعة في ذلك العصر بالشرق الإسلامي الشاعر الألماني الكبير يوهان فولفانغ غوته (١٧٩٠ - ١٨٥٠) الذي كان شديد الإعجاب بأعمال الشعراء الفرس والعرب القدماء. كان غوته مهتماً بالتراث الأدبي الشرقي منذ شبابه، لكن حبه له طغى على قلبه وهو على أعتاب الشيخوخة. ومما أثار هذا الحب أن ناشر كتبه أهداه نسخة من ديوان الشاعر حافظ الشيرازي بترجمته الألمانية. وبعد قراءة هذه الأشعار التي إفتن بها غوته افتناناً شديداً، حاول التعرف على أكبر قدر ممكن من الأساليب الشعرية الفارسية والعربية. ثم انكب على دراسة الثقافة والمفاهيم الإسلامية، وتمرن في الوقت نفسه

على كتابة الخط العربي. وكلما ازداد غوته توغلاً في تراث العالم الشرقي تحول هذا عنده إلى مصدر للإبداع الشعري حتى أصدر — بعد سنوات من "الاستشراق" الفكري — مجموعة من الأشعار أسماها "الديوان الغربي الشرقي"، يمد بها جسراً شعرياً بين الغرب والشرق.

ولم يكن غوته وحيداً في إعجابه بالشرق، بل شاركه كثير من معاصريه من المفكرين والشعراء والأدباء الألمان. فعلى سبيل المثال هناك معلمه وناصحه المخلص غوتفريد هيردر (١٧٤٤-١٨٠١) الذي اطلع على جمالية الشعر العربي في أيام شبابه. وكان هيردر يرى أن حضارات الشرق تمثل في حقيقتها خلاصة لما هو بشري، وأن في آدابها توثيقاً للإنسانية. وتبين الدراسات أن الاستشراق الألماني لم يكن كله استشراقاً تبشيراً واستعمارياً، بل كان استشراقاً فكرياً وأدبياً وشعرياً. ومن المواضيع التي تناولتها دراسات السيمينار بالتفصيل: الأزياء التركية في البلاط السكسوني في أيام الملك أوغست القوي (١٧١٦-١٧٧٤)؛ لقاء متخيل في الآخرة بين السلطان العثماني سليمان القانوني والملك الإنكليزي هنري الثامن في مجلة تنويرية هزلية، اتخذت لها شعاراً "لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"، يتحاوران فيه عن قيم الزواج في الغرب وفي الإسلام ويصحح القانوني الصورة المشوهة لدى هنري الثامن عن الحريم؛ صورة الإسلام في قاموس ألماني صدر في النصف الأول من القرن الثامن عشر؛ المستعرب يوهان ياكوب رايسكه (١٧١٦-١٧٧٤) وبدايات الدراسات العربية في ألمانيا؛ الأديب كريستوف مارتين فيلاند وأساطيره الشرقية التي نشرها تحت عنوان "جنستان" (بلاد الجن)؛ الشاعر فريدريخ روكرت (١٧٨٨-١٨٦٦) وترجماته الحاذقة للشعر الشرقي؛ عرض لمسرحية "المنصور" عن عرب الأندلس المضطهدين من قبل محاكم التفتيش، وهي من تأليف الشاعر هاينريخ هاينه، رفيق كارل ماركس؛ نساء رحالات ألمانيات زرن الشرق في أوائل القرن التاسع عشر؛ والجمعية الألمانية للدراسات الشرقية في مرحلتها التأسيسية. ويسبق هذه الدراسات التفصيلية مقال يعرف القارئ بأهم التطورات في تاريخ الاستشراق الألماني فيما بين العصور الوسطى وأواسط القرن التاسع عشر.

نشرت مواد هذا السيمينار في العدد الفصلي الثالث من "حوار الثقافات"، وهي مجلة جديدة تصدر في ألمانيا، وتهتم بحوار الحضارات والثقافات والأديان. شعارها قول الشاعر الألماني الكبير غوته: "من يعرف نفسه وغيره، سيعرف هنا أيضاً أن الشرق والغرب لا يمكن بعد الآن فصلهما." والمجلة تصدر باللغتين العربية والألمانية بإشراف الأخوين رزاق وطالب منهل، وهما عراقيان يقيمان في ألمانيا. والأستاذ رزاق منهل كان عضواً في البرلمان في ولاية ساكسين-أنهالت عن حزب الخضر، ومسؤول شؤون الأجانب في بلدية ديساو. العدد الفصلي الثالث صدر أخيراً باللغة الألمانية، وهو يستحق إصداره باللغة العربية لما لدراساته من أهمية.

"إمبراطورية الفوضى" كما يراها آلان جوكس



الإدارة الأمريكية تؤسس لعلاقة مختلة مع العالم. منطق القوة الذي تأخذ به، تحت مختلف الذرائع والحجج، يزرع الفوضى وعدم الاستقرار. هذا المنطق يطبع بأنظمة لفظها التاريخ، كنظامي طالبان وصادام، لكنه يقوض معها الأمم المتحدة وركائز الشرعية الدولية. لذلك تثار اليوم أسئلة جدية حول حق القطب الواحد في فرض سيادته على العالم، حول ضرورة تشكيل نظام دولي جديد، وحول البدائل الممكنة لنزع الهيمنة الشاملة. في كتابه "إمبراطورية الفوضى" يرسم آلان جوكس، الخبير الفرنسي البارز في العلاقات الدولية، ملامح هذه الظاهرة، كاشفاً عن بعدها الطبقي، وداعياً إلى قيام تضامن ضدها بين مواطني العالم. أدناه مراجعة لهذا الكتاب، بقلم الباحث ماكينزي وارك..

يعتقد آلان جوكس أنه يمكن للنظام الجمهوري ذي المضمون الاجتماعي أن يوفر شكلاً عملياً لمقاومة العسكرة الإمبريالية. مشكلة الإمبراطورية، التي يراها متمركزة حول القوة العسكرية للولايات المتحدة، أنها تقدم للعالم عامل القوة فقط دون عامل الحماية. وقد سبق لماكينفيللي أن إنبيه إلى أن الغازي الحصيف هو من يعمل على تحسين شروط حياة المحتلين. فيضفي بذلك الشرعية على حكمه. في حالة الولايات المتحدة، فإنها لا تسعى إلى غزو العالم، حيث يعني ذلك تحمل المسؤولية عنه، بل تكفي بتدبير شؤونه عبر التحكم فيه عن بعد.

الإمبراطورية الأمريكية لا تخلق نظاماً مستقراً للعالم. لا يوجد هناك سلام أمريكي (باكس أمريكانا). كل ما تفعله أمريكا يقوم على تنظيم حالة الإضطراب بوسائط مالية، أو أحياناً من خلال تدخل عسكري. نظام عملها يعتمد أسلوب التهديد، الذي ينبغي، بين وقت وآخر، تنفيذه فعلياً لإضفاء مصداقية عليه. وهذا ما حصل في نهاية الأمر في حالة العراق. خلال فترة حكم الرئيس كلينتون، تجلت الإمبراطورية بمظهر الليبرالية الجديدة القائم على معايير اقتصادية للتجارة والمقاطعة. أما في فترة حكم الرئيس بوش الابن، فقد جرى استبدال ذلك الهجوم الإقتصادي بهجوم عسكري. الحجة هنا هي: لماذا نحاول الإشتباك دبلوماسياً مع أولئك الأوربيين المخادعين؟ لماذا لا نتم الإستعاضة عن الإستراتيجية الدبلوماسية، حيث التفوق الأمريكي فيها نسبي، بالإستراتيجية العسكرية، حيث التفوق الأمريكي فيها مطلق؟ إزاء القوة الأمريكية، ينتاب جوكس الذعر والإنذال، وربما إن تلك سمة عامة لرد الفعل الأوربي. فهو حين يعلق على الأخطاء الجيوسياسية السابقة للولايات المتحدة، يشير إلى أن الأمريكيين "غير قادرين على حكم العالم، وهذه نقطة لصالحهم" (ص ٥٦). بعض الإجراءات التي تطبقها الولايات المتحدة في الخارج، أخذت طريقها نحو الداخل، الأمر الذي يمثل أخطر تطور بالنسبة لسكان الولايات المتحدة. الدولة صارت تنكث تعهداتها بحماية حياة مواطنيها. يمكن وصف نظرة جوكس بأنها نظرة إشتراكي ديمقراطي غير طائفي. فهو يفترض أن موضوع السياسة هو الصراع الطبقي، وأن دور الدولة يتمثل في تهدئة النزاعات. أن الدولة ملزمة بحماية مواطنيها كي تضمن قبولهم بها. غير من الممكن أحياناً أن تنهرب الطبقة السائدة من التزاماتها بتحويل الصراع الطبقي

إلى صراع أثني داخلي، كما في حالة رواندا وصربيا، أو خارجي، كما في حالة حرب جورج بوش الابن على محور الشر. في هذا السياق يتحدث جوكس عن " الحاجة إلى إعادة إحياء مفهوم الطبقة " (ص ٦٢) هناك إحساس متنام بأن النظام الإقتصادي الذي نعيش فيه لا يشبه نظام " الرأسمالية " التي عاصرها أجدادنا. أما في أي اتجاه يصب تحول الرأسمالية، فلا أحد يعرف الجواب بعد. في هذا الصدد، يقدم جوكس لمحات مضيئة. فهو يعتبر أن ماكس فيبر توصل إلى إدراك أفضل للعلاقة التاريخية بين الإقتصاد والعنف بالمقارنة مع كارل ماركس. ففي عصر اليونان القديم، تنافس عمل المواطنين الأحرار مع عمل العبيد. وبحلول قدرة دويلات المدن على إيجاد ديمقراطية محدودة، فإنها استندت على القوة السياسية لعمل المواطنين الأحرار. أما في روما القديمة، فقد انقلبت الموازنة لصالح عمل العبيد، وبالترافق معه انبثقت الإمبراطورية. فقد غدت غاية الحرب إصطياد العبيد. وبذلك فقد حدد الطابع العسكري للعنف نمط الإنتاج، وليس العكس كما يعتقد أغلب الماركسيين. ومن المحتمل أن نظير هذا التشخيص نجده في عصرنا. فمصانع بلدان العالم النامية تعتمد أسلوب العمل القسري. والتدمير الجاري لطريقة الحياة الريفية في أغلب البلدان النامية، يوفر إمدادات من العمل القسري الذي يناقش العمل الحر في بلدان العالم المتطورة. العبيد يجري جمعهم بالطريقة القديمة ذاتها، أي بالعنف. لدينا من جهة، نوع مستحدث من العبودية المعولمة، ومن جهة أخرى، نوع جديد معولم من طبقة النبلاء المالكين للعبيد والمتاجرين بهم. وهو ما يدعوه جوكس " بالردة الإمبريالية " المنظمة من قبل طبقة الشركات فوق القومية وتجسيدها في الدول التابعة لها. هاتان القوتان قادرتان على إجبار الدولة المستقلة على المشاركة في سلب مصادرها الذاتية. على أي حال، هذه ليست نظرة إرتياب مرضي إزاء النظام العالمي الجديد. فجوكس يعتقد أن لا أحد مسؤول عن الوضع الناشئ، لأن بلوغ العولمة تم بواسطة التحكم عن بعد. والنتيجة المترتبة عليها يدعوها بـ " الفوضى المنشطية ". إن الأزمة تمتد إلى جميع المستويات، وتشمل القارات والأوطان والمناطق والأحياء والعوائل ، (....) ، بعد السلام البارد للتوازن النووي، نشهد اليوم حقبة " الحروب الصغيرة الفظيعة ". فتحت ضغط عملية تحرير الإقتصاد المعولم، يلحق الإنهيار ببعض الدول. والطبقة السائدة تدرأ عن نفسها غضب الطبقات التابعة باتباع إستراتيجية فرق تسد، محاولة حرب الطبقات إلى حرب أثنيات. غير أن ما يبدأ كوسيلة للحفاظ على السلطة، يؤول إلى دمار يشمل جميع الطبقات المتصارعة. في مواجهة إنهيار دولة بعد الأخرى تحت وطأة الضغط الملقى عليها، تصبح القوى فوق القومية مشلولة بفعل تباين نظراتها للعالم وتقديراتها للمصالح الوطنية. ويتقد جوكس أن هناك إختلافاً بين النظرة الأمريكية السائدة حول العولمة، كعملية هدم للحدود السياسية، والنظرة الأوروبية التي ترى أن العولمة الإقتصادية تستدعي نشوء أشكال فوق قومية للسيادة والهوية السياسية. هذه الأشكال يمكنها أن توفر نوعاً من الحماية للأفراد غير المحميين من قبل دول وطنية.

بدلاً من الحرب الباردة، أحلت شبكة السيطرة الدبلوماسية المعولمة " سلاماً مجمداً ". وهكذا، فإما أن يكون هناك عجز عن التدخل، كما في رواندا، أو تدخل فاشل، كما في البلقان. وحين تحصل تدخلات فوق قومية، فإنها تكون على شكل زحف بطيء. والنتيجة

يصفها جوكس بعبارة "حروب غير كلاوسفيتزية" (نسبة إلى الألماني كلاوسفيتز صاحب الكتاب الشهير "عن الحرب"). يفترض رأي كلاوسفيتز القائل إن الحروب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى، وجود حسابات سياسية للمصالح تحرك الإستراتيجية العسكرية. في حالة الصومال أو البوسنة، يعتقد جوكس أن ما حصل هو العكس تماماً. فالقادة العسكريون تركوا في الميدان دون توجيه من شبكة السيطرة الدبلوماسية، فقاموا بعمليات عسكرية أجهضت أدت إلى إجهاض الحسابات السياسية والإستراتيجية. هناك أيضاً ما يدعى بالحروب "الإنسانية". في كتابه "ضعفاء بالتكوين" يحاجج مايكل فيهير بأن قوات الولايات المتحدة وأوروبا تبرر موقفها السلبي، إزاء الإضطرابات المحلية في النظام العالمي، بتصويرها كآزمات إنسانية أقرب إلى الكوارث الطبيعية - فيقفون إزاءها عاجزين عن تقديم أي شيء سوى المواد الغذائية والطبية. في هذه النقطة، يصب جوكس نقده على أيديولوجيا المساعدات الإنسانية، مشيراً إلى أن في سياسة كهذه "تجري حماية ضمير الجلادين غير المثقل بالذنب بفضل سوء طوية السياسيين". المهمات الإنسانية تضع الجنود في أوضاع يكونون فيها مشلولين عن حماية الناس، ليراقبوا القتل أمام أعينهم متذرعين بالحيادية. لأسباب متعددة، تنتهي الحروب الصغيرة الفتاكة، والتدخلات الإنسانية كعمليات عسكرية غير عقلانية. الدول التي تدمر نفسها بنفسها عند إندثارها إلى درك المذابح الجماعية، تُقابل بردود أفعال طائشة عسكرية، أو دون رد فعل على الإطلاق. لهذا يستنتج جوكس أنه "دون عقلانية سياسية، لا تكون الحروب إلا ضرباً من الجنون" (ص ١٠٤). من المحتمل أنه لا تتوفر حلول جاهزة للفوضى العالمية الناشئة، لكن بالنسبة للوعي الأوروبي الذي يعنى جوكس بمخاطبته بشكل رئيسي، فالقضية تتعلق باختيار نوع الفوضى الذي يفضل. يقول جوكس "في الفوضى الحالية، لعل من المفضل تنظيم مجال للتأخي السياسي بين المواطنين بمعزل عن الدول، بدلاً من التثني جانباً لمراقبة إنتصار الطبقات الغنية فوق القومية، وعلى محياها تلوح إبئسامة الفاشية الجديدة" (ص ١١١). إن إمبراطورية الفوضى ليست فقط مضماراً سياسياً راهناً ومفعماً بالحيوية، إنها أيضاً تهية عدة نظرية يمكنها تجاوز القضايا الخاصة التي إختار جوكس التعاطي معها. ما يستثير الفضول، أن جوكس يعود إلى توماس هوبس الذي يصفه بأنه من نوع المفكرين التنويريين النادرين، لأنه نظر إلى الفوضى والحروب الأهلية كمفاهيم أساسية في تفكيره السياسي، وليس كعناصر ثانوية طارئة. يعتبر جوكس أن مفهوم هوبس عن الملكية القديمة، يوفر أداة نقدية مفيدة لتحليل القوى التي تخون السيادة الشعبية حين تدعي بناءها، مستعينا بهوبس، ماكيافيللي وكلاوسفيتس، يستنبط جوكس أدوات نظرية لتحليل الإمبراطورية من زاوية متحررة من التفكير الرغائبي، وغير مصطبغة بالموضات النظرية المتداولة. إن ما يضيف على هذا الكتاب قيمة راهنة، هو أنه يستقي أفكاره من نمط للتفكير غير سائد في زمننا. أما نقيصة الكتاب فهي في عدم إقتفاء جوكس لمنحى فكري كلاسيكي آخر يمتد من جون لوك عبر آدم سميث وريكاردو حتى ماركس. فبوسع هذا المنحى أن يثمر عن تحليل لعملية الإستحواذ على الملكية وعولمتها مشابه لعملية الإستحواذ على المناطق الجارية في العالم اليوم. ومن الجائز أن دور عملية الإستحواذ على الملكية، بدءاً بالارض إلى رأس المال،

ومن ثم إلى الملكية الفكرية، ستكون مادة كتاب آخر. الإمبراطورية، بنظر جوكس، تظهر إلى الوجود بهيئة جمهورية مغدورة. وهو يرى ترابطاً بين التوسع الحاصل في السوق وإندلاع الحروب الصغيرة الفظيعة. على خطى هوبس، يذهب جوكس إلى أن العنف والحرب الأهلية مكونان أساسيان لا يستوي فهم ظاهرة العولمة دونهما. لهذا يعتبر كتابه تحدياً لأيديولوجي الليبرالية الجديدة، وللتصورات المختلفة للحركة الفوضوية العالمية المعارضة للرأسمالية. فجوكس يعتقد أن التركيز المعولم للثروة لا يمكن حمايته إلا بالعنف. أما التدمير الواسع لحياة فقراء المدن والأرياف، فهو جزء من العملية نفسها التي يقوم عليها نظام التجارة لمنظمة التجارة العالمية (WTO) إن الإستجابة لعنف الإمبراطورية تتطلب اشكالا من الدول التابعة، والقوى فوق القومية القادرة على الفعل باسم الحماية. منذ زمن عصر اليونان، إستدعت الديمقراطية إيجاد حدود لدولة المدينة من أجل حصر أصوات الناخبين وإدارة النزاعات بين الطبقات. ويمكن للمرء أن يتفق مع جوكس على إمكانية وجود أشكال للديمقراطية خارج إطار الدول، لكن ليس دون حدود المكانية، كيفما كانت. إن التحدي الذي ينطوي عليه التفكير في الأشكال الجديدة لضم جماعات من البشر ضمن رقعة مكانية محددة، وفي أنماط السيادة والحماية الجديدة، قد أصبح يفرض نفسه بقوة في سياق الانتقال الظاهر الإمبراطورية التعبوية إلى الإمبراطورية المفترسة، كما يصفه جوكس. ففي النمط الأول تفرض المصالح الاقتصادية قيوداً على العنف. وتتولى الإمبراطورية التغلغل بطريقة حاذقة، متخطية الحدود بفضل "فايروس" التجارة. أما في الإمبراطورية الضارية، يصبح الاقتصاد تابعا للعنف. فالأضرار التي تلحق بنمط الإنتاج، يتم تلافيها عبر اقتسام المغنم داخليا. الإمبراطورية المفترسة لا تزحف عبر تشققات العالم، بل تعتمد إلى المجابهة المباشرة مع الآخر. لا يصعب رؤية مدى تطابق هذا الوصف مع سياسة إدارة بوش الابن. فعلى الصعيد الداخلي، يجري حرف الإنتباه عن الهجمة الطبقيّة الشرسة على العمال والمزارعين من خلال حرب كلامية توحد المواطنين ضد مخاطر خارجية غير محددة بوضوح. في غضون ذلك، تتشكل ملامح دولة بوليسية جديدة. فالإقتصاد يمر بحالة أزمة جدية لإنخفاض الإستهلاك مردها تخلف الأجور الحقيقية عن المستوى المرتفع للإنتاجية. نتيجة لهذا، يتم إستهلاك فائض القيمة في الإنفاق العسكري، بالترافق مع وعود بالسيطرة على إحتياطي النفط العراقي لسدّ النقص. إن جوكس يحذرنا هنا بأن "شيئاً مشابهاً لنظام عبودية عالمي قد عاد إلى الظهور، ليتركنا وجهاً لوجه مع احتمال قيام إمبراطوريات شمولية تركز على معسكرات وعبيد" (ص ١٨٧). وعلى هذا الصعيد "ينبغي لأوروبا أن تقول بصراحة لأمريكا أنها على خطأ في بحثها عن مجال عسكري دون إعتبار للسيادة، وسلام دون معاهدات، ومجال إقتصادي دون سياسة" (ص ٢١٥). تقول بصراحة لمن؟ في أمريكا لا توجد وسائل إعلام على المستوى الوطني تتيح للأمريكيين أن يتحاوروا ويتدبروا مصالحهم. ومن المؤكد ليس عندهم وسائل إعلام توصل إليهم ما يقوله الأوروبيون عن هذه القضية.

وزارة البيئة أمام مهمات آنية عاجلة

د. كاظم المقدادي *

استُحدثت مؤخراً، ولأول مرة في العراق، وزارة للبيئة العراقية، استجابة للحاجة الماسة، وكضرورة آنية ملحة، أملاها الواقع البيئي الراهن، من المؤمل ان تتوافر لها كافة إمكانيات النهوض والنجاح بمهمات دراسة وتقييم ومعالجة المعضلات القائمة، وخاصة التلوث البيئي الخطير. وكي تنهض الوزارة الجديدة بمهماتها المعول عليها، الرامية لانتشال الواقع البيئي الراهن مما هو فيه من كارثة مزمنة، ينبغي أن تحظى بدعم ومؤازرة المجتمع العراقي، ومؤسساته، وكوادره المعنية..



فلم يعد سرا، والشواهد لا تعد ولا تحصى، بأن الشعب العراقي برمته يعيش، منذ عقدين ونصف من عمر النظام السابق، في ظل كارثة بيئية، ومعالم التلوث البيئي الوخيم شائعة في أرجاء العراق، وتهدد مخاطره الجسيمة صحة وحياة المواطنين، وفي مقدمتهم براعم حاضر ومستقبل الشعب والوطن - الطفولة العراقية. وقد حصد التلوث البيئي المزمن، الشامل، والمتفاقم أرواح مئات إلاف العراقيين، وسبب، وما يزال إنتشار أنواع السرطان، وولادات مشوهة، وأخرى ميته، وإجهاضات متكررة، وولادات مبكرة وناقصة الوزن، وعقم، وإعتلالات عصبية، وغيرها من الأمراض والحالات المرضية الغريبة الخطيرة، التي طالت حتى الثروة الحيوانية والزراعية أيضا. وأكدت الأبحاث العلمية، وأخرها التي ناقشها المؤتمر الدولي الرابع للجمعية الأفريقية للطفرات البيئية، الذي نظم بالتعاون مع مركز بحوث الهندسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية في جامعة عين شمس المصرية، على أن التأثير الوراثي الناتج عن تلوث البيئة والتعرض للمواد الكيماوية والبيولوجية والمشعة لا ينحصر في الأجيال الحالية، محدثا التشوهات والسرطان والعقم، وغير ذلك، بل يمتد إلى الأجيال المقبلة بما يترتب عليه من أمراض وراثية وخيمة، وتشوهات خلقية، وتخلف عقلي.

إن وزارة البيئة العراقية مطالبة برسم أولويات مهامها الكفيلة بالنهوض عاجلا بمهمة معالجة الوضع البيئي العام، وتحسينه تدريجيا، بعد دراسة وتقييم المعضلات القائمة، ووضع الحلول والمعالجات الآنية لها، بمساعدة ودعم منظمات ومؤسسات ومراكز بحثية، محلية ودولية، وحكومات شقيقة وصديقة تقدم مساعدة نزيهة. ونأمل ان تراعي أولوية مهام الوزارة وخطة عملها المسائل التالية في التلوث البيئي المتفاقم على نحو خطير في العراق بفعل عوامل عديدة، بحسب تسلسلها الزمني:

1 - استخدام النظام الدكتاتوري المقبور للأسلحة الكيماوية ضد القوات الإيرانية بالقرب من الحدود في جنوب العراق، وإرتداد سموها بفعل الرياح القوية إلى الأراضي العراقية، وتفسخ الجثث الملوثة المدفونة في التربة العراقية، إلى جانب المعدات العسكرية وركام الحرب المتنوع.

2- تدمير الأهوار والأنهار العراقية بتأثير الحرب العراقية - الإيرانية، وبأيدي أجهزة النظام العراقي السابق.

3- استخدام الأسلحة الكيميائية ضد حلبجة وغيرها من المدن والقصبات الكردية العراقية، وفي الأهوار، من قبل قوات النظام آنذاك.

4- استخدام مئات الاطنان من ذخيرة اليورانيوم المنضب، أو المستنفذ، ضد القوات العراقية من قبل القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية في عام ١٩٩١، وما يزال الركام المشع والسام كيميائياً، الذي خلفته تلك الحرب، منتشر في جنوب العراق، مسبباً كارثة صحية وبيئية وخيمة. وقد أثبت العالم البريطاني كريس بسبي بنفسه بأن ذلك الركام سام ومشع حتى بعد مرور عقد كامل. وأكد العالم الكندي، منذ سنوات، إصابة أكثر من ١٠٠ ألف مواطن في البصرة بالسرطان، ووجد اليورانيوم المنضب في أجساد المدنيين هناك. واعرب د. سعيد اسماعيل حقي، عندما كان وزيراً مؤقتاً للصحة، عن قلقه البالغ من ارتفاع نسب الإصابة بالامراض السرطانية في مدينة البصرة. وأكد في تصريحات له في ١٦/٨/٢٠٠٣ ان حالات الإصابة بالامراض السرطانية المتوقع تسجيلها لاحقاً تتدرج بما وصفه بالكارثة السرطانية الخطيرة. وأوضح ان ازدياد الإصابة بهذه الامراض يعود الى مخلفات الحروب التي شهدتها منطقة البصرة تحديداً ولا سيما حرب الخليج الثانية التي استخدمت فيها كميات كبيرة من اليورانيوم المنضب، مشيراً الى ان نتائج هذا المركب بدأت تظهر على السطح بشكل قد لا يمكن السيطرة عليه.

5- حرق آبار النفط الكويتية من قبل قوات صدام وما سببه الدخان السام من تلوث و امراض كثيرة طالت العراقيين والكويتيين والسعوديين والإيرانيين، وغيرهم.

6- تدمير أسلحة الدمار الشامل العراقية في الأراضي العراقية، بطرق عشوائية - كالتفجير مثلاً - من قبل خبراء الأمم المتحدة، وإنتشار غبارها الملوث الى عشرات الكيلومترات، فضلاً عن الذي تم دفنه في التربة، وإحتمال تسربه الى مجاري الماء، وإلى شبكة المياه الجوفية، وإلى المزروعات، وغيرها.

7- استخدام أسلحة اليورانيوم المنضب مجدداً في الحرب الأخيرة من قبل القوات الأنكلو-أميركية، بكمية قدرت بـ ٣-٦ أمثال بقوة ٤-٨ أضعاف ما استخدم منها في عام ١٩٩١. وما يزال الركام الذي خلفته، من المعدات العسكرية العراقية المضروبة - دبابات ومدافع ومركبات وصواريخ ومدافع ودشم - منتشرة في أرجاء العراق، في المدن والضواحي والمحلات والأزقة، حيث يلعب الأطفال ويلهون فوقها وحولها، ولم يحذرهم أحد، ولا ذويهم، من خطورة الإقتراب منها، وهي مشعة وسامة - كما أثبتت القياسات التي أجريت لها والأبحاث الميدانية العلمية، المحلية والأجنبية. ونشير هنا الى سكوت بيترسون، من صحيفة "كريستيان ساينس مونيتور" الأميركية، الذي أجرى في ١٥ أيار الماضي، فحصاً لقياس إشعاعات الركام الذي خلفته أسلحة اليورانيوم المنضب في مناطق داخل بغداد، أثبت وجود مستويات تتجاوز القياس العادي - المسموح به - بما بين ١٠٠٠ و ١٩٠٠ مرة...

8- الدخان السام الناجم عن إشعال النار في الخنادق المليئة بالنفط الأسود، المحيطة ببغداد، من قبل قوات صدام، وما سببه من تلوث وأضرار بيئية وصحية.

9- إنتشار الذخائر الحربية، وقنابل النابالم والعنقودية أو الإنشطارية والصواريخ غير المنفجرة، في أرجاء العراق، الى جانب إنتشار البنايات المهتمة، التي ضربت أثناء الحرب،

وتراكم النفايات، والأوساخ، والمياه الآسنة، ومستنقعات مياه الصرف الصحي، في الأحياء الشعبية، ووجود ملايين الألغام الأرضية التي زرعتها النظام البائد على طول الحدود العراقية، الخ. علما بأن خبراء في نزع الألغام أكدوا بأن إزالة مئات الاطنان من المتفجرات والقنابل الانشطارية والصواريخ التي تنتثر بين المناطق السكنية، في مختلف مناطق العراق، يتطلب ما لا يقل عن ١٨ شهرا إلى ١٠ سنوات. وقال روجيه هيس - من المؤسسة السويسرية لإزالة الألغام، وهي منظمة غير حكومية كلفتها الأمم المتحدة لتنظيف العراق من مختلف المتفجرات والألغام : ان ما نعثر عليه اخطر من الألغام التي يمكن ان تقتل شخصا او اثنين. ان الصواريخ يمكنها ان تقضي على الكثير من الناس.

10- وهناك التلوث الإشعاعي جراء المخلّفات النووية، التي نهبت حاوياتها من المخازن الموجودة في مقر منظمة الطاقة الذرية العراقية في التويثة، حيث تم تفريغ محتوياتها الملوثة إشعاعيا في الأنهر أو في التربة، وتم استخدام الحاويات لجهل السكان باحتوائها على مواد مشعة قاتلة. وكان خبير السلامة النووية المهندس د. حامد الباهلي - من منظمة الطاقة الذرية العراقية - من أوائل الذين نبهوا إلى التسرب الإشعاعي الخطير الذي حصل عقب عمليات النهب في التويثة، وناشدوا العالم والوكالات الدولية المتخصصة بالتحريك الفوري لدرء الكارثة. وعلى المستوى الدولي دق د. محمد البرادعي - المدير العام التنفيذي للوكالة الدولية للطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة ناقوس الخطر، بالإستناد إلى شهود عيان، محذرا من احتمال حدوث تلوث كبير في العراق بعد التقارير التي وردت عن مستوى العبث الذي حصل في المراكز النووية العراقية، وطالب الولايات المتحدة بالسماح لخبراء وكالته دخول العراق فوراً للتقصي وتقييم حجم الأضرار. غير أن الإدارة الأمريكية لم تسمح لفريقه العلمي إلا بعد مرور ٦ أسابيع. ليس هذا فحسب، بل ومنعته من محاولة دراسة الآثار البيولوجية والبيئية لما حدث، وحددت عمله بمعاينة ما تبقى من مركز التويثة بعد النهب والتدمير حسب. وأكد الفريق العلمي المتخصص بالتلوث الإشعاعي التابع لمنظمة السلام الأخضر الدولية "جرين بيس"، بالإستناد إلى القياسات الإشعاعية التي أجراها في منطقة التويثة، وجود تلوث إشعاعي خطير على بعد كيلومترات من الموقع النووي، في الحقول والبيوت المجاورة. وأكد د. خالد عباس رشيد - مدير قسم تقنيات المياه في منظمة الطاقة الذرية العراقية، أن عمليات نبش المدافن النووية واستخراج بعض محتوياتها سبب ارتفاع نسب التلوث الإشعاعي إلى معدلات عالية جداً، تجاوزت في بعض المناطق الحدود المسموح بها دولياً للسلامة الإشعاعية، حيث بلغت درجة الإشعاع نحو ١١ ألف وحدة قياسية.

11- وهناك أيضاً مشكلة حاويات القنابل التي تم إلّاؤها في نهر دجلة تحت مراءى ومسمع القوات الأمريكية، التي لم تحرك ساكناً. وتكفي الإشارة هنا أن بعض الأسماك تموت بعد ٣ ثواني فقط من إلّاؤها في مياه الأنهار، هذا علاوة على مشكلة الصرف الصحي، التي تتسرب مياهه إلى نهر دجلة. وأكد المهندس رياض نعمان - مدير مشروع "الرستمية" للصرف الصحي في بغداد، بأن ملايين الناس يشربون من مياه النهر دون تعقيم، ودون أي مؤشر على قرب توفر حلول حقيقية لهذه المعضلة، مشيراً إلى أن مشروعه متوقف عن العمل حالياً بسبب تعرضه إلى القصف الأمريكي، إضافة إلى أن أعمال السلب والنهب طالت بعض المعدات والأجهزة.

12- وثمة ظاهرة أخرى نبه اليها د. زيد عبد الكريم- مدير مستشفى اليرموك، ألا وهي أن حدائق المستشفى تحولت، شأنها شأن حدائق مراكز صحية أخرى، إلى مدافن خلال الحرب وما بعدها، نظرا لعدم توفر الوقود الكافي لتشغيل السيارات ونقل الموتى إلى المدافن المخصصة أو حفظها في الثلاجات. أما التلوث البيئي، فوحده يمثل مأساة كبرى. إلى هذا أشارت الأنباء إلى اكتشاف مقابر جماعية لأشخاص أجريت عليهم تجارب بالغازات السامة والكيماويات والجراثيم البيولوجية القاتلة لتصفيتهم من قبل الأجهزة القمعية للنظام السابق.

13- من جهة أخرى نبه السيد فيصل الحمداني- مدير المختبر المركزي في وزارة الصحة العراقية، إلى أن العديد من الحاويات التي تضم نماذج من الفيروسات الاختبارية تمت سرقتها من المختبر، ووقعت في أيدي العابثين، ومن غير المستبعد أن يلجأ بعض هؤلاء إلى تلويث مصادر مياه الشرب بتلك الفايروسات. وهناك أيضا مشكلة هروب نحو ٧٠ مريضا من المصابين بالأيذر من مستشفى العدل الصحي، وهم في حالات مرضية متقدمة، الأمر الذي يمكن أن يهدد بكارثة صحية.

14- ولاحظ العلماء ارتفاع نسبة العوالق في شط العرب وفم الخليج، ولم تمر على اندلاع القتال في العراق سوى إسبوعين. ويرى علماء الأمم المتحدة أن ارتفاع نسبة العوالق هو مؤشر على وجود الكثير من المواد العضوية في المياه. وتتساقط هذه المواد إلى مياه شط العرب والخليج بفعل فتح المجاري على مياههما واختلاط المياه الآسنة بمياه التصريف. ويجري هذا على وجه الخصوص في مدينة البصرة التي تعاني من انعدام مياه الشرب منذ أكثر من ١٦ سنة، بسبب قصف القوات الإيرانية للمدينة إبان حرب الخليج الأولى. وتتسبب هذه الحالة بانتشار أمراض الإسهال والتايفويد، مع وجود خطر لانتشار الكوليرا في فصل الصيف. ويتكون شط العرب، كما هو معروف، من التقاء نهري دجلة والفرات في مدينة القرنة، وينتهي النهر الكبير في الخليج.

15- وحذر الخبراء، ومنهم د. حسين زهدي- الرئيس السابق للهيئة العامة للأرصاد المصرية، بأن المناخ الحالي في العراق محمل بملوثات الحرب ذات التأثير السلبى على صحة الإنسان وكافة الكائنات الحية. وتتمثل الملوثات البيئية في العراق في سموم بيئية ناتجة عن مخلفات الأسلحة تصيب جسم الإنسان، خاصة الرصاص والمعادن السامة، كما يحتوي ناتج حرق البترول الخام على مخلفات بيئية تنذر بكارثة بيئية كفيلة بانتشار حالات مرضية مزمنة في العراق، حتى بعد انتهاء الحرب، مثل أمراض الجهاز التنفسي، وسرطان الرئة، والأمراض الناتجة عن التلوث البكتيري. ولم يقتصر الأمر على الإنسان فحسب وإنما سيمتد إلى الحيوان والتربة الزراعية والمياه، وهو ما يحتاج إلى تطهير بيئي حتى تصبح الحياة آمنة في العراق. وأشار د. خالد رشيد، إلى مضاعفات استخدام قوات التحالف الأمريكية والبريطانية لقذائف اليورانيوم المنضب، وخاصة في بعض المناطق الزراعية في جنوب العراق، حيث لوحظ وجود آثار للتلوث به في المياه الجوفية والتربة التي لم تعد صالحة للزراعة.

والتدليل على خطورة أبعاد الكارثة البيئية القائمة في العراق تشير إلى أن برنامج الأمم المتحدة للبيئة UNEP أكد بأن بيئة العراق قد تضررت كثيرا منذ الحرب العراقية الإيرانية

1980 - 1988، وحرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، وتجفيف الأهوار، والعقوبات الاقتصادية، التي كانت مفروضة على العراق، قد شكلت تهديداً رئيسياً للشعب العراقي، وألحقت ضرراً فادحاً بالبنية التحتية، وبالأخص تدمير نظم المياه والصرف الصحي، وانعدام الاستثمار في هذه النظم، مما أدى إلى مستويات أعلى من التلوث والمخاطر الصحية، فضلاً عن أن انقطاع التيار الكهربائي أدى إلى إيقاف المضخات التي تعمل على إزالة مياه البساتين، وتدمير المياه الصالحة للشرب، إضافة إلى انقطاع مصادر الطاقة عن عمل المضخات التي تقوم بإزالة المياه المالحة من الأراضي المروية في بعض المناطق الجنوبية، مما تسبب في توقف حركة المياه. وأضاف إن المخلفات الطبية والقمامة يجب أن تزال لتقليل خطر تفشي أوبئة.

وحيال وخامة الوضع البيئي القائم في العراق، حذر البرنامج المذكور، في تقرير أعده بالتعاون مع الحكومة السويسرية، من المخاطر البيئية، التي ستواجه العراق ما بعد الحرب، ونبه إلى ضرورة اتخاذ التدابير العاجلة، خاصة للإغاثة الفورية، والتقليل من مخاطر التعرض لليورانيوم المنضب، من خلال الاستعانة بالتكنولوجيا غير المضرة، وإعادة البناء الرئيسية، وتبادل المعلومات، ودعا إلى ضرورة اتخاذ تدابير عاجلة لتنظيف المواقع العديدة للتلوث، وتنظيف مواقع النفايات للحد من خطر انتشار الأوبئة بسبب تراكم النفايات والأوساخ في الأزقة والشوارع والمستشفيات، مما يخلق أجواءً بيئية صعبة للغاية، إلى جانب التدابير العاجلة للقضايا الإنسانية في العراق، وأن تكون الأولويات بإعادة القدرة على الإمداد المائي وتشغيل أنظمة الصرف الصحي.

وبناءً عليه، حثت الأمم المتحدة على مواجهة التلوث في العراق، ودعت، في ٢٠٠٣/٤/٢٤، إلى تدخل عاجل لإنقاذ مستقبل البيئة في العراق. وقالت: هناك حاجة لتعامل عاجل مع الأزمة البيئية في العراق والتي ساءت بسبب أضرار الحرب وارتفاع معدلات التلوث. واقترحت دراسة قام بها برنامج البيئة للأمم المتحدة، وقدمت مراجعة عامة للوضع البيئي في العراق، تستلزم استكمالها بمعرفة ميدانية حديثة، أن يجري علماء وخبراء برنامج البيئة تقييماً عاجلاً عن أخطار المواقع التي قصفت بسيورانيوم منضب، ووجوب التعامل فوراً مع أبرز مواضع التلوث. وقال الخبير بيكا هافستو - رئيس الفريق الذي أجرى الدراسة، إن "كثيراً من المشاكل البيئية في العراق مقلقة إلى درجة تحتم الحاجة إلى تقييم فوري وخطة للتنظيف". وأكدت الدراسة بأن "الصراع العراقي في عام ٢٠٠٣ أضاف إلى المشاكل البيئية الحادثة منذ حرب الخليج عام ١٩٩١ والحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات، وسوء الإدارة، وسوء الاستغلال الذي طبع فترة حكم نظام صدام حسين". وأضافت بأن من نتائج الحرب الأخيرة: تزايد الأضرار التي لحقت بنظم توصيل المياه والصرف الصحي، مما أدى إلى معدلات عالية من التلوث والأخطار الصحية. انقطاع التيار الكهربائي بصورة متكررة، مما يتسبب في توقف عمل المضخات التي تزيل المخلفات وتوزع المياه. انقطاع الطاقة أثر على المضخات التي تزيل الماء المالح من الأراضي في جنوب العراق، مما تسبب في إغراق مزارع وتلويثها بالملح. الأدخنة المنبعثة من حرائق آبار البترول واشتعال خنادق النفط أضاف مزيداً من التلوث إلى الهواء والترربة. تدهور النظام البيئي بسبب القصف المكثف وحركة عدد كبير من المركبات والقوات. وقالت الدراسة إن استخدام ذخيرة اليورانيوم المنضب ربما "سبب

تلوثاً بيئياً بمستويات غير معروفة العواقب حتى الآن". وأضافت أنه يجب تقديم النصيحة إلى العراقيين حول كيفية تجنب التعرض إلى اليورانيوم المنضب.

وأعلن المدير العام التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة د. كلاوس توبفر: إن العراق يفتقر إلى دراسة بيئية معمقة بسبب انقطاع المنظمة عن متابعة أوضاعه طوال عشرين عاماً من الحروب خلال نظام صدام حسين، حيث كانت الصعوبة كبيرة في الحصول على المعلومات. وأضاف في حديث صحفي خلال مؤتمر البيئة العالمي الذي عقده في بيروت: إن العراق يشكو من أوضاع صعبة متعلقة بالمياه، لا سيما المياه العذبة، إضافة إلى التلوث، ولا بد من الذهاب إلى هناك للاطلاع على حقيقة الأوضاع. مبدياً أمله في "أن يتمكن الاختصاصيون ابتداءً من هذه المرحلة بالقيام بما يجب لتحديد المعطيات المتعلقة بالصحة البشرية وموضوع النفايات وحماية الزراعة وتأهيل البنى التحتية ودراسة أوضاع محطات الطاقة لتوفير السلامة البيئية. واعتبر توبفر أن العراق يواجه تحديات مرتبطة بكيفية انعاشه بيئياً وتوفير الأولويات الضرورية ووضع المشاريع القصيرة الأجل لملاحقة الأخطار الطارئة وتطوير تأثيراتها السلبية على أن توضع بعد ذلك المشاريع الطويلة الأمد.

ويذكر أن البرنامج المذكور قدم في شهر نيسان ٢٠٠٣ طلباً للإدارة الأمريكية للسماح لفريق علمي من خبرائه بدخول العراق بهدف تقييم حجم الأضرار البيئية والصحية عقب الحرب مباشرة، غير أن الإدارة الأمريكية لم تسمح له لحد اليوم، ولم تبرر رفضها لطلبه. وقال مديره العام التنفيذي، في مقابلة مع مجلة "البيئة والتنمية": هناك قلق شعبي كبير من التأثيرات المحتملة للأسلحة المحتوية على يورانيوم منضب، وثمة وجهات نظر متضاربة حول العواقب البيئية والصحية لاستعمال هذه الذخائر. لذلك يرى البرنامج أن هناك حاجة ملحة إلى مزيد من الدراسات، وأن من الحكمة إجراء تقييمات شاملة للمخاطر بغية تعزيز الفهم العلمي للطريقة التي يعمل بها اليورانيوم المنضب في البيئة. وهذا هو أيضاً موقف الأكاديمية العلمية البريطانية.

ولا يفوتنا التذكير بتقرير، أعده خبراء للامم المتحدة، عن متوسط الأعمار في العراق في المستقبل المنظور، بالاستناد إلى وقائع ومخاطر انتشار التلوث في المنطقة، نشر في شباط/فبراير ١٩٩٨، توقع فيه، ارتباطاً بنتائج التلوث الذي تتعرض له البيئة العراقية، انخفاض متوسط الأعمار في العراق إلى حوالي ٣٠ عاماً بحلول العام ٢٠١٠، وذلك بسبب التلوث البيئي. وقال د. جون دانكر -أحد الباحثين البيئيين البارزين في البرنامج المذكور، إن متوسط الأعمار سيكون الأكثر تأثراً بانتشار التلوث في هذه المنطقة من الناحية الديموغرافية. وأكد د. جي. اوران -الباحث في برنامج الأمم المتحدة لمكافحة التلوث في جنيف: إن نسبة التلوث في العراق قد تضاعفت ٨ مرات على الأقل خلال السنوات الأخيرة في بعض المناطق الحضرية، لتصل إلى ٨٧% مقابل ١١% سابقاً. وتترافق ظاهرة تناقص الأعمار - وفقاً لطبيب الأطفال فوستر - مع زيادة عدد اليتامى. وتفيد أرقام برنامج الأمم المتحدة لمكافحة التلوث وجود عدة ملايين من الأطفال العراقيين الأحياء لن يعيشوا لأكثر من سن العشرين. ويتوقع البرنامج أن تتضاعف وفيات الأطفال ٣ مرات بحلول عام ٢٠١٠ في جميع أرجاء العراق بسبب التلوث. ومن المؤكد أن المؤشرات الحياتية المذكورة قد زادت سوءاً عقب الحرب الأخيرة على

العراق واستخدام الأسلحة المشعة الفتاكة مجدداً خلالها.

لكل ما مر، يتعين أن تكون المهمة الأولى والأساسية لوزارة البيئة العراقية مكافحة التلوث البيئي الراهن بكل أشكاله وحديثاً وجد في أرجاء العراق. ووضع ضوابط ومعايير عصرية لحماية البيئة العراقية من الملوثات الصلبة والغازية والسائلة. ومكافحة الحشرات والقوارض. ويتطلب أن تستعين الوزارة بفريق كبير من خبراء وباحثين بيئيين، تتوفر لهم كافة الإمكانيات والدعم المادي والمعنوي، بالإضافة إلى لائحة قانونية جديدة تنظم واجبات الوزارة وصلاحياتها- بعد إلغاء القانون رقم ٢ لسنة ١٩٩٧، الذي تأسس بموجبه "مجلس حماية البيئة وتحسينها"، وأصبح رئيسه وزير الصحة ونائبه وكيل وزارة الداخلية، ولم يبق شيء يذكر لحماية البيئة العراقية وتحسينها..

ومن نافلة القول أن ضمان نجاح وزارة البيئة بواجباتها يستلزم تأسيس مراكز متخصصة تابعة لها، كمركز لأبحاث التلوث البيئي، ومركز يعنى ببيئة العمل وإدارة النفايات البلدية والطبية، ومركز لتأهيل الكوادر البيئية، ومركز إعلامي مهمته نشر الوعي والثقافة البيئية، وغيرها، مزودة بكافة ما تحتاج إليه في عملها، من كوادر، ومساعدتين، ومعدات وأجهزة، ووسائل نقل واتصالات، وما إلى ذلك..

ويتعين على مجلس الحكم الإنتقالي والحكومة العراقية المؤقتة، إلزام وزارات الصحة، والعلوم والتكنولوجيا، والتعليم العالي والبحث العلمي، وكافة المؤسسات البحثية المعنية، ومركز مكافحة السرطان، بتقديم العون اللازم لوزارة البيئة.

وفي هذا السياق لابد من التفاوض مع قوات الاحتلال، والضغط عليها، لتنفيذ التزاماتها، كقوة محتلة، بموجب إتفاقات جنيف، وإلزامها بتقديم العون المطلوب لوزارة البيئة، ولمركز أبحاث التلوث البيئي التابع لها، وفي مقدمته الأجهزة والمعدات الحديثة، والخبرات العلمية، إلى جانب السماح للوكالات الدولية المتخصصة، وفي مقدمتها برنامج الأمم المتحدة للبيئة UNEP ومنظمة الصحة العالمية WHO والوكالة الدولية للطاقة الذرية IAEA والوكالة الدولية لمكافحة السرطان، والوكالة الدولية لمكافحة التلوث، وغيرها، بدخول العراق فوراً، وتقديم العون والمساعدة، والمساهمة في إجراء الدراسات والتقييمات الميدانية الشاملة، ووضع المعالجات الجدية للمشاكل البيئية القائمة، إلى جانب إلزام ساطة الائتلاف المؤقتة بتنظيف العراق من نفايات الأسلحة المشعة، وإزالة "مقابر" الأسلحة المضروبة. وبذلك فقط نضمن نجاح وزارة البيئة في مهماتها الجسيمة..

أخيراً، لا يفوتنا التذكير بحقيقة معروفة، وهي: يستحيل إعادة إعمار العراق، وتحقيق البديل الديمقراطي المنشود، وبناء مؤسسات المجتمع المدني، في ظل خراب بيئي شامل، وتلوث قاتل للإنسان والحيوان والنبات، بينما تفقر الدولة إلى مؤسسة فاعلة تهتم جدياً بهذا الجانب الحيوي!

*طبيب، وباحث في شأن اليورانيوم المنضب وأضراره الصحية والبيئية، ومحرر علمي، عضو هيئة تحرير "المجلة العلمية العراقية" على الإنترنت www.iraqisciencejournal.com - أرسلت لـ "الثقافة الجديدة" في ١٤/١٠/٢٠٠٣

أخطار اليورانيوم المشع

عبد اللطيف زرنه جي

أهداف المقالة:



- 1- اطلاع وتوعية أكبر عدد من الناس على مخاطر اليورانيوم المشع.
- 2- دعوة بقية العلماء والمهندسين لمتابعة البحوث عن أخطار اليورانيوم المشع.

- 3-حث الدول العربية والجهات المعنية ولاسيما هيئة الطاقة الذرية والمؤسسات العلمية الاخرى على تأمين المستلزمات والتجهيزات والأجهزة المتقدمة التي تستطيع الكشف المبكر عن وجود المواد المشعة، ووضع دراسات وإحصائيات عن مخاطر المواد المشعة.
 - 4-ضرورة أخذ الإعلام دوره بكافة مجالات النشر في كل مايتعلق بهذا الخصوص.
- ان الموضوع يتعلق بمستقبل الأجيال ومصير الشعوب والدول.

مقدمة:

تتكون الكرة الأرضية من عناصر طبيعية يبلغ عددها (92) عنصراً، ويصل عددها الى (114) عنصراً مع العناصر غير الطبيعية.

إن جميع المواد في الكرة الأرضية سواء كانت حية مثل الانسان، الحيوان، النبات، الجرثومة، الفيروس، وحتى المواد الجامدة الصلبة والسائلة والغازية تتكون من هذه العناصر. تعتبر ذرة الهيدروجين أخف الذرات واليورانيوم أثقلها. نرسم للذرة عادة بالشكل التالي: M_Z^A

حيث:

M رمز ذرة العنصر

A الكتلة الذرية

Z العدد الذري

تختلف ذرة عن أخرى بالعدد الذري Z بالدرجة الأولى وبالكتلة الذرية A بالدرجة الثانية. الذرة عبارة عن نواة تحتوي على بروتونات موجبة وعلى نيوترونات بدون شحنة وتدور حول هذه النواة الالكترونات سالبة الشحنة. يقدر قطر الذرة 10⁻⁸ سم وقطر النواة (10⁻¹² - 10⁻¹⁰ سم). أي إذا اعتبرنا قطرة الذرة 1م موضوع في ساحة الأندلس مثلاً، فإن أقرب الكترون يدور حولها على بعد عشرة كيلومترات أو أبعد من ذلك. أي بمعنى آخر تكون الذرة عبارة عن فراغ يتخلله بعض المادة. تكون الذرة مستقرة أو أكثر استقراراً بسوجه عام في الحالات التالية:

-إذا كانت الذرة صغيرة.

-إذا كان عدد البروتونات والنيوترونات مزدوجاً.

- إذا اقترب عدد النيوترونات من عدد البروتونات.
- إذا كان عدد البروتونات مساوياً لعدد النيوترونات.
- تطلق الذرة غير المستقرة أشعة وتتحول إلى عناصر أخرى مع مرور الزمن.
- نظراً لأن اليورانيوم هو أثقل ذرة بين العناصر الطبيعية في جدول مندلييف، فإنه يكون أقل استقراراً.
- يعتبر اليورانيوم كما أشرنا سابقاً أثقل الذرات الطبيعية، ومن أهم العناصر المشعة، ويتألف اليورانيوم الطبيعي من ثلاثة نظائر هي:
- يورانيوم ٢٣٨ - U يشكل نسبة ٩٩,٣% من اليورانيوم الطبيعي.
- يورانيوم ٢٣٥ - U يشكل نسبة ٠,٧% من اليورانيوم الطبيعي.
- نشاهد في الجدول التالي كيفية توزيع عدد البروتونات والنيوترونات والكتلة الذرية في يورانيوم طبيعي. مما يشكل نسبة قليلة جداً من اليورانيوم الطبيعي.

العدد الذري	عدد البروتونات	عدد النيوترونات	ISOTOPE
٩٢	١٤٢	٢٣٤	يورانيوم U-٢٣٤
٩٢	١٤٣	٢٣٥	يورانيوم U-٢٣٥
٩٢	١٤٦	٢٣٨	يورانيوم U-٢٣٨

تحتوي القشرة الأرضية على كمية من اليورانيوم ليست بالقليلة (تساوي تقريباً كمية مادة الرصاص)، حيث تقدر بـ ٠,٠٠٠,٠٠٥% من كل القشرة الأرضية، أي ١٢ ١٠٠,٦٥ طن ويكون مبعثراً في جميع الدول، ولكن يتواجد في بعض الدول بنسب أكبر مثل: كونغو، نيجر، تشيكوسلوفاكيا، موريتانيا، كندا، جنوب أفريقيا، الهند، إسبانيا، البرتغال.

يتواجد في العالم العربي حراً ومع الفوسفات، حيث يشكل في الفوسفاتية ٠,٠١٥%.

تصل احتياطات الوطن العربي من اليورانيوم إلى ١,٥ مليون طن من فلزات اليورانيوم الأولي U3، ٥8

وإجمالي الاحتياطي الثانوي من الفوسفات إلى ٤,٩١٥٣ مليون طن.

إن معدل اكتشاف اليورانيوم في العالم وصل في التسعينات إلى ما بين ٢٠٠-٣٠٠ ألف طن/سنوياً.

تعريف نصف عمر المادة المشعة:

نصف عمر المادة المشعة هو الزمن اللازم كي تتحول نصف الكمية المشعة الأصلية إلى

عناصر أخرى، حيث لا يبقى من المادة المشعة الاصلية سوى أقل من ١% بعد ٧ انصاف اعمار.

نجد في الجدول التالي أهم العناصر المشعة وأنصاف اعمارها.

العنصر المشع	نصف العمر
الثوريم $Th-232$	١٠٠١,٣٣ سنة
اليورانيوم $U-238$	١٠٠٤,٥٦ سنة
اليورانيوم $U-235$	٧١٠ مليون سنة
البلاطونيوم $Pu-239$	٢٤٠٠٠ سنة
الراديوم $Ra-226$	١٥٩٠ سنة
الراديوم $Ra-218$	٣,٠٥ دقيقة
البولونيوم $Po-212$	١٠٠٣ ثانية

آثار اليورانيوم المستنفذ (المنضب) على الانسان:

يعتبر الانسان المتضرر الاول من تأثير المواد المشعة ولا سيما النووية منها. إذ تتألف معظم مصادر الاشعة الخارجية من الإشعاعات غاما والاشعة الكونية الخطرة جدا. كما ان المصادر الداخلية الناجمة عن تحلل المواد المشعة في الأرض تسبب مشاكل اضافية لاتقل عن المصادر الخارجية.

لقد أثبتت الدراسات ان المساكن التي تقع في أماكن مرتفعة هي أكثر عرضة للأشعة من المساكن المنخفضة، يصل مستوى الأشعة عند مستوى سطح البحر الى ٠,١٥ راد/السنة، بينما في طبقات الجو العليا ولا سيما داخل أحزمة (فان الان) فتصل الى ١٠٠٠ راد/السنة، ولهذا يسعى رواد الفضاء عادة الى اجتياز هذه الطبقة بأقصر مدة زمنية خلال الرحلات الفضائية.

اصدرت الهيئة العالمية للحماية من ضرر الإشعاع (ICRP) أنظمة حددت بموخبها جرعة الإشعاعات المسموح بها للكائن البشري بـ ١٠٠ ميلي راد في الاسبوع، أو ٥ راد في السنة بشرط أن لا تزيد كمية الاشعة المتراكمة عن ٢٥٠ راد طيلة العمر.

الرادار :-

هي كمية الإشعاعات التي تنتج مقداراً من القدرة الضارة يعادل وقع (تأثير ضرر) ١٠٠/أرغ على غرام واحد من الانسجة الحيوية.

يتعرض الانسان بوجه عام الى ١ ميلي راد من الاشعة في السنة صادرة عن التلفزيون،

كما يتعرض الى ٢ ميللي راد من ساعة اليد أو ساعة الحائط إذا كانت مطلية بمادة الراديوم وقد تترك لغاية ١ راد في السنة، كما يتعرض الانسان الى ١ راد من التصوير الشعاعي في السنة، لكن على مستوى الانسان ككل فلا تتعدى ٥٠ ميللي راد في السنة عادة، كما يتعرض رجل الفضاء الى مايعادل ١٥٠ راد في السنة الواحدة خلال وجوده في الفضاء.

نستطيع استخدام جرعة شعاعية لغاية ٦٠٠٠ راد من المعالجة من مرض السرطان ضمن منطقة محددة جداً من جسم الانسان. أثبتت الدراسات أيضاً ان مستوى الاشعاعات إذا زاد الى ١٠٠٠٠ راد، فإن الانسان يموت بعد عدة أيام عادة. كما أثبتت الدراسات والاختبارات ان تأثير الاشعاعات يختلف حسب الجنس، فالرجل لا يستطيع تحمل أكثر من ١٠٠٠ راد، بينما المرأة لا تستطيع تحمل أكثر من ٣٠٠ راد. ان تأثير الاشعاعات يرتبط كثيراً بالعمر وبصحة المريض. تكون الاشعة أكثر خطورة على الخلايا حديثة التكوين، وتشكل خطورة أكبر على المرأة في فترة المراهقة، كما ان بعض اجزاء الجسم أكثر حساسية تجاه الاشعة من غيرها مثل: الخلايا العصبية، خلال الامعاء، الكلية، الدم، الاعضاء التناسلية، الكبد، المورثات... الخ.

ان خطورة الاشعاعات تكمن بأنها تدخل الى داخل نواة الخلية الحية فتدمر كامل محتوياتها ولاسيما السجل الوراثي (DNA) وبالتالي تصبح الخلية مذبذبة ولا تستطيع ان تنقسم الى خلايا جديدة يمكن ان تقوم بوظائفها، والخطورة الكبرى على خلايا الدم الحمراء التي لا تحتوي على نواة وبالتالي عندما تموت لا يمكن ان تتجدد، والخطر من ذلك إذا أصابت الاشعة مراكز توليد الكريات الحمراء في الطحال أو نخاع العظمي. كما ان خلايا الاعصاب ليست بطبيعتها قادرة على الانقسام، مما تسبب خطورة كبيرة عليها، أما الخلايا البيضاء فإنها عندما تُصاب تفقد الانسان المناعة ويصبح الانسان اشبه بمريض الايدز لا يستطيع ان يقاوم الجراثيم.

يصعب اكتشاف الاشعة فهي بلا لون ولا رائحة ولا طعم ولا يستطيع الانسان ان يتعرف عليها باللمس، برغم ذلك فإن بعض الناس يشعرون بوخز عندما يصل مستوى الاشعة الى ١٠ راد فوق الجلد.

تدخل أغلب الاشعة الى جسم الانسان عن طريق الفم والتنفس وصعب عليها الدخول عبر الجلد.

ان من أهم عوارض الاشعة العالية المستوى على الانسان هي: الغثيان - القيء - النزيف الدموي - الاسهال - فقر الدم - فقدان الذاكرة - نقص الوزن - فقدان الشهية على الطعام - خوار القوى - ابيضاض الشعر - ضعف البصر - الشيخوخة المبكرة - ضعف القدرات الجنسية - احمرار الجلد..... الخ.

جرت دراسات واختبارات عديدة في العالم على تأثير الجرعات الاشعاعية على مختلف الكائنات ووضع لذلك معايير ومصطلحات مثل (LD-50) تعني الجرعة من الاشعة التي تؤدي الى موت ٥٠% من الموضوعين تحت الاختبار والمعرضين للأشعة، كما وضع المصطلح (LD 50/30) الذي يعني الجرعة الاشعاعية اللازمة التي تؤدي الى موت

٥٠% من الكائنات الموضوعة تحت الاختبار خلال ٣٠ يوماً.

النفايات النووية:

يقدر حجم النفايات الطبيعية الصادرة عن الانسان والزراعة والصناعة وغيرها بـ ٧٧٠ مليار طن أي يقدر نصيب الفرد في الكرة الارضية بـ ١٢٠ طن/فرد/سنة. كما يقدر العلماء ان النفايات الضارة ولا سيما النفايات النووية فتصل لوحدها الى ٤٠٠ مليون طن في السنة، أي أكثر من ١ مليون طن في اليوم. كما يقدر حجم النفايات الملوثة للبيئة والمضرة بالانسان في بعض الدول بـ:

- 70 مليون طن سنوياً في أمريكا.

- 50 مليون طن في الاتحاد السوفياتي السابق.

- 35 مليون طن في أوروبا.

ان نواتج المفاعلات النووية الخطرة كثيرة جداً، ويمكن ان يصدر من هذه المفاعلات أكثر من ١٣٠٠ نظير، منها مواد مشعة واخرى عناصر مشعة ضعيفة وثالثة عديمة الخطورة وكل مادة تلامس أجزاء المفاعل أثناء عمله تصبح مشعة بما في ذلك الماء وضارة بالانسان والبيئة. عادة تهدأ هذه النواتج تدريجياً ويستمر نشاطها الإشعاعي حتى ٥٠٠ سنة، حيث تُعاد هذه النفايات الى تربة الأرض بعد ذلك. لكن بشرط دفنها ضمن شروط فنية قاسية فور خروجها من المفاعلات كما ذكرنا مدة ٥٠٠ سنة في باطن الأرض أو في البحار.

يكلف عادة دفن طن واحد من هذه النفايات في أمريكا وأوروبا ٢٠٠٠ دولار، بينما لا تزيد التكلفة عن ٢٠٠ دولار في الدول النامية وربما يدفن سراً ومجاناً فيها بدون معرفة الحكومة والشعب.

يتوفر لدى أمريكا ٧٠ مليون كيلو غرام من اليورانيوم المنضب/المستنفذ/ تكفي لصنع أكثر من ٥٠٠ مليون قنبلة مما يزيد الأمور خطورة على الانسان والبيئة.

ان أكثر المفاعلات قد بنيت منذ عشرات السنين ويقدر عمر المفاعل عادة بين ٤٠ - ٣٥ سنة، أي يجب تفكيك المفاعلات القديمة وهذا يتطلب شروط فيئة على غاية من التعقيد والكثير من التكاليف وتستغرق زمناً طويلاً تفوق جميعها بناءها. إذ ان رأس دبوس من مادة مشعة يحتاج لمنع أصراؤه ما لا يقل عن ٣ طن من الاسمنت.

أخيراً أصبح بالإمكان صنع قنبلة نووية صغيرة تعادل ١ كيلو طن من مادة (TNT) بحجم فنجان قهوة أو حتى بحجم قلم، فيما اذا استخدمنا عنصر كاليفورنيوم (Cf) أو عنصر امريكيوم (Am).

تجدر الإشارة الى اننا كي نخفض أشعة غاما الى العشر (طبقاً لـ ٢ مليون اليكترون فولت)، فإنه يلزم سُمك ٤٨ سم من الماء أو ٢٥ سم من الباطون المسلح، أو ٦,٧ سم من الحديد، أو ٤,٣ سم من الرصاص.

بينما يمكن اسم من الالومنيوم إيقاف جمع البروتونات والالكترونات المنطلقة من العناصر المشعة. إن ضرر أشعة غاما هو أقل ضرراً من النيوترونات بـ ٥٠ مرة.

اليورانيوم المستنفد (المستنفد - المنضب) Depleted Uranium

لقد وجدنا سابقاً بأن اليورانيوم الطبيعي يتألف من ثلاثة نظائر، الفعّال منها هو اليورانيوم U-235 الذي يشكل نسبة ٠,٧% فقط. عندما نرفع هذه النسبة عندئذ يسمى باليورانيوم المخصب وعادة يجب أن تكون نسبة التخصيب ١٠% أو ٢٠% أو لغاية ٥٠% حتى يصلح هذا اليورانيوم لصنع القنبلة الذرية. إن التخصيب لغاية ٥% لا يصلح لصنع القنابل الذرية لهذا تتسامح به هيئة الطاقة الذرية العالمية ولا تعتبره خطراً أما إذا خفضنا نسبة اليورانيوم الفعّال U-235 عن نسبة ٠,٧% فيسمى باليورانيوم المستنفد (المستنفد - المنضب) وغالباً ما نحصل على اليورانيوم المستنفد من المخلفات النووية من المحطات الكهربائية النووية أو من المفاعلات المخصصة للأغراض العسكرية أو لأغراض علمية. تكون نسبة اليورانيوم الفعّال في هذه الحالة بين ٠,٣ - ٠,٢%. بغية إنتاج قذائف أكثر تدميراً وقتلاً فقد استخدم في بادئ الأمر مادة التتغستين، لما لهذه المادة الثقيلة من القدرة على الاختراق أكثر ولاسيما الدبابات، لكن سرعان ما تبين أنه يمكن وبشكل أفضل استخدام اليورانيوم المستنفد الذي هو أثقل من الرصاص بـ ١,٧ مرة وأكثر اختراقاً من معدن التتغستين بـ ٢٠% حين تصطدم القذيفة الحاوية على اليورانيوم المستنفد وبخاصة بالدبابات أو غيرها فإن درجة الحرارة الآنية ترتفع لأكثر من عشرة آلاف درجة مئوية تؤدي إلى تبخر معادن الدبابات وأكسدها وتنتشر على شكل غبار ضار جداً على الإنسان ولمسافات بعيدة. إن هذا الغبار المؤكسد يدخل جسم الإنسان عن طريق التنفس ويصل إلى الرئة لأن أبعاد ذراته من مرتبة ميكرون ويكون مفعوله إما ساماً أو مشعاً. أكد العالم الألماني (ولفانغ كوللين) الخبير لدى الحكومة للحماية من الأشعة بأن اليورانيوم المستنفد إذا ترسب على جرح أو طعام أو في الهواء عندئذ تكون أشعته ومفعوله قوياً. يعتبر الكثير من العلماء بأن حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ بمثابة حرب نووية حيث أسقط الأمريكان والانكليز على العراق ما يقرب من مليون قنبلة تحوي على اليورانيوم المستنفد. منها ١٤ ألف قذيفة عيار ١٢٠ و ١٠٥ ملم، وكذلك أكثر من ٩٤٠ ألف قذيفة صغيرة من عيار ٢٥ ملم و ٣٠ ملم. علماً بأن كل قذيفة تحتوي على اليورانيوم المستنفد ومخصصة للطائرات يكون في داخلها ٣٣٠ غرام من هذا اليورانيوم والقذيفة المخصصة للدبابات تحتوي على ٤٥٠٠ غرام أي مجموع ما أسقط كان بين ٣٠٠ - ٨٠٠ طن يورانيوم مستنفد. كما أن أمريكا وقوات التحالف أسقطت على يوغسلافيا أكثر من ١٠ طن منه في أعوام ١٩٩٢، ١٩٩٥، ١٩٩٩ حسب التقارير الأوروبية العلمية أنه من المحتمل أن يصيب ٢٠ مليون إنسان مع مرور الزمن. حسب احصائيات عديدة فإن الأشعة إذا أصابت مليون شخص وأصيب بالمرض ٦٠ شخصاً في الجيل الأول فإن احتمال إصابة ١١٠٠ شخص بمرض في الجيل الثاني.

لقد أظهرت الاحصائيات في العراق أن حالات الإصابات بالسرطان قد ازدادت من ٦٥٥٥ إصابة عام ١٩٨٩ إلى ١٠٩٣١ إصابة في العام ١٩٩٨. ويعاني الكثير من العراقيين ولاسيما في البصرة وجنوب العراق من سرطان الدم والرئة والجلد والجهاز الهضمي، وإن نسبة السرطانات ازدادت خمسة أضعاف على السابق وحالات الاجهاض ثلاثة مرات وتشوهات المواليد ثلاثة مرات أيضاً. لقد شارك من قوات التحالف في حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ ٦٧٩ ألف جندي. اشترك منهم ١٣٠ ألف من أعراض تتراوح

ما بين مشاكل في التنفس الى مشاكل في الكبد والطحال والكلية وكذلك ضعف الذاكرة والصداع والتعب المستمر واحياناً الحمى.

من بينهم البروفيسور الميجر الامريكي (دوغ روكه) رئيس برنامج تنظيف اليورانيوم المستنفذ بعد الحروب والذي مكث اسبوعاً واحداً في السعودية فقط حيث يحمل الان ما يعادل (٥٠٠٠) مرة اعلى من أية مجموعة شعاعية مسموح بها للانسان. لقد اجريت له لغايته (١٥) عملية جراحية في الكبد. الجدير بالذكر ان تاثير المادة المشعة قد لا تظهر بشكل فوري، بل ان فترة الحصانة تمتد بين (٥-٦٠) سنة من عمر الانسان. إذ لازالت هناك اصابات في كل من هيروشيما وناغازاكي ويموت من اليابانيين المئات سنوياً. لقد أكد البروفيسور (عاصف دراكوفيتش) مدير المركز الطبي لأبحاث اليورانيوم في برنامج بلا حدود الذي بث من محطة الجزيرة يوم الاربعاء في ٢٠٠٣/٥/١٢ ان امراض حرب الخليج قد اصاب ٨٠ الف جندي أمريكي خلال ١٢ سنة مات منهم (٢٦) الف. كما ان مجموعة من الجنرالات الامريكيين الذين يقدر عددهم بألف جنرال قد ارسلوا مذكرة الى جورج بوش في مطلع شهر اذار عام ٢٠٠٣ اي قبيل حرب الخليج عام ١٩٩١ أصبحوا معاقين بموجب تقارير ادارة شؤون المحاربين الامريكيين، القدامى، وان هذا العدد في تزايد يومي.

تزداد الخطورة ١٠٠ الف مرة اذا احتوت القذائف على البلوتونيوم (PU-239) وربما نشهد في المستقبل احداثاً اكثر جسامه من قبل الدول التي تمتلك هذه الاسلحة وقد تزداد الامور تعقيداً اذا ما انتقلت مثل هذه الاسلحة الى أيدي عصابات متطرفة.

يقول البروفيسور عاصف دراكوفيتش اكتشفنا آثار مرض حرب الخليج عام ١٩٩١ من خلال الدراسة لحالات عشرات المرضى من الجنود الامريكيين الذين عادوا من الخليج الى الولايات المتحدة. فقد وجدت الكثير من الصعوبات في كشف اسرار المرض والاسباب التي تقف وراءه منها فقدان بعض العينات التحليلية واختفائها من المخبر أو فصل الأطباء الذين كانوا يتعاونون معي. برغم ذلك توصلت الى ان هذه الامراض كانت بسبب الاسلحة التي استخدمت في العراق. وانها كانت كارثية بكل معنى الكلمة. واضاف انه بعد حرب افغانستان ارسلت عام ٢٠٠١ و ٢٠٠٢ فريقين من معهد مركز الابحاث اليورانيوم الطبية. حيث قام الفريقان بأخذ الكثير من العينات وتحليلها من عدة مناطق مثل: كابول - جلال آباد - تورا بورا - مزار الشريف - بيبي مهرز (ماهرو). اثبتت الدراسات والتحليلات الاولى المبدئية بانه لا يوجد يورانيوم مستنفذ في افغانستان. ولكن تم بعد ذلك اجراء تحاليل جديدة اخرى فتبين ان التلوث في افغانستان شاملاً كل من الناس والتربة والماء والهواء بفعل يورانيوم من نوع آخر يشبه تركيب اليورانيوم الطبيعى مضافاً عليه يورانيوم مصنع وبالتالي يمكن تسميته باليورانيوم غير المستنفذ وهو أشد خطورة بكثير من اليورانيوم المستنفذ. ومن خلال فحص المرضى تبين انهم ملوثون بنسب عالية من هذا اليورانيوم. التحاليل شملت اربعة انواع من اليورانيوم هي:

اليورانيوم (U-234, U-235, U-238) علماً بأن اليورانيوم (U-236) غير موجود في الطبيعة ولكن يمكن أن يُصنع بالمفاعلات. إن استخدام مثل هذا اليورانيوم خطير جداً إذ عندما يصيب الهدف ترتفع حرارة الهدف كثيراً فيتبخر اليورانيوم ومعادن الهدف التي يمكن ان تصبح مشعة وتنتشر عبر الغبار في الهواء، وعندما يتنفس الانسان يدخل الى

الرئتين ومنها الى الدم حيث يتفاعل مع كل خلايا الجسم البشري، لأن الدم يصل لكل الخلايا، كما تبين وجود تركيز كبير مكثف في البول البشري نتيجة استهلاك الماء الذي يحوي على كميات كبيرة من هذا النوع من اليورانيوم غير المستنفذ. برغم ان الآثار السامة معروفة منذ ٢٠٠ سنة لكن تأثيره بدا يتضح اليوم أكثر. ان الاماكن التي تعرضت للقصف أصبحت غير صالحة للحياة، وستتأثر بها الاجيال القادمة أكثر، قام الفريقان بجمع عينات من خمسة مناطق متفرقة كما تم ذكره، وتم فصل المرضى الى نوعين. المرضى بدون أية اعراض، والمرضى بأعراض. وأغلب الظن انهم جميعا سيصابون بالسرطان قريباً لأن المياه ملوثة كثيراً. كما تم أخذ عينات من المناطق التي تعرضت للقصف واخرى من المناطق التي لم تتعرض للقصف فتبين ان هناك فرقاً كبيراً بين عدد المصابين. أظهرت التحاليل النتائج التالية:

تلوث البول البشري باليورانيوم:

أظهرت نتائج الابحاث ان مستوى اليورانيوم المسموح به في امريكا ١١,٨ نانو غرام/ليتر وفي انكلترا ٨ نانو غرام وفي افغانستاق ٩,٤ نانو غرام وهي نسبة عادية مثل بقية الدول. ولكن في الواقع وجدت فعليا لدى المصابين كميات مكثفة تصل الى ٣١٥,٥ نانو غرام/ليتر. هناك قرية بأسم (لال ماء) تعرضت لقصف بقنابل كبيرة مما ادى الى ظهور امراض كثيرة لدى السكان. وفي قرية (بيبي ماهرو) حيث سقطت قنبلة كبيرة فقتلت عائلة بأكملها (الام - ولدين - ثمان نساء - وابنتين)، ونجا من هذه القنبلة طفل عمره (١٢) سنة اسمه (حسين)، ومن خلال فحصه تبين ان كمية اليورانيوم لديه ٢٠٣١ نانو غرام/ليتر، أي ٢٠٠ ضعف مما مسموح به. بينما عندما تم فحص والده الذي لم يكن موجوداً أثناء الحادث وجدت الكمية ٤٠ - ٥٠ نانو غرام/ليتر. ان هذا الطفل سوف يعاني كثيراً من خطر الاثر الكيميائي الذي يفتك بالكليتين وكذلك من التأثير الاشعاعي وبخاصة جهاز المناعة لديه.

تلوث المياه باليورانيوم غير المستنفذ:

تجدر الإشارة الى ان الجرعة المسموح بها في الماء في حدها الاقصى ٢٠٠٠ نانو غرام/ليتر والمعدل المتبني في وكالة الصحة العالمية ٤٠ نانو غرام/ليتر. بينما وجد في كابول وجلال آباد ان التركيز قد وصل الى ٤٠ الف - ٦٠ الف نانو غرام/ليتر. أي بمعنى ان تلوث المياه بهذه النسبة الكبيرة سوف يسبب الكثير من الامراض للناس حاضراً ومستقبلاً.

تلوث التربة باليورانيوم غير المستنفذ:

تم أخذ عينات من الاماكن التي تم قصفها بهذه القنابل حيث وجدت الكمية تتراوح بين ٤,١ - ٦,٣ نانو غرام/كيلو غرام. بينما الكمية المسموح بها ١,٢ نانو غرام/كيلو غرام. أي أكبر من المسموح بـ (٦) اضعاف. وكان المفروض أخذ عينات من بقايا الشظايا والقطع المعدنية المتبقية من الاهداف المصابة يمكن ان تكون دليلاً قاطعاً على استخدام هذا اليورانيوم، لكن تم انتشالها بأمر عسكري. الخطورة تكمن في ان المواد المشعة والاشعة في

انها تصيب الجميع (الانسان - الحيوان - النبات - الحشرات) وتعلق في الهواء وتدخل الى المياه والى باطن التربة ويصعب أن ينجو منها أحد. من الصعب المقارنة بين ماتم في أفغانستان وبين ماتم في هيروشيما ونagasaki. لأن هناك استخدمت القنابل النووية الانشطارية التي سببت في اطلاق ٤٤٠ ايزوتوب في المتوسط في الهواء ونشرها المطر في اماكن متعددة وهي لا تبقى طويلا. بينما اليورانيوم يبقى من ٤ الى ٥ مليار سنة. تجدر الإشارة ايضا الى ان النتائج التي تم التوصل اليها سابقا بعد حرب الخليج الثانية قد قبلت واعتمدت من جهات عديدة منها معاهد علمية كبيرة في امريكا وانكلترا والدنمارك.

اشار البروفيسور عاصف دراكوفيتش في آخر اللقاء الى احتمال ان تكون امريكا قد استخدمت مثل هذه الانواع من الاسلحة أو غيرها في احتلال العراق عام ٢٠٠٣، وأنه يسعى لارسال فريق جديد الى العراق لاجراء بحوث ودراسات وان كان يتوقع عدم موافقة امريكا على ذلك. وسوف ينشر نتائج الابحاث للعالم.

فوائد المواد المشعة:

تستخدم المواد المشعة والاشعة في كثير من المجالات التي تفيد البشرية. إذ كم انقذت المواد المشعة ارواح البشر وكم ازهقت منها. من استخداماتها على سبيل المثال وليس الحصر المجالات التالية:

- مراكز البحوث العلمية.
- مستشفيات الطب النووي.
- مجالات صناعية متعددة.
- المجالات الزراعية المختلفة.
- تصنيع البطاريات الذرية.
- زيادة طاقة الوقود في الصواريخ.
- تقدير الاعمار الجيولوجية والحقب الزمنية، واعمار الصخور وتقدير عمر الانسان القديم.
- توليد الطاقة الكهربائية.
- الاستخدامات الكثيرة في وسائط النقل، مثل البواخر، المحطات الفضائية، وربما تستخدم مستقبلا كوقود في الطائرات.
- تعتبر المواد المشعة الساعة الزمنية الازلية وأول ساعة كونية.

طرق الوقاية من تأثير المواد المشعة والاشعاعات الضارة:

ان افضل طريقة للوقاية من المواد المشعة والاشعاعات الضارة هو الابتعاد عنها وعدم التعرض لها. كما ان الحجاب الواقي يمنع تأثير الاشعة الى حد كبير. بالإضافة لذلك فإن استعمال بعض الادوية التي تخفض الحرارة في الجسم والفعالية الهضمية مثل مواد التخدير وغيرها يعتبر مفيدا. أضف لذلك توجد مركبات دوائية واقية تعرف باسم (CYSLEINE)

التي تحتوي على الحموض الامينية والتي هي أساسية لتشكيل بروتين الجسم الطبيعي. تكون المواد المشعة عادة أقل ضرراً إذا كانت غير قابلة للانحلال في جسم الانسان، حيث يتم التخلص منها عبر طرحها عن طريق البراز أو البول. كما ان الادوية التي تمثل مضادات حيوية لها تأثير ايجابي جيد عندما تتعرض خلايا الدم البيضاء لاضرار كبيرة من الاشعة.

هناك طرق عديدة للمعالجة من تأثير الامراض الاشعاعية. أولها التزام المريض الفراش والعناية الجيدة بالغذاء والدواء. وإذا حصل إسهال فيمكن التغلب عليها بأدوية مضادة، كما ثبت ان للبنسلين فوائد جمة. ان نقل دم صحيح الى المريض لايفيد في اصلاح ما تلف من مراكز تولد الدم، الا اذا كان المتبرع (هو أو هي) توأم للانسان المتضرر، لان مناعة المتضرر ترفض قبول الدم عدا التوأم.

اخيراً يمكن القول ان درهم وقاية خير من قنطار علاج. ان الاشعاعات ومنها النووية قد تكون ضارة وقد تكون مفيدة وهذا يعود الى عوامل عديدة. فكم من الارواح زهقت بسبب الاشعة وكم من الارواح انقذت بفضلها ايضاً. على الدول ان تحمي نفسها وشعوبها من جميع مخاطر الحروب ولاسيما اذا استخدمت فيها المواد المشعة. الخوف من ان الدول التي استخدمت الاسلحة النووية في الماضي تعود وتستخدمها مرة ثانية وثالثة في المستقبل، وكذلك استخدامها في اعمال ارهابية من قبل افراد أو جماعات أو حتى دول تمتلكها.

أمريكا تعترف بإجراء تجارب بيولوجية وكيميائية خطيرة:

كشفت وزارة الدفاع الامريكية ان الجيش الامريكي اجري خمسين تجربة سرية للغاية على عناصر بيولوجية وكيميائية في الستينات والسبعينات من القرن الماضي لاختبار مدى تفاعلها مع الظروف البيئية والجوية المختلفة. ونقلت أف ب عن (دي دودسون موريس) قوله ان التجارب كانت سرية للغاية لدرجة ان المسؤولين الكبار في البنتاغون لم يكونوا على علم بها وبحجمها.

جاء الاعلان عنها بعد تحقيقات اجراها البنتاغون استغرقت ثلاث سنوات فيما يسمى بمشروع ١١٢ ومشروع "بروجكت شادا" التي اجريت على البر والبحر في انحاء مختلفة من العالم، منها على سبيل المثال: جزر مارشال، بنما، كندا، وبريطانيا وشارك فيها نحو ٥٨٤٢ جندياً امريكياً وتهدف الى تحديد عدد الاشخاص الذين ربما تأثروا بهذه التجارب بهدف التعامل مع أية شكوى تتعلق بالصحة من المحتمل ان تقدم. ويعود المشروع الى عام ١٩٦١ عندما أمر وزير الدفاع حينها (روبت ماكنمارا) بإجراء سلسلة من التجارب لاختبار فعالية الاسلحة الكيميائية والبيولوجية وفي كانون الثاني من عام ١٩٦٣ أجرت البحرية الامريكية سلسلة من التجارب قبالة ساحل جزيرة او هو (هاواي) لاختبار ما اذا كان الدخان المحتوي على عناصر بيولوجية يمكن ان يخترق السفن الحربية الامريكية واستخدمت في التجربة بكتريا غير قاتلة. كما أجرى البنتاغون من كانون الاول عام ١٩٦٢ الى شباط عام ١٩٦٣ في الالاسكا اختبار مدى فاعلية عناصر غاز سارين وغاز الاعصاب (VX) في مناطق تنخفض فيها درجات الحرارة الى ما دون الصفر، واطلقت في تلك التجربة قذائف مدفعية وصاروخية محشوة بغاز الاعصاب (VX) بالقرب من نهر (غريسل). كما أجرى

البنتاغون تحارب في اوائل عام ١٩٦٣ في منطقة قناة بنما لاختبار فعالية اسلحة الدمار الشامل في الغابات. وأجريت تجربة في بريطانيا وكندا لتحديد مدى احتفاظه بعناصر تابون - سارين - سومان - وفي اكس المتلفة للاعصاب بقدراتها على الفتك في مناطق الغابات والسهول ايضا بسرية تامة خلال العامين ١٩٦٧ و ١٩٦٨ من طائرات او بواسطة قذائف على مناطق عسكرية في (بورتون دوان) في بريطانيا و (روالتسون) في كندا، كما أجريت عشرون تجربة برش نوع من البكتريا تدعى (أي كولي) التي تكون قاتلة أحيانا للبشر على جزر (هاواي) في الفترة من كانون الثاني الى اذار عام ١٩٦٨ اضافة الى تجارب اجراها البنتاغون عبر نشر البكتريا في المحيط لمعرفة فعالية الاسلحة البيولوجية، التي تطلقها الغواصات.

ذكر تقرير لوزارة الطاقة الامريكية ان خلال ٣٠ عاماً، قد تم القيام بتجارب سرية على الاشخاص، منها جرعات نووية امريكية على الحوامل وعينات على الاطفال. كذلك تم الكشف عن اجراء ٤٨ تجربة نووية جديدة على مئات الاشخاص في الخمسينات وحتى الثمانينات من القرن الماضي بدون علم الناس. و اجريت كذلك ٩٥ تجربة لقنابل نووية في الصحراء كانت طي الكتمان قبل اعداد هذا التقرير.

أهم المصادر:

- المجهود النووي ضرورة استخراجية د. محمد سعيد خورشيد
- طاقة الذرة ك. جلادكوف
- نتائج ابحاث استخدام اليورانيوم غير المستنفذ في افغانستان د. عاصف دراكوفيتش
- مستقبل الطاقة م. عبد اللطيف زرنه جي
- مذكرة المحاربين القدامى في أمريكا (الانترنت)
- التلوث البيئي في كوكب الارض م. عبد اللطيف زرنه جي
- مقالات مترجمة عن الانترنت د. عماد غوكة
- مقالات عن صحف ومن الانترنت مختلفة.

من ثقافة الخضوع الى ثقافة الحوار

مقابلة مع د. عامر حسن فياض
كلية العلوم السياسية جامعة بغداد - العراق

س:- طرح في الادبيات العربية العديد من التعريفات الخاصة بالثقافة والمتقف وحدود علاقتها بالسلطة السياسية، وكل يتناولها من الزاوية التي يستطيع من خلالها حل اشكالية تلك العلاقة، فماهي الثقافة وماهي طبيعة العلاقة بين المتقف والسلطة السياسية؟.

ج:- الثقافة، في مفهومها العام، هي بمثابة اجابات العقل الانساني حول اسئلة كالتالية، ماالله؟، ماالطبيعة؟ ما الانسان؟ ماالجتمع؟ ما التاريخ؟ الاجابات تشكل وتتبلور وتتكامل وربما تتضج على شكل افكار وقيم ومعتقدات وسلوكيات بمجمولها تسمى ثقافة فهي كما يسميها البعض بـ(الكل المعقد المتشابك من الانظمة التي تتضمن اساليب الحياة الانسانية المادية والروحية) على حد تعبير الاستاذ صلاح قنصوه في بحثه عن الصراع والحل في مشكلة الثقافة العربية. ويسميها المفكر العربي برهان غليون(الانماط المتميزة من الوعي والسلوك ومنظومات قيم وقواعد اجتماعية وعقلية مرتبطة بالحقيقة والبيئة والظروف العامة بتشكاتها).

ويسميها محمد عامر الجابري"المركب المتجانس من الذكريات والتطورات والقيم والرموز والمتغيرات والابداعات التي تحتفظ بها الجماعة البشرية بهويتها الحضارية في اطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والاخذ والعطاء).
مما تقدم فان الثقافة تتحدد بدلالة تاريخيتها اي بدلالة بعديها الزماني والمكاني.. كذلك تحدد بدلالة عناصرها، واهمها اربعة عناصر هي:-

* عناصر معرفية وتشمل المعارف والمعلومات التي جمعها اعضاء جماعة معينة.
* نسق المعتقدات ويشمل من الافكار والعلاقات * نسق القيم والمعايير ويشمل المفاهيم والتصورات التي تساعد الفرد على ترتيب الاشياء المادية وغير المادية في علاقاتها ببعضها البعض.

* عناصر رمزية وتشمل مختلف وسائل الاتصال واهمها اللغة. س:- بعد هذا التحديد المعرفي لمفهوم الثقافة وعناصرها نعود الان الى تحديد طبيعة العلاقة بين المتقف والسلطة السياسية.؟

ج:- ان تحديد تلك العلاقة توضح من خلال جزء متخصص من الثقافة ندعوه في الادبيات الفكرية السياسية بالثقافة السياسية. والثقافة السياسية هي جزء من الثقافة السائدة في مجتمع معين، غير انها بمجموع عناصرها تكون تركيبها منظما ينطوي على طبيعة سياسية.. وتلك الطبيعة تخص السلطة السياسية.

ومعنى الثقافة السياسية يتأكد على مستويين هما مستوى الفرد ومستوى النظام. فعندما نركز الاهتمام على الفرد فان بؤرة الثقافة السياسية تصبح في جوهرها، وينصب ذلك على كل الطرق المهمة التي يتوجه الفرد بها ذاتيا نحو العناصر الاساسية في نظامه السياسي والمؤسسات السياسية، اي كيف يشعر الفرد وكيف يفكر بالرموز والمؤسسات والقواعد التي تكون النظام

السياسي في مجتمعه وكيف يتعامل معها، وكيف يستجيب لها؟ وماهي الروابط بينه وبين المقومات السياسية لنظامه السياسي؟ وكيف تؤثر هذه الروابط على سلوكه السياسي؟.

ولكل هذه المعاني للثقافة السياسية تدل على نزوع سلوكي فردي او جماعي ازاء النظام السياسي في حين ان الثقافة السياسية تنطوي على مجموعة من القيم والمعتقدات والعواطف. وهي تتألف من عناصر ادراكية هي المعرفة وعناصر تقييمية هي القيم. والثقافة السياسية هي في وقت واحد مانعرفه وكل مانشعر به وكل مانعتقد به بشأن السياسة. غير ان هذا التحديد عام جدا بحيث ينطوي على توجه يتعلق بالسياسية، ولذلك فان هناك من يقصد الثقافة السياسية فقط على التوجهات نحو المؤسسات السياسية الوطنية، اي توجهات الناس ازاء السلطة القائمة والنظام السياسي القائم اعتمادا على قيم ومعتقدات شائعة تستمد قوتها من اطار ثقافي موروث او وافد، وهنا تكون الثقافة عبارة عن اختزال مفهومي للمشاعر والافكار والسلوكيات التي نلاحظها من خلال مراقبتنا للناس وهم يعيشون حياتهم اليومية المدنية. ومقابل ذلك فان النظام السياسي القائم والقوى السياسية المتصالحة معه وكذلك المتعارضة معه تعمل هي الاخرى على بلورة وعي بشكل قيم ومعتقدات ورموز تتسجم مع اتجاهاتها واهدافها السياسية. وهنا سنجد انفسنا امام ضروب متنوعة ومتعارضة في اكثر الاحيان من الثقافات السياسية.

س:- هذا يعني ان هناك انواعا للثقافة السياسية في المجتمع؟

ج:- نعم ... هناك ثلاثة انواع رئيسية من الثقافات السياسية في كل مجتمع معاصر. وتلك الثقافات يتم تقسيمها بناءا على تطورات المجتمعات، وهي الثقافة السياسية الموروثة وثقافة الخضوع والثقافة المساهمة.

فالثقافة السياسية الموروثة تتسجم مع بنى سياسية تقليدية غير ممرضة، بينما تتلائم الخضوع مع بنية سلطوية ممرضة، واخيرا تتلائم ثقافة المساهمة مع بنية سياسية تعددية وديمقراطية. والجدير بالذكر ان هذه الانواع الثلاثة من الثقافات لا توجد بصورة خالصة ومستقلة عن بعضها، بل هي متداخلة فيما بينها. ولكن قد تبدو واحدة فيها مهيمنة او قد تبدو بعضها متعايشة مع البعض الاخر حسب المستويات الثقافية والحضارية للسكان في المجتمع، وتلك المستويات لا تنفصل عن مستويات التطور الذي يعيشه المجتمع.

س:- في العراق المعاصر هل يشير المشهد الثقافي الى وجود مثل هذه الانواع من الثقافات السياسية؟ واذا كان الجواب نعم، فماهي حدود العلاقة بين الثقافة السياسية وانواعها انفة الذكر وبين النظام السياسي السابق قبل سقوطه؟

ج:- لقد عملت السلطة الحاكمة في العراق ولاكثر من ثلاثة عقود على اغراق الشرائح الاجتماعية بطوفان من الغرائز الفطرية وتوظيفها واضفاء هالات القداسة عليها. فالوطن تحول فعلا الى مفهوم مجرد تماما كذلك الامة والنظام تحول الى وثن يستلبي الانسان العراقي اي قدرة على مناقشة اوضاعه وجتى مصالحة. فأصبحت المطالبات السياسية من المحرمات على الجموع الشعبية وقواها السياسية. واصبح البناء العام للمجتمع العراقي يقوم على افتراض واحد متعسف يمثل انتكاسة للافكار التعددية لتصبح السلطة الحاكمة هي وحدها مالكة حق تفويض نفسها للتعبير عن الكل، وليصبح فكرها هو ايدولوجية الجميع في واحد وفي حدود ثقافة الخضوع المهيمنة على بقية انواع الثقافات السياسية في العراق اجبر المواطن العراقي على وحدانية السلوك والتفكير، وبالنتيجة كانت العلاقة بين الحاكم والمحكوم علاقة تنزع الى

خلق جمهور يكرر ما نقوله السلطة الحاكمة.. جمهور يجهل علاقة كل مسألة بالفكر . اما الهيمنة والخضوع على صعيد الفكر والثقافة فسوف تتمثل بالمتقف الممتثل. وليقوم العمل المسموح لهذا المتقف على مبدأين هما (مبدأ عبادة الفرد المستبد ومبدأ عبادة الثابت المألوف). فالسلطة وفق هذا الفكرة وتلك الثقافة هي كمال مطلق ونقدها خروج وزندقة، كما يجب ان يتضمن هذا الفكر المتمثل ايضا ضرورة التردد والتكرار الالين والاعادة البيغائية لما يقوله السلطان الحاكم دون نقد ودون تقويم ودون حذف ولاضافة. اما منطق التكرار في ثقافة الخضوع هذه فهو منطق الصمت والسكوت والقبول بواقع الحال وفي ظل ثقافة الخضوع تلك ظلت السلطة هي الناطق والمواطن هو الساكت، وبذلك انتفى كل جديد ومبتكر وابداعي، واصبحت ثقافة الخضوع منحطة لاتعرف السؤال ولا الجواب، لانها ثقافة (نعم) فقط.

كما انها ثقافة مكرسة لهزيمة الانسان ومبادرته، ولهزيمة الفكر والغاء حركته، ولهزيمة الوطن وجره الى اكثر اشكال الجهل والظلامية.

وعليه فان ثقافة الخضوع التي هيمنت على الثقافات السياسية الاخرى في ظل النظام السياسي المنهار لم تعسف الوطن والمواطن انها ساهمت في اقضاء ثقافة المساهمة.

س:- اذا كان النظام السابق قد اقصى ثقافة المساهمة لصالح ثقافة الخضوع فما هي متطلبات اشاعة ثقافة المساهمة في عراق اليوم؟.

ج:- اذا كان النظام السابق قد قمع ثقافة المساهمة لصالح ثقافة الخضوع فانه لم يتمكن من الغاء وجود ثقافة المساهمة المتنوعة في الداخل، فبالداخل مع هيمنة ثقافة الخضوع كنا وماولنا نتلمس ملامح ثقافة المساهمة في عراق الامس واليوم. وان من اساسيات ما تتطلع اليه هذه الثقافة الوليدة في عراق اليوم هو ان يكون المواطن العراقي على مستوى عال من الوعي في الامور السياسية ويقوم بدور فاعل فيها، ومن ثم يؤثر في مجريات الحياة السياسية بطرق مختلفة كالمساهمة في الانتخابات والمظاهرات وتقديم الاحتجاجات فضلا عن ممارسة نشاط سياسي من خلال عضوية حزب سياسي او عضوية مؤسسات المجتمع المدني الاخرى.

ولا بد من توافر ركيزتان لانضاج ثقافة المساهمة تلك، وهما ركيزة حقوق المواطنة وركيزة المشاركة المجتمعية في صنع القرار السياسي. وفي الحالتين لا بد من احترام حقوق الانسان. وفي ظل العمل على نشر ثقافة المساهمة يفترض ان يكون لجميع المواطنين على السواء حقوق المواطنة المتساوية وفي ذلك فان ثقافة المساهمة ستكون الثقافة المدافعة عن المواطن والقيم الانسانية والوطنية معا، وستكون ايضا بمثابة الراية المبشرة بالعقلانية واحترام العقل. وذلك العقل سيدافع بدوره عن الاستقلال الوطني والتحرر الاجتماعي ويتصدى لكل اشكل الثقافة الكولونيالية والغيبية. وذلك العقل الذي يمتلك ثقافة لاتهرب الى تاريخ توارى ولا الى مستقبل لم يأت.

اجرى الحوار :- سعدون هليل المنشد
استاذ الفكر السياسي المعاصر كلية العلوم السياسية
جامعة بغداد

ندوة

الثقافة العراقية والمتغيرات الاجتماعية

أقام ملتقى الجماهير الإبداعي جلسة حوارية بعنوان (الثقافة والمتغيرات الاجتماعية) حضرها الأستاذ مفيد الجزائري والأستاذ رائد فهمي رئيس تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)، وجمهرة من الأدباء والمتقنين.

قدم الجلسة الناقد مؤيد البصام، فرحب بالجميع ثم ابتدأ بورقة سماها (وقائع الواقع في إثبات المطلوب) وتحدث عن محاولة تأسيس جماعة أدبية عام ١٩٩٨ باسم (جماعة العشرين)، وبعد جلسات متعددة، أخذت ما يقارب الستة أشهر، لم تستطع الجماعة أن تظهر بسبب الخوف من أن تعتبرها السلطة ذات اتجاهات مناهضة، وعلى الرغم من كل محاولات التأكيد بأن ما تقوم به شأن ثقافي قد يتحول بمرور الزمن إلى عملية اقتصادية من أجل إيجاد فرص عمل للأدباء وكذلك نشر نتاجاتهم، ظل بعض أفراد المجموعة على خشيتهم من أن نتهم بأننا نقوم بعمل تنظيم مضاد. وهكذا انتهى المشروع. بعد سنة طرح مشروع إقامة جلسات وندوات بعيداً عن اتحاد الأدباء، الذي أصبحت ندواته حكرًا على المناسبات واتخذت من الشعر وسيلة للمديح، لهذا بدأت القصائد وأصحاب القصائد تنكر وجوشهم وشعرهم، حتى باتت الكلمات والجمل تتكرر في قصائدهم، وفقدت ارتباطها بالإحساس الجمالي للغة. فكان التفكير منصباً على إيجاد منفذ يفعل الحركة الثقافية، فتدبرنا الأمر مع الإخوة محمد سلطان وداود سالم، واتفقنا أن نقيم جلساتنا في المقهى، وهو مكان لا يثير حفيظة أحد، فبدلاً من أن نجلس أربعة، ستكون الجلسة من ثمانية أو عشرة من رواد المقهى الذي يتردد عليه الأدباء والصحفيون. وبعد أن وزعنا الكتاب الذي نريد مناقشته اقمنا جلسة عن نص (متون الأهرام) لجمال الغيطاني. ثم بدأت الجلسات الأسبوعية كل يوم ثلاثاء تأخذ أبعادها بالحضور وفي سير المناقشات والحوارات التي كانت تدور. فاستقطبت العديد من الأدباء والمتقنين. وبالمقابل، كان الكثيرون يغادرون المقهى عندما تبدأ الجلسة صرحوا لنا بأنهم يخشون السلطات، فلم نلومهم، فهذا حقهم. ولكن المسألة أخذت أبعاداً أخرى حينما توقفت في جلسات اللجنة التنفيذية لاتحاد الأدباء وأصر رئيسها على نقول (إن هؤلاء يعرفون ما يفعلون، فالأحزاب والثورات تنبثق من المقاهي) وهكذا أبلغنا من جهة أمنية بوقف الجلسات..

لم ننشئ، بل حاولنا أن نتخذ من الأماكن ذات الصفة المعنوية مكاناً لإقامة جلساتنا، وكلمنا الأستاذ قاسم السبتي صاحب قاعة حوار فرحب الرجل بذلك، ولكنه قال : عندما

تهتدا الأمور أهلاً وسهلاً. وجاءت الحرب لتجسم أمر النظام، فعاودنا إقامة الجلسات بعد عشرين يوماً على سقوطه.

أهمية ملتقى الجماهير إنه يلغي الشكليات والرسميات ويشكل حلقة حوارية فيها شيء من الحميمية، إضافة إلى أنه يتيح الفرصة للتعبير عن الرأي بدون حدود للوقت مع عدم الخروج عن الموضوع. ما يناقش من أعمال هو ضمن اقتراحات المحاورين، وليس مفروضاً عليهم، فيقترح كل مرة مادة للحوار بعد أسبوعين حتى يتاح الوقت للقراءة والإطلاع. وهذا شكل تجديداً وروحياً متحركة ومتفاعلة. بعد سقوط النظام الشمولي، بدأت أعداد المثقفين والادباء بالتزايد، وأخذت المناقشات طابعاً صريحاً وواضحاً، ليس فيه ترميز وإخفاء بعد أن كان الواقع يفرض الضغط والرأي الواحد والشمولي. مع ذلك كانت تتحرك مجموعة من الناس لتغيير هذا الواقع بفتح منفذ يطلون به على عالم المعرفة. أن ملتقى الجماهير لا يدفع مكافأة، والجالس هو الذي يدفع سعر كأس الشاي، ولكنهم كانوا يأتون مندفعين من أجل تغيير واقع ثقافي. الحالة الثانية نعيشها بعد سقوط النظام، ظهر واقع جديد أزاح حالات الخوف والتوجس، ترك بصماته على جلسات الملتقى في أعداد القادمين أو في الحوارات والنقاشات التي انفتحت لتتحدث بحرية وطلاقة. وهكذا نجد أن للتغيرات الاجتماعية، آثارها الكبيرة والواسعة على الفكر والثقافة واتجاهاته ومساراته. وهذا ما نجده الآن بعدد الأحزاب والجمعيات والمنديات التي أقيمت والتي تقام، وإن كان هناك بعض المبالغة، ولكنه سيصفي بفائز العلاقات الاجتماعية وتغيراتها، ليفرض واقعاً مغايراً لواقع النظرة الأحادية للحياة، وشمولية الطرح، لتسود تعددية الآراء وروح البناء من خلال الحوار.



نسق الثقافة والمتغير الثقافي

محاولة في نقد المفارقة

محمد خضير سلطان(*)

مدخل

تسعى هذه الدراسة الى تحليل "المكوّن الثقافي" في الفضاء الاجتماعي على ضوء أنساقه الثابتة فضلاً عن أنماطه الاجتماعية. إن المكوّن الثقافي من الواضح في المجتمعات المتماسكة بحيث لا يحتاج إلى تحليل وفق متغيرات، كما أن النسق الثقافي لا يمكن انتزاعه وفصله عن المكوّن الإيديولوجي والاقتصادي للمجتمع الزراعي والبدوي والرعي إلا بالقدر الذي يؤكد تكامله الوثيق مع المكونات الأخرى. إن هذه الملاحظات تعني الأنماط التحولية لدخول المجتمع المدني وتأثير النسق الثقافي للعالم (الخارجي) وتجاوز التخلخل بين نظامين عبر جميع الأبعاد ومجتمعنا العراقي يعد كذلك فهو المجتمع (المشروع) نحو التجاوز والتكامل.

الأنساق المكوّنة

لا بد من توضيح فكرة الأنساق المكوّنة للنظام الاجتماعي وأنماطه التاريخية على ضوء تحليل النسق الثقافي. ولو كان البحث يعد النسق الاقتصادي مدخلاً وإطاراً لاختلاف الأمر وصار شأنه اقتصادياً صرفاً.

إن النسق الثقافي أحد الأنساق الثلاثة المكوّنة الثابتة التي يشتمل عليها النظام الاجتماعي. و إن النسقين الآخرين هما الإيديولوجي (الفكر السلطوي العملي) والآخر النسق الاقتصادي. والنسق الثقافي لا بد أن ينطوي على تشكّله التداولي ومحموله الإنتاجي من سياق النسقين الآخرين (الإيديولوجي والاقتصادي) مثلما ينطوي أي نسق من الأنساق الثلاثة على اغتقائه واكتفائه الذاتي وطاقته الحيوية في الزمان والمكان والحدث وتوازنه مع الأنساق المجاورة.

إن الأنساق تتحرك في خط مشروع واحد متماسكة مع الحدث منذ أول إيماءة واكتشاف للكلمات والأشياء والعمل، الحركة والاسم والمسمى وأية نظرة إلى موقعك في المكان.. أي مكان، سوف يتحدد جمع من الإشارات والصفات التي تكشف عن اللغة والطرز والمستوى الاقتصادي بما تشتمل عليه الأنساق الثلاثة المكوّنة لهذا الموقع من المكان.

وعن هذا النحو فإن فحص وتحليل أي نسق هو كشف أسرار وطبيعة الأنساق المجاورة وعلاقاتها في البنية الموحدة مثل عمود الخيمة وعمود الشعر العربي وإيقاع الامتداد الصحراوي... يجعل من الحياة مختزلة في قصيدة وتغدو القصيدة جزءاً من الحياة وتجمع وحدة الأنساق على خط مشروع واحد وبالدقة البالغة التي لا يتخلف أو يتقدم فيها نسق على آخر.

إن الزخم الإيقاعي متساو ومتوازن في كل الأبعاد مثل الحركات اللغوية في شكل الكلمة العربية وشكل الأوابد في مرابط الدواب.

إن أي نسق يحمل وجهين آخرين على محيطه المركزي وتنتقل الوجوه في مواقع منتظمة

بحسب تمرکز الأنساق الثلاثة [فالمستوى الاقتصادي يعبر عنه بنسق ثقافي (كاللغة والإعلان، الصورة، البوستر، الوثيقة) ويمثل مستوى من الرؤية الإيديولوجية السائدة في نمط تاريخي مثلما النسق الإيديولوجي يحتاج إلى الكلف الاقتصادية والتعبير الثقافي والأمر متماثل مع النمط الثقافي في إطار إيصاله الاقتصادي والإيديولوجي.

كسر النظام البنيوي للنسق

يستثمر النسق الثقافي أقصى طاقته الوظيفية والدلالية على نحو متنافذ ومشرط ومحايث في اتصاله بطاقة وحيوية الأنساق الأخرى كما ليس بوسعها أن يخرق نظامه البنيوي في المجتمع المتماسك، مثال على ذلك فإن النسق الاقتصادي في الفضاء الرعوي لا يستطيع أن يخرق أسلوبيته في العمل والإنتاج تجاوراً وتوازياً مع تأملاته الكونية في الوصف والرؤية وتتأفذهما.. من المستحيل انتزاع النسق من سياق المكونات في المجتمع المتماسك بغض النظر عن تخلفه أو تقدمه لأن النسق لا يفوق نظامه البنيوي.

وتبعاً لذلك فإن أي اختلال في منظومة الأنساق هو نوع من التعسف البنيوي على الشكل تمارسه السلطة القمعية في توجيه غير طبيعي للأنساق في الفضاء الاجتماعي ولن يحدث هذا الاختلال إلا إذا تم خرق النمط الاجتماعي من خلال النمو المشوه والتحول المباشر في ظروف صادمة تختلط فيها عوامل الانكفاء والنهوض وتتخذ شكلاً جديداً كما حدث للنظام العربي ودوره في الاندماجية الحديثة بالعالم المعاصر إذ عمدت سلطة النظام العربي إلى تغليب النسق الإيديولوجي والهيمنة على الأنساق الأخرى ليس بسبب عدم استيعاب البعد التكويني والتحويلي للمجتمع العربي ولكن من أجل التثبيت بسدة الحكم وارتكاس الأشكال القديمة والحديثة، رفع رايات العشائر على سارية العالم المعاصر.

المجتمع المشروع

لا ريب أن المجتمع العربي والعراقي على وجه التحديد، يعد نمطاً تحولياً وبالتالي متخلخلاً في نظام مكوناته الثقافية ومن جانب آخر فهو المجتمع (المشروع) من أجل تأصيل المكون الثقافي بين الراية والسارية (العالم والمجتمع)، بين النسق الثقافي المحلي والنسق الثقافي العالمي وتجاوز هذا التخلخل في كافة أبعاده.

كان النسق الثقافي السلطوي قد استفاد كثيراً من تخلخل إيقاع المجتمع مع العالم فعمل على دمج هذه الخلطة قصدياً في جهازه التعبيري والتقني ويكشف عنها في السياق اللساني والوظيفي المحكوم بالنسق الموجّه في حالة من تبرير القمع وكبح الطاقات الاقتصادية والفكرية وترسيخ الذات على نحو زائف فضلاً عن عتمة المكونات الأخرى وضمورها الذي يقابله تضليل معلوماتي وعلى مستويات متعددة... كانت شركات كبيرة ترسل منتجاتها إلى العراق في التسعينيات من القرن الماضي ولا أحد يعرف شيئاً عن تلك الشركات سوى مواقعها تحت البحار بالقرب من الموانئ الأطلسية أو في عنابر السفن خارج التفتيش الاقتصادي، فالناس لا تعرف شيئاً عن تكلف السلع والبضائع بالقدر اللازم حتى يغدو الأمر تدليساً ثقافياً يقع في شرك التلبيس الذي يوجه الجريمة الاقتصادية. يشير عالم الاجتماع العراقي عصام الخفاجي إلى انهيار الطبقات قبل أن تستكمل أدوارها

العليا في مجتمع العراق التسعيني من خلال استحواذ العائلية الدكتاتورية ذات الجذر العريق في تجارة التهريب، على النظام الاقتصادي برمته فصارت ترث الدولة والقطاع الخاص على خلاف الأنظمة الدولية المعمول بها وجعلت كل الطاقات التجارية والاقتصادية والمكاتبية تعمل على خدمة العائلية مثل حاشية وخدم ووسطاء وعتالين وحرس أموال ضخمة وكل الملايين من الدنانير المطبوعة هي مصروف جيوب ضخمة تابعة للقطاع الخاص والدولة ولكن لا يستثمرها أحد ولا تتأسس عليها قفزة اجتماعية إلا في حدود خصخصة الطمر الصحي مما يدفع النسق الثقافي في مجتمعنا إلى تبني فرضية جديدة إزاء هذا المتغير وتحرك مفهوم العائلة (الدولة + القطاع الخاص) وسقوط الطبقات قبل أن تستكمل أدوارها العليا.

ولا يخفى على الجميع بأن السلطة المهيمنة في المجتمع العراقي قد حافظت على القدر المناسب بين أدوارها التسلطية والقمعية وبين النظام المؤسساتي الذي تعمل عليه قدام المنظمات والهيئات الدولية بل إن تلك المنظمات والهيئات تعمل في إطار من حيرة الفهم والعجز عن اتخاذ القرار حتى غدت مثل بياض في رقعة النظام العراقي إزاء مسؤوليتها في الاقتصاد وحقوق الإنسان وإطارها السياسي عاجز عن إثبات الحل والخروج من المأزق في نظامها الداخلي.

نقد المتغير الثقافي

يبدو أن المتغير الثقافي يتصل بنوع الخرق في المجتمع التحولي وردة الفعل في التواصل مع العالم لدى الإدارات والسلطات القائمة وبهذا القدر من ردود الفعل تتبني العلاقة مع الفضاء الاجتماعي وأنساقه الثابتة والمتحولة.

إن نقد النسق الثقافي سوف يلقي رؤية على تحولاته في المتغير داخل النمط الاجتماعي وداخل وجوهه الأخرى الاقتصادية والإيديولوجية.. إنه محاولة في كشف الحجب وتراكم العتمة عن أبعاد كثيرة مغيبة ومتداخلة داخل النسق نفسه وفي حركته عبر السياق الوظيفي والدلالي، كما أن النقد يعد محاولة في تأصيل المكوّن الثقافي في النظام الاجتماعي وتأثير آثاره الخارجية المؤثرة وضبط عملية التوازن بين الرشد الثقافي والاقتصادي والإيديولوجي وبين فعالية الأرضية والتبؤ.. إن كل القرارات منذ نشوء النظام العربي تؤكد حالة التوازن السلبي بين المكوّن الثقافي الداخلي لنظام المجتمع العربي وبين النسق الثقافي العالمي الذي يحمل مكوّنه الأرضي والبيئي والإنساني ثم يرقى إلى أن يكون صالِحاً لأية بيئة إنسانية ولكن باشتراط جديد عبر تكاملية أنساقه في البيئة المنقول إليها، وعلى سبيل المثال فإن الذاكرة الرافدينية العراقية، ليس من السهل استرجاعها على ضوء الخطى الاستشرافية، فهي في أجلى صورها تمثل النسق الثقافي الغربي الذي يتصل بالمركزة الغربية للثقافة ويشكل عمقاً للذاكرة الإنسانية التي كانت قائمة على الذاكرة اليونانية أي أن الذاكرة الإنسانية الجديدة المكتشفة تحل موقفاً جديداً عبر الموقع اليوناني فيما نرى بأن بضاعتنا ردت إلينا ونغفل الأنساق الأخرى الحية ونكتفي بإطلاق الأسماء الرافدينية القديمة على مدننا الناشئة في القرون الوسيطة دون أن ندرك بأننا شطبنا على جزء كبير من تاريخ المدن التي كانت تحمل أسماء قديمة منسجمة مع البناء الاجتماعي والتاريخي والحديث كما في العهد الملكي العراقي إلا أن النسق الإيديولوجي (السلطوي) لقراءة الاستشراق، قام على

الانطلاق منه نحو مسميات الخارطة قبل دراستها على نحو اجتماعي دقيق ومتكامل الأنساق إذ جعل النظام الديكتاتوري في السبعينيات من القرن الماضي يعمد إلى تحويل هذه المدن إلى وحدات إدارية أوسع ويطلق عليها الأسماء السومرية والآشورية والبابلية، وتعد هذه الأسماء أكثر انسجاماً مع النسق السلطوي في إدارة النظام من السياق الاجتماعي والتاريخي كما لو أنه أراد أن يسقط رهانه على وحدة الأرض العربية ويسعى من خلال الاستفادة من درس الاستشراق إلى تبعية الأقوام القديمة التي سكنت وادي الرافدين، وتبعاً لذلك أو غيره فإن الذاكرة الراهبية تحتاج منا إلى اكتشاف جديد في الثقافة المحلية الحية التي تتواصل مع الواقع اليومي لا المتحفي أو الأكاديمي وهو اتجاه متحقق ومتصاعد في أعمال بعض الفنانين والأدباء والباحثين وسوف تسهم إلى جانب ذلك في تأصيل المكون الثقافي الجديد.

المفارقة المعرفية

نخلص إلى أن المتغير الثقافي في المجتمع التحولي هو تقاطع نسقين من الثقافية، الأول: نسق الثقافة المعاصرة (الخارجي) والثاني: نسق الاندماجية مع العالم المعاصر (الداخلي) وكانت السلطات في المجتمع العربي القمعية والأقل قمعا قد عملت على اتجاهين متماثلين مهما اختلفا.. الأول يفتح الباب على مصراعيه لاستقبال الأجيال التكنولوجية والخدمية، لتتزلها الشاحنات على رمال الشرق تبعا لتوفر الأموال الوطنية اللازمة؛ والثاني يجعل الباب مواربا أو مغلقا ويسعى إلى التكيف مع المناسب من أفكار وتقنية وافدة. ويكون تماثل هذين الاتجاهين في عدم استيعاب وتمثل البعد التكويني والتحويلي للنسق الخارجي مما جعل المكون الثقافي يقع بيد النسق الخارجي (الطرف المصدّر). ومثال على ذلك فإن برامج الدول المصدرة ذاتها تعمل من خلال الاتفاقيات المبرمة على بناء الأسس والإجراءات التي تؤمن لحاق الدول المتخلفة (المستوردة) بالعالم التكنولوجي وتتمية المراحل التحويلية الكبرى في خطط ذات مديات قصيرة وطويلة ولكنها تؤمن النهب الاقتصادي والتنافس التجاري بواسطة تحويل هذه المجتمعات إلى أسواق استهلاكية مثلما تؤمن الطريق لغطاء السلطات على مختلف أنماطها في المجتمع.

إن ثبوت النسق الثقافي مع منظومته الاجتماعية يكشف باستمرار عن لعبة السلطة، لأن بناء السلطة القمعية قائم على طمس حيوية العقد الاجتماعي، ومع ذلك فإن تحليل النسق مع متغيره السلطوي، سوف يدخل (المكون) الاجتماعي في مفارقة معرفية تحدد اتجاه السلطة المهيمن مثلما تحدد النسق الثقافي (الكامن).

في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، حصل المجتمع العراقي على مكتسب مدني عمل على نشوء الملكية الفردية من خلال توزيع سندات الأرض والطابو من قبل العثمانيين فساعد على تكوين طبقة الملاكين العقاريين والتجار، استكملت نضجها النسبي لتكون مهياة للاحتلال الإنكليزي بعد دفاعها الفاشل عن مصالحها العثمانية السابقة واستثمرت هذه الطبقة علاقاتها شبه الإقطاعية والبورجوازية لكي تستمر في السياق الثقافي حتى الوقت الحاضر.

تكمن المفارقة هنا في تاريخ وذاكرة الطبقة العراقية الثقافية أكثر من حضورها الاقتصادي والإيديولوجي وهو تراكم ناجم عن المجتمع المشروع الذي يسعى إلى تأصيل (المكون

الثقافي) في بذرة الطبقة وليس في أسسها.

ثمّة مفارقة معرفية أخرى تجعل من النسق الثقافي الكامن خارج السلطات متحرّكا في المكونات الثقافية مثل ثمّة السفر واكتساب الثقافة والعودة. رحلة الشاعر الزهاوي لا تمثل مفارقة لأن بوابة النسق الخارجي للثقافة العراقية في نشأتها كانت مشرعة من اسطنبول باتجاه بغداد واسترجعت من خلالها بغداد نهضتها الخطيبة والزخرقية حينذاك، إلا أن رحلة حسين الرحال إلى الهند في العشرينيات من القرن الماضي وعودته محملاً بالأفكار الماركسية بعد لقائه بسكرتير الحزب الشيوعي الهندي هي بوابة جديدة للخروج من النسق العثماني إذ كانت الثقافة العراقية تُرقد من هناك، بل إن الإلماحات البلشفية التي دعا إليها الرصافي كانت في سياق الخطاب الثقافي العثماني، وكانت أفكار الرحال وزميله محمود أحمد السيد الماركسية قد أخذت منبثها في الأوساط الفكرية قبل الإطار التنظيمي الذي أدخلت فيه العراق عن طريق الإرساليات الأممية، ولعل ذلك يقود إلى تأمل عميق في الدوافع التاريخية وراء انطلاق هذه الأفكار من معقلها الرأسمالي في إنكلترا وتأسيس شركة الهند الشرقية الاستعمارية. ويذكرنا بتعليق ماركس الشهير على ذلك بأن النول الإنكليزي يعمل على نسيج الشرق. وقد يصح القول بأن ماركسية حسين الرحال هي نسيج شرقي على نول رأسمالي.

مفارقة أخيرة.. تؤكد أن المجتمع العراقي (المشروع) يصل الآن بعد تحرير العراق من ربقة الديكتاتورية إلى خط الشروع التعددي بمختلف قواه وتياراته الإسلامية والوطنية، العريقة والمتشكلة حديثاً.. أن الشارع العراقي الآن مجموعة كبيرة من التظاهرات ورايات متعددة ولكن لو نظر وراء هذا النسق المتجاوز التعددي الذي ينطبق تماماً مع النظام الاجتماعي الآن، لننظر إلى العقود الماضية من الزمن نرى الأحزاب والتيارات والقوى ليست بمثل هذا الظهور الجماعي الحق، فكانت متعاقبة وجيلية، تظهر في عقد وتضمحل في آخر، فالشارع السني الذي ظهرت فيه القوى الجماهيرية الكاسحة للحزب الشيوعي العراقي لم تكافئه قوى أخرى والشارع في نهاية السبعينيات الذي ظهرت فيه القوى الإسلامية وفيما بعد في بداية التسعينيات في جنوب العراق يشكل ظاهريتها الزمنية والسياسية.

نرى الآن أن النسق الثقافي يتحول من الكهف إلى السطح الاجتماعي مما يدفع أيضاً إلى تبني فرضية ثقافية في العمل السياسي أمام اصطفاك جميع القوى على خط شروع واحد ولا يمكن إثبات هذه الفرضية إلا من خلال دراسة النسق الثقافي الذي يقود إلى المتغيرات ونقاطها على خارطة الزمنية والاجتماعية ومن ثم تأمل المكوّن الثقافي على الأرض والبيئة.

فالمجتمع العراقي لا أحد سوى هو.

والقوى السياسية كلها هي وحدته على طريقه الجديد.

(*) محمد خضير سلطان: قاص وناقد (١٩٥٨)، أصدر مجموعته القصصية الأولى (ما يشبه الأثر) عام ١٩٨٩، له مجموعة قصصية جاهزة للطبع، له مخطوط رواية تنتظر الطبع، كتب العديد من المقالات والبحوث في الشأن الثقافي.

تحولات حول الحرية والثقافة

أحمد سعداوي

لا نستطيع الحديث عن الحرية إلا باعتبارها مخلوقاً ثقافياً، خضع للتعديلات والتكييفات على مر التجربة الإنسانية، هذا المخلوق الثقافي قد لا يحصل في بعض الأحيان إلى معطيات الشعور والتجربة الذاتية الخاصة، وقد يتقنع أحياناً بأغراض وغايات هي في الضد من جوهره.

إن الحرية التي يلهج بها على سبيل المثال شاعران كلوي أراغون ونزار قباني مختلفة في الدلالة.. فإذا كانت تعني لدى أراغون التحرر الوطني من الاحتلال.. أو التحرر الأممي العالمي.. فإنها تعني لدى قباني التحرر من قيود التخلف الشرقية أو التحرر من سلطة الاستبداد الديكتاتوري.

إن الطاغية يمسك بحريته، لهذا فهو طاغية، والعبد يحلم بها، لذا هو عبد. أما الحرية المطلقة فشيء لا تتمتع به سوى الآلهة، فهي حرة مثلاً حتى في أن لا تغدو آلهة. لكن الإنسان يظل مشغول الفكر بممارسة الحرية بقدر انحسارها عنه. وهذا ما يولد ما أسميه عادة ميتافيزيقيا الحرية. إن الحرية هي المخلوق الثقافي للعبد والأسير، وهي براءة اختراعه تاريخياً. إنها ميتولوجيته وذلك الجزء من ذاته الذي يسميه الروح، والذي ينشد الانعتاق من الجسد، مادام هذا الأخير هو وثيقة سجنه وأرشيف اضطهاده وعبوديته.

من هذا الباب وحده، يمكن اعتبار الموت هو الانعتاق الأخير، والتجسد الكامل للحرية. ولكن الحرية من خلال الموت هنا ستغدو لمن؟ للإنسان أم لوهمه؟! إن الحرية كموت (انتحار) والموت كحرية (استشهاد) قراءتان لنفاد الحرية من الحياة. أو صورتان متعارضتان شكلياً ومتطابقتان مضمونياً لهيمنة ميتافيزيقيا الحرية.

ولكن، هل لنا أمل بامساك دلالة حقيقية وكاملة للحرية، في إطار كونها هما ثقافيا وتجربة عملية؟ أم أننا محكومون — كما تثبت العلوم الاجتماعية المعاصرة — بالارتحال في صيغها الميتولوجية المتحولة؟

ليست هناك حرية مجردة. دائماً الحرية باتجاه شيء. أو من أجل شيء أو هروباً من شيء. وبذلك فقط تخلق نسقها الخاص وتأخذ قيمتها من خلاله.

وفي المجال الثقافي، يكتسب النص الإبداعي تاريخياً أسبقية في العلاقة مع الحرية، أو تعبيره عنها، حيث دوام العقل الإيديولوجي عبر التاريخ على تقصي تلك المساحات النافرة والمنفلتة في النص الإبداعي عن جهازه التفسيري، وغير القابلة للامتصاص إيديولوجياً، من أجل إفنانها أو تجريبيها. أو وهما وخيالات مرضية أو تحذير أو غيبوبة. ولا واقعية وكذبا وتخريبا.. حسب لائحة اتهام العقل الإيديولوجي والاستبدادي. وإن عدم افتراض الوعي الإبداعي لعالم مكتمل وجاهز أو حقيقة ناجزة، سابقة على النص الإبداعي.. هو ما يكثف الحرية كسلوك تعبيري داخل الثقافة. أو الوعي الإبداعي ينتج معرفة عن العالم أو يتمثلها كميتولوجيا، ولا يتعامل معها على أنها حقيقة نهائية وقاطعة أو يتجاهل الطابع الميتولوجي لممارسته المعرفية كما يفع العقل الثبوتي والإيديولوجي.. وهذا مصدر اتهام العقل الإيديولوجي والثبوتي للإبداع بكونه وهماً.. وهذا نفسه مصدر تجسد الحرية لدى الوعي الإبداعي أيضاً.

إن النص الإبداعي بهذا الوصف غداً روحاً ترجو الانعتاق لدى الكائن/العبد والمأسور في عالم تحكمه الثبوتيات والقدريات ووصفيات العالم والوجود الجاهزة والمتعارضة. غداً حرية

في عالم يكتسب معناه أصلاً من عبودية الكائن. إن الاحتمالية والتعدد الدلالي في النص الإبداعي تربي الكائن على الحرية، وتمنحه فضاء تصورياً لإمكانياته اللامحدودة ككائن. وأحسب أن التجربة البشرية قد تشعبت بذلك بشكل كبير حتى آل الأمر في النهاية إلى تمثل المعارف الاجتماعية لهذه القيم، فتقرر مثلاً تلك الإشارة التي احتواها الفن عبر تاريخه.. ألا وهي الطبيعة الميثولوجية للمعرفة، ومحتواها التساؤلي غير البتوتي، والفهم العميق لتلك التكررات والتلمات التي هي جزء بنيوي أساسي في المعرفة، والثقافة البشرية تفصح عن حرية المعرفة إزاء لعنة الاكتمال. وعن الحرية التي تتجسد بهذا الصبغ الأزلي والدائم نحو الاكتمال.

الإبداع.. نقطة ضوء ثقافية

داود سالم (*)

أو لا لابد أن نبدأ من خصوصية الواقع الراهن الذي نعيش فيه، من إشكالاته ومن أسئلته الملحة التي يفرزها، ليكون الوعي بحركة الواقع الحي هو البدء والمضي في هذا الاتجاه. ولكون الواقع الحي متصل بالماضي، وأحياناً الماضي مستقر فيه، لذا فإننا لا يمكن أن نتعامل مع الحاضر بكفاءة في الوقت الذي نرى فيه التراث على أنه "كرايب قديمة في غرفة مهجورة" (***)، إذن لابد من قراءة التراث قراءة جديدة وإعادة صياغة سؤاله بما يدفع إلى الأمام وليس إلى الخلف، بما يدفع إلى الابتكار والتمرد والإبداع والفعل الخلاق، وهذا يعني أننا نعود إلى التراث باستمرار بوصفه فعلاً إنسانياً لا دينياً، فالكتب السماوية (التوراة، الإنجيل، القرآن) كتب إلهية منزلة وليست من صنع البشر، وهي خارج التراث وتعمل ضمن موجهات التراث باعتبارها مقدسة، لذا فإن التراث من صنع أسلافنا، وهو ليس مقدساً. وهذا يعطي حرية الاختيار، وإعادة النظر فيه، وإعادة إنشائه.. والواقع الراهن ليس جزءاً منفصلاً عن العالم أو مستقلاً استقلالاً تاماً عنه.

وإن حركته هي في إطار حركة عالم ممتد، وعليه فإن التطورات التكنولوجية والمتغيرات الكبيرة لابد أن تشمل الجزء ولا بد من التناغم مع تلك المتغيرات، فالثورة التكنولوجية وثورة المعلومات جعلت العالم يقع ضمن إطار ما يسمى بالقرية الصغيرة، وقد اتضح حقاً أن العالم كله والبشر جميعاً ينتمون إلى كوكب واحد ولا بد إذن من إيلاء أهمية كبيرة للترجمة والإنترنيت، لابد من التزاحم مع الآخرين وليس الانعزال عنهم، وتبرز أهمية هذا الأمر على نحو جلي في كثير من الأمثلة. فلو لا بيت الحكمة في عهد المأمون ما كانت الحضارة الإسلامية - التي استفاد منها العرب - قد وصلت إلى ما وصلت إليه وكذلك الأمر بالنسبة إلى مصر في عهد محمد علي والنهضة الثقافية التي حصلت فيها نتيجة الترجمة والاتصال مع الآخر، وهنا يبرز دور الوعي النقدي في إدراك أسئلة الواقع الحقيقية وإيجاد حلول مناسبة لها... بعيداً عن النقل الأعمى أو الفعل المقلد الخالي من الابتكار والإبداع.

وهناك أمر يواجه المشهد الفكري في العالم الآن، ولا بد من تسليط الضوء عليه، ذلك هو محاولة اختزاله في تيار واحد هو ما يدعى بالعولمة أو النزعة الكوكبية، كما يسميها الدكتور جابر عصفور والدكتور عايل صبري عبد الله. وهي في الحقيقة اختزال مخل، وهي في معناها الأورو - أمريكي تهدف إلى توحيد العالم بمعنى تحويل العالم إلى سوق مشترك

مفتوح، ولا معنى لحدود الدولة الوطنية التقليدية إزاء الحركة الاقتصادية الرأسمالية للشركات متعددة الجنسية، وهو مفهوم مبني على أساس الهيمنة، وتأكيد مفهوم المركز الواحد، المركز الذي يعني المخ الموجه للأوامر إلى كل التشعبات، وهو يرسى عملية توحيد على مستوى الثقافات، كأنه يبحث عن قاسم مشترك مما يقال من شأن "الهويات الثقافية" والخروج بثقافة واحدة تسمى الثقافة الإنسانية، إنه مفهوم أكثر بريقاً ونعومة وأكثر اتصالاً بالتكنولوجيا.. الإنترنت، الميكرو شيبس، ثورة المعلومات.. وغيرها.

وهناك مشروع ثقافي مضاد من خلال الطروحات الضعيفة للأمم المتحدة وفروعها، اليونسكو مثلاً، يسمى مشروع "التنوع الخلاق" القائم على الحوار والتبادل الثقافي وحوار الحضارات دونما هيمنة ودون إلغاء الهوية الثقافية لبلد ما. وبما أننا نعيش في هذا العالم، فلا يمكن أن نلغي أسماعنا وأبصارنا على ما تطرحه العولمة ولابد من وضعها موضع المساءلة لنعرف أين هي مواقع الهيمنة؟

لنفرق بين هيمنة الشركات المتعددة الجنسية وتدمير الحدود الوطنية وبين استخدام الإنترنت.. وسؤال أخير يظل ملحاً.. أين يقع المبدع من دائرة التصنيفات؟ ففي العراق وغيره من البلدان العربية على وجه الخصوص هناك عدة تصنيفات سياسية (يساري، يميني، رجعي..) وتصنيفات دينية (داخل الدين، خارجه، ملحد) وتصنيفات نقدية (كلاسيكي، رومانتيكي، واقعي، رمزي). يقول الدكتور جابر عصفور إن الكاتب الذي يقع ضمن هذه التصنيفات إنما هو كاتب من الدرجة الثالثة، أو الرابعة، أو الخامسة. والمبدع لا يمكن للصفة المذهبية أن تنطبق عليه إذ تجد دائماً عنده مناطق للتمرد على الأطر السياسية والنقدية والدينية والفنية. وإن جرثومة الإبداع هي فعل مستمر من الكشف مما يجعله في حاجة إلى الكشف والتمرد الدائم على التقاليد، ولا يوجد مبدع كبير يمكن حشره في مدرسة معينة، وفي الفترة التي طغى فيها الفهم الإيديولوجي تم رفض الكثير من الكتب المهمة لأنها لا تتفق وأدلتنا كما هو الحال مع كتاب (ضرورة الفن) لأرنست فيشر مثلاً، لأن فيشر كان يقول إن الفن ضروريته التمرد.

وأخيراً فإن الإبداع في نهاية الأمر هو المحاولة المستمرة للإنسان في التمرد على مستوى الضرورة وبالتأكيد فهو ليس تمرداً جاهلاً عشوائياً، إنه فعل خلاق ينقل الإنسان من مستوى إلى مستوى آخر وليس ثمة مدى ينتهي إليه هذا التمرد، فحين يتوقف الجهد الإبداعي الخلاق عند نقطة محددة يتحول الإنسان إلى تجسيد للضرورة القائمة وينتهي الإبداع.

(*) قاص وشاعر نشر العديد من القصائد والقصص والمقالات النقدية، يعكف على إنجاز المجموعتين الشعرية والقصصية خلال شهر تشرين الأول ٢٠٠٣.

(**) "كراكيب قديمة في غرفة مهجورة" استعارة من وصف الطبيب صالح في قصور النظر إلى التراث.

مستقبل الثقافة في العراق

قاسم السومري



بعد كل نازلة تحلّ بالعراق أو بمحيطه العربي والإسلامي، ينبري المتقفون إلى طرح تساؤل اتهم، التي تتسم في غالبها برد الفعل العاطفي والمنفعل. أين نحن مما جرى؟ أين نحن من المستقبل؟ مرة بصيغة جمعية كونهم شريحة من مجتمع واسع، ومرة بصيغة أكثر تحديداً، تختص بمجال اشتغالهم الثقافي والفكري. وتبقى الإجابة معلقة بانتظار نازلة أخرى ليعاد طرح هذه التساؤلات ولكن بصيغة أكثر حداثة. إن تكرار دورة الأسئلة هذه أفرزت سلوكاً ثقافياً مازوخياً، لا يتعاش إلا مع الأزمة ومع سوط جلادها. لتنتج خصائص لثقافة سائدة تنقسم بين ثقافة التصفيق والتبرير، وبين ثقافة القهر والاضطهاد. وبين هذه الثقافة وتلك، يتلاشى دور النخب الثقافية في دراسة ونقد وتحليل معطيات الأزمة بشكل موضوعي لاستشراف آفاق المستقبل، هذا الدور الذي مارسه النخب الثقافية الأوروبية في تأسيس وقيادة التطور التاريخي الحديث لمنظومتها الحضارية، أين العلة؟

لا يمكن الحديث عن مستقبل للثقافة العراقية بمعزل عن الغور في جذورها، وعن معيقات تكيفها وتطورها كجزء من منظومة حضارية إسلامية، مهيمنة وفاعلة في الشخصية العراقية، همشت إن لم تكن غيبت الإرث الرافديني الرائد في هذه الشخصية، وصارت في المراحل اللاحقة من تطورها، حينما ارتبطت بمفهوم القومية العربية، الحقوق الثقافية للأطراف القومية والدينية والمذهبية التي يتشكل منها المجتمع العراقي. إن هذه المنظومة تعاني من أزمة مستديمة تتعمق مع كل تطور حضاري يشهده العالم. وإن هذه الأزمة البنيوية تمد جذورها في عمق التاريخ الحضاري لهذه المنظومة. فإذا ما أردنا النهوض بثقافتنا ومجتمعنا فإن هذا الأمر يفرض علينا أن نعالج هذه العقدة المركزية بعلاجات نستخلصها من بيئة هذه المنظومة وليس باعتماد وصفات علاجية خارجية جاهزة، قد تساعد في العلاج، ولكن اعتمادها كعلاج رئيسي ينتج أضراراً بليغة وقبل البحث في العلاجات علينا أن نبحث في أسباب العلة.

يقول (إدوارد هيررو): الثقافة هي ما يبقى عندما يتم نسيان كل شيء — وإن ما تبقى من الحضارة الإسلامية العربية بإشرافاتها وانكساراتها هو "العقل" الإسلامي العربي الذي يمثل خلاصة ثقافتها وتأثيرها. هذا العقل الذي صيغ في القرون الهجرية الثلاثة الأولى من خلال النص القرآني والسنة واكتمل بناؤه على يد الفقهاء واجتهادات المفسرين "وعندما اكتمل البناء في اللغة والتشريع، لم يعد هناك مجال للمزيد، فأصبح هذا — العقل — سجين هذا البناء الذي طوق نفسه به. فلم يكن من الركود مناص ولا من التقليد مفر" كما يقول محمد عابد الجابري: يتصف هذا — العقل — بمجموعة من الخصائص يمكن الإشارة لأبرزها:

1- إذا كان مفهوم العقل في الثقافة اليونانية — الأوروبية الحديثة والمعاصرة يرتبط بـ (إدراك الأسباب) أي بالمعرفة، فإن معنى (العقل) في اللغة العربية وبالتالي في الفكر الإسلامي العربي يرتبط أساساً بالسلوك والأخلاق.

2- النظرة المعيارية للأشياء، والمقصود بالنظرة المعيارية، هي تلك الاتجاه في التفكير الذي يبحث للأشياء عن مكانها وموقعها في منظومة القيم التي يتخذها ذلك التفكير مرجعاً ومرتكزاً له، هذا في مقابل النظرة الموضوعية التي تبحث في الأشياء عن مكوناتها الذاتية وتحاول الكشف عما هو جوهري فيها. فهو عقل تعيين الحاضر والمستقبل على الماضي دون تدبر للخبرة والتطور، بل إن الحاضر والمستقبل أصبحا في نظرها رمزين للأغلال والانحطاط.

3- تبنت الدراسات اللغوية الأطروحة القائلة بأن منظومة لغوية ما "الشيء الذي يعني ليس فقط مفرداتها بل أيضاً نحوها وتركيبها" تؤثر بطريقة رؤية أهلها للعالم، وفي كيفية مفصلتهم له، وبالتالي في طريقة تفكيرهم، إننا نفكر كما نتكلم - الشيء الذي يعني أن اللغة التي تحدد قدرتنا على الكلام هي نفسها التي تحدد قدرتنا على التفكير - كما يقول (آدم شاف) - واللغة العربية التي استمرت قدسيتها من كونها لغة القرآن لم يجر عليها تجديد وتحديث طيلة أربعة عشر قرناً - وضعت المنقف في إشكالية معرفية بين لغة أدبية تعتمد العربية وسيلتها في التعبير وبين لغة أجنبية للتعامل مع معطيات الحضارة المعاصرة وبين لغة محكية للتواصل مع محيطه الاجتماعي.

4- يختزل هذا "العقل" الزمن ويكتفه في بؤرة نصية، فالماضي ليس إلا ماضي النص الذي أعاد تشكيله وفق صيغة استرجاعية وكذلك هو الحاضر والمستقبل اللذين ينسحب زمنهما إلى زمن النص الذي رسمت خطوطه بين بدء مطلق ونهاية مطلقة وما منحنياته إلا تعبيراً عن صراع الخير والشر في شخصية الإنسان. وإن الفهم للزمن ولد خلطاً بين الحضارة التي نتجت عن الإسلام والتي تخضع لاشتراطات التاريخ الإنساني المتغير (النسبي) وبين الإسلام كعقيدة دينية ثابتة (مطلقة).

5- أنتج عن هذا الخلط (النسبي) و(المطلق)، العقلية الدوغمائية أو الصرامة العقلية التي يعرفها (مارتن روكيش) بأنها "عدم قدرة الشخص على تغيير جهازه الفكري والعقلي عندما تتطلب الشروط الموضوعية ذلك، وعدم القدرة على ترتيب أو تركيب حقل ما تتواجد منه عدة حلول لمشكلة واحدة وذلك بهدف حل هذه المشكلة بفعالية أكبر". ويعتبر (روكيش) أن العقلية الدوغمائية تركز أساساً على ثنائية ضدية حادة هي نظام من الإيمان والعقائد ونظام من اللايمان واللاعقائد، بكلمة أخرى أكثر وضوحاً فإن العقلية الدوغمائية ترتبط بشدة وبصرامة بمجموعة من المبادئ العقائدية وترفض بنفس الشدة والصرامة مجموعة أخرى وتعتبرها لاغية لا معنى لها. ولذلك فهي تدخل في دائرة الممنوع التفكير فيه أو المستحيل التفكير فيه وتتراكم بمرور الزمن والأجيال على هيئة لا فكر فيها.

6- إن اعتماد القياس والجماعة واحداً من مصادر التثبيت المعرفي في المنظومة الإسلامية قد فتح المجال واسعاً لمصادرة الحقوق الفردية وتجبييرها لصالح الجماعة، هذه المصادرة التي جعلت من أفراد المجتمع نسخاً كربونية مشوهة لصورة أصلية رسمها السلف. وإن من تداعيات هذه المصادرة هو قمع الحوار وهذه الصفة ملازمة لها ومعقدة لفاعليتها في المجتمع مما انعكس سلباً على المنظومة الاجتماعية وعلى كل البنى التحتية والفوقية المكونة لها، مما سلبها روح التفاعل داخل منظومتها ومع المتغيرات العالمية.

يوصي غاندي، نهرو "بأن لا تحاول أن تقنع أحداً بتغيير عاداته وأفكاره، وأقصى ما تستطيع فعله هو أن تقنعه بأن يبدأ في مراجعة العادات والأفكار، إذا فعل ذلك فإنه هو الذي سيغير وليس أنت" وبدلاً من البحث في حلول جاهزة لمشاكلنا ومحاولة فرضها، علينا قبل ذلك أن نوفر البيئة والمناخ المناسب لعملية التغيير من خلال ما يلي:

1- تحديد هويتنا العراقية من خلال إدامة الصلة بإرثنا الراقديني القديم وإعادة قراءة الإرث الحضاري الإسلامي والعربي وفق منهجية نقدية تحليلية تتسم بالجرأة والانفتاح على المعطى الحضاري الإنساني والتفاعل معه. بالإضافة إلى الاعتراف بالمكونات الحضارية والاجتماعية والثقافية التي يتشكل منها هذا المجتمع.

2- الفرد قيمة عليا في المجتمع علينا أن نقر ونصون هذا المبدأ بصياغة دستورية وقانونية، لأنه يشكل معولا في تحطيم المنظومة السياسية والاجتماعية التي جعلت من الأفراد قسطينا تنتظر كلاب الراعي لترشدها إلى الطريق، كما أنها تفتح سبلا رحبة للمشاركة الحقيقية في بناء المجتمع.

3- فصل الدين عن السياسة. إن هذا المبدأ يسهم في إقامة مجتمع عصري يتفاعل داخل منظومته الحضارية التي يشكل الإسلام الجزء الفاعل في ترتيبها ومع المنظومة الحضارية الإنسانية الأخرى.

4- الديمقراطية، هذه الوصفة السحرية التي جعلت من المنظومة الأوروبية دائمة التجدد والتطور، هي الضمانة الأكيدة لمجتمعنا المتنوع الأطياف لأداء دوره الحضاري.

5- تأكيد دور المرأة، التي تشكل إحصائيا نسبة ٦٠% من مجتمعنا، وتأثيرا ١٠٠% لأنها الجزء الفاعل في صياغة الإنسان وتحديد فاعليته في المجتمع.

6- إعطاء الأولوية والدعم اللامحدود لأجهزة التربية والتعليم، وتحديث مناهجها وأساليب عملها وفق طرائق علمية وتربوية صحيحة، وكذلك تشكيل ودعم قطاعات غير حكومية سائدة تهتم بالطفولة ..

قيامه الثقافة العراقية

أو طوهم (الحنديري)

نصيف فلك (*)

يقف المثقف على منبر النص، ويبدأ خطبته على جمهور يعرف سلفا ما سيقول، ويشحذ كفيه للتصفيق الإيديولوجي أو الحزبي، بحيث يكون هذا المثقف على مقياس الجمهور في لباسه الفكري والجمالي، ويكون الجمهور أوعية لثقافة الأواني المستطرقة، ومثقف كهذا يضع (الحنديري) - في اللهجة العراقية تسمى السيور الجلدية التي توضع على جانبي عيني الحصان لكي لا يرى إلا أمامه فقط بالحنديري - على عقله وعلى عقول جمهوره فيؤدي إلى:

1- شلل نصفي في الثقافة لأنه حذف المتلقي، شريكه في النص عندما كتب شفاهيا إلى جمهور يسمع قراءة، لأنه جعل نفسه خطيبا لا كاتباً ولا مثقفاً.

2- هذا المثقف يكتب في الزمن الضائع، خارج لعبة الحياة، ربما كان يخاطب جمهورا في كوكب المريخ أو عطارد ونحن لا نعلم، لأن زمنه الثقافي راكد، لا يبرح مكانه الإيديولوجي أو الحزبي حين يكتب في المعلوم عن المعلوم، دون اقتحام المجهول والمغامرة في إضاءته، وهو يجيب لا يسأل ويذهب فيما وراء سؤاله، وهو بالتالي دلال لثقافة سجيئة أو روبوت جمال فلزي ينتج ثقافة معلبة.

3- هذا المثقف براغماتي في لوعيه، لأنه يعرض بضاعة نصه في سوق السياسة - والسياسة كما يعرفها المستثمرون أفة الفن والأدب والمعرفة - حيث تأخذ البضاعة طريقها المعهود إلى محارق زبالة التاريخ.

4- هذا المثقف يأكل معنى اللغة، فتبقى مجرد قشور تتطاير وتتبعثر في أول نفخة نقدية، لماذا؟ لأن اللغة بالنسبة له جاهزة، معدة، مبوبة ومنسقة في مجاريير أفقه الإيديولوجي أو الحزبي، هي وسيلة له لأنه طيب وليس كاتباً، ولأن زمنه الثقافي راكد لا متفجر، ولأنه مطية للسياسة، ولأنه يراو ح في منطقة المعلوم والمكتسب، ولأنه أخيراً يفتقد إلى ثقافة وجوده كذات وكإنسان، لا حيلة أو ميزة تضاف وتكمل وجوده.

إذن هي ثقافة ضد الإنسان وضد المجتمع وضد الحياة، هي ثقافة معوقة عكازها السياسة — عكاز ضلال يقود إلى قبح وتخلف — أما لماذا هي كذلك، فلأنها ثقافة (حنديرية) انحدرت إلى أعماق درجات الانحطاط في عهد الطاشية صدام، وبلغت حد الفصام أقصاها:

1- فصام بين الثقافة والمجتمع.

2- فصام بين المثقفين أنفسهم.

3- فصام المثقف مع ذاته ونفسه. وهنا فقد المواطن العراقي هويته: أ- هويته كإنسان.

ب- هويته كإنتماء لبلده العراق الذي فقد هويته. هو الآخر وضاع بين فكي العروبية التي علسته إلى آخر غضروف ينتمي للعرب، وضاع بين تنوع ثروته ووفرته التي ينوء بسيا فقد حطمته أكثر مما أفادته، وضاع بين تركات حضاراته التي ظل يرزح تحاتها ولا يستطيع النهوض وظل متخلفاً يكابر ومن شدة تخلفه يردد ويزيد. ودائماً يصيح: (أنا مهد الحضارات، أنا عاصمة الكون، أنا معلم العالم) والجميع يتفق بأن الفتى لبس من قال كان أبي / المثقف من قال هاأنذا.

لذلك محنة المثقف العراقي عويصة لحد القنوط، فلا يسعفنا نبوخذ نصر، ولا يخرجنا من ورطتنا حمورابي، ولا ينصرنا خالد بن الوليد، ولا يحررنا صلاح الدين الأيوبي مطلقاً، ولا منادمة هارون الرشيد في حانة الدولة العباسية. ونبقى هكذا في أشنع السجون ضراوة، طبعاً سجن التاريخ الذي هو أكثف ظلامية وفتنة من تاريخ أكلة لحوم البشر ولكن الأشرس منه ظلامية بل هو سيد الظلمات والورث الأوحده لهذا التاريخ الأسود هو صدام.

هل الثقافة العراقية بخير وهي في مناهات (الحنديري) عبر التاريخ وحتى متاهة (هنا) و (الآن)؟ هل ننفض أيدينا يائسين من احتضار الثقافة العراقية ونردد مع ببغاء اللاجوي: إلى القبر وبئس المصير؟

إلى من يهمة العراق وأهل العراق وثقافتنا، إلى من يهمة الخروج من رماد الحضارات وظلامية التاريخ: الاعتراف، الاعتراف بأننا نعيش في أمية ثقافية يستحيي منها الجهل، وينكمش من عارها الورق الأبيض.

فإذا لم نخلع (الحنديري) أي حنديري كان، خاصة الإيديولوجي والحزبي، وطرده السياسة نهائياً من حقل الثقافة العراقية، لا أمل للقيام من موتنا أبداً. ثم محاكمة أنفسنا بعد الاعتراف، وهذه المحاكمات تكون علنية في قاعات الأدب والفن والمعرفة، فهي ستقودنا إلى محاكمة التاريخ بلا رحمة ولا شفقة، حيث نتخلص في تلك المحاكمة من صفة التقديس والتدليس، نكون قد اجتزنا كل الفخاخ والكائن إلى حكم بريء من التعصب والتطرف، ومن التهور والمجانية، حكم يليق بمثقف جَلَّ همه أن يكشف للإنسان إنسانيته ويعيده إلى وطنه العراق محبباً مخلصاً، ويعثر على هويته الضائعة ليندمج مع إخوته بشر العالم، عندها يتفجر الزمن الثقافي ويتصاعد اقتحامه للمجهول في مغامرة الكشف والتقصي في لذة تكتنز فيها كل الذات، ولا يفكر في منفعة إلا وهي منفعة للوطن والعالم والكون. وهنا تستعيد اللغة عافيتها في التوالد توأم، توأم لمعاني قشبية وجديدة من رحم وجوده الثقافي. هذا الوجود وحده يستحق أن نطلق عليه كلمة حضارة، فهل هذا أو أن قيام الثقافة العراقية من برزخ العقم؟

(*) شاعر عراقي له (النهر الهارب).

نهج وزارة الثقافة وخطة عملها

هاتان الوثيقتان اللتان طرحتهما وزارة الثقافة هما حصيلة مساهمة جماعية لعدد كبير من مثقفي شعبنا ومبدعيه. لغرض تعميم الفائدة وتوسيع مجال النقاش حولهما، ننشرهما في هذا العدد.

الثقافة بوصلة نزوع المجتمع للارتقاء بوجوده وتغيير محيطه. وهي لا تزدهر الا في مجتمع ديمقراطي، وهذا الاخير لا يجد ركيزته الراسخة الا في ثقافة ديمقراطية. ان لبلدنا خلفيات حضارية تغوص في الذاكرة الجمعية، وعلى تلاقح هذه الذاكرة الموعلة في القدم نعول اليوم في تشكيل هوية معاصرة تربط الماضي بالحاضر وتعبر بنا الى محيطات ثقافية كونية جديدة. اننا ندشن اليوم افقا تاريخيا واعدا، لقد سقطت اسوأ النصب اسوأ الرموز، اسوأ فترات الاستبداد، اسوأ الافكار العنصرية. سقطت ثقافة المقابر الجماعية، والحروب العشوائية والانقلابات والابادة الجماعية وتصفية الخصوم واجبار المثقفين على الازعان في الداخل او الهجرة خارج الزمن، حيث الوحدة والاستلاب والموت الروحي والجسدي بعيدا عن الوطن. نحن اليوم امام متغيرات العصر، امام ابهى انجازات الانسان في مجالات الحقوق والمعرفة وثورة التكنولوجيا، وامامنا مسؤولية قلب كل الشروط التعسفية التي قيدت رؤانا وارادتنا، والانتقال نحو مباحج الفعل الاجتماعي الخلاق المتجسدة في المنجز الجمالي المشروط بالحرية والتنوع واحترام القيم الانسانية. ونعتقد ان فرصتنا حانت لطرح البدائل وتغيير الثقافة وتحويلها الى ظاهرة اجتماعية وفنية تعم البلد من اقصاه الى اقصاه. فلا يمكن تحرير المجتمع دون تغيير بنيته الثقافية لتشمل الطفل والمرأة والرجل، وتلك مهمة تتطلب ربط البنى المنتجة للثقافة ببعضها، وهي هنا وزارات الثقافة والتربية والتعليم العالي وكذلك المكتبات والمسارح ووسائل الاتصال السمعي والبصري وكل مجالات المعرفة النظرية التطبيقية. فليس غير الثقافة الديمقراطية ما يجعل المجتمع يرى ويسمع ويدرك بشكل افضل، ويساهم في البناء اكثر، خاصة في مواقع النقاء النص الثقافي الاصيل معه. ان وزارة الثقافة وهي تمارس دورها في هذا العهد الجديد تجابه ركاما هائلا من ارث ثقافية صنعها النظام السابق على غرار حروبه وقمعه وحصاراته وفساده المادي والروحي. وهذا يضعها امام تحديات البحث عن الطرق الكفيلة ببناء ثقافة تمتثل للحقيقة والجمال والخير، وتقوم على الحرية والاستقلال والتعدد والقبول بالآخر. ان مجتمعنا وهو يخرج من عزلة قسرية طويلة فرضت عليه لاكثر من خمس وثلاثين سنة، ينبغي ان يأخذ بأسباب التحديث والتفكير العلمي، ويسعى لارساء نظام انتاج معرفي راسخ في دعائمه مرن في معاييرهِ. تترك الوزارة انها لا تستطيع النهوض بمهمتها هذه الا بمشاركة المثقفين والمبدعين العراقيين المتطلعين للتغيير، وسيكون دورها التشجيع والاسناد والسهر على حسن توزيع ثمار العقل والروح لتشمل جميع شرائح شعبنا، وفي مختلف انحاء العراق. وتترك ايضا مضار اي توجه ايديولوجي مغلق لثقافتنا، أخذة بسمة العصر المتجلية بتعدد الثقافات، ونعيش الرؤى والاتجاهات الفكرية وتفاعلها بالحوار والتأثير المتبادل. وهي اذ تحرص على تأكيد حق الاختيار وتكوين القناعات دون وصاية او ضغوط، ستسعى لان يستفيد مجتمعنا من الجوانب الايجابية لظاهرة العولمة والثورة المعلوماتية. تحترم الوزارة حقيقة ان الدين الاسلامي يساهم في التكوين الروحي والثقافي

لمعظم الناس في بلادنا، تتعايش الى جانبه بسلام ومحبة المسيحية و المندانية و اليزيدية و اليهودية.. هذا التنوع الديني مصدر غنى وقوة لمجتمعنا، وستعمل الوزارة على دعم البحوث و الدراسات و الحوارات و الفنون التي تظهر ان جوهر الاديان هو التسامح و الحرص على الحياة و الخير و رفض الظلم و التطرف و الارهاب. واذ يتكون مجتمعنا من العرب و الكورد و التركمان و الكلدان و الاشوريين، حيث لكل ثقافته و تراثه، فان ثمة روحا واحدة تجمعهم على حسب هذه الارض و منجزها التاريخي الحضاري. و تجد الوزارة نفسها مسؤولة عن رعاية و دعم ثقافة كل قومية او جماعة على حدة، و الحفاظ على كل ما هو مشترك و اصيل بينها. من خلال ذلك فقط نتأكد الهوية العراقية لثقافتنا التي نريدها ان تكون مفتوحة و متواصلة مع العالم. تقدر الوزارة قلق المتقنين و الشعب على مصير بلادنا و تطلعهم لانهاء الاحتلال و استعادة استقلالنا و سيادتنا الوطنية باسرع وقت ممكن، و خشيتهم من الاعمال التخريبية. ان الارهابيين و المخربين لا يريدون شيئا سوى العودة ببلادنا الى كوابيس العهد السابق و ظلماته، و هم اعداء لقيمنا الثقافية و الروحية. و رغم الموقف المؤسف للعديد من المنظمات الثقافية الرسمية و المهنية العربية من قضية شعبنا، الا ان الوزارة سوف تعمل على مد جسور التواصل مع المحيط الثقافي العربي، و تطوير علاقاتها مع المنظمات الثقافية الدولية، خاصة منظمة اليونسكو. ان الوزارة اذ تسقط ما انتج في ظل العهد المندثر من ثقافة مخزية تمجد الحروب و العنف و القمع و عبادة الفرد و تشيع اجواء الكراهية و الزيف و القبح فانها حريصة على التمسك بما انتج الى جانبها من ثقافة عبرت قدر استطاعتها عن القيم الانسانية و الجمالية، و اصبحت جزءا من تراثنا الابداعي. كذلك فان ما حققه المبدعون العراقيون من نتاج ناضج ادبي و فني في المنافي هو جزء من الثقافة العراقية. و ينبغي الا يوضع في تعارض مع ثقافة الداخل، كما ينبغي النظر الى مكونات الحالة الثقافية و الاجتماعية السائدة مقترنة ليس فقط بظروف و ضغوط الفترة العسيرة السابقة، بل و بافاق المستقبل. و ستعمل الوزارة على تغيير النظرة للمرأة، و دعم الثقافة التي تنتجها او التي تدعو لمساواتها مع الرجل في الحقوق الانسانية و القانونية، و تنشيط دورها البناء في المجتمع. بموازاة ذلك ستعمل على الاهتمام بثقافة الطفل و الحدث و حاجتهما الجمالية و المعرفية. و تدعم نشر ثقافة البيئة و الحفاظ عليها كحضانة للتراث و الجمال و الالهام. ضمن صلاحياتها ستلتزم الوزارة بتعزيز استقلال الاعلام عن اي تدخل حكومي و جعله اعلام الاصوات المتعددة و ليس اعلام الصوت الواحد، و تتطلع الى مواكبته في المستقبل بقنوات فضائية، تلفزيونية و اذاعية، تختص بحقول الثقافة و الفنون. تريد الوزارة لثقافتنا ان تتفتح و تزدهر مغمورة باكبر فيض من النور، مستندة على حقائق الانسان و الوجود و العلم و الحداثة، و متطلعة الى افقها البعيد دون ان تنسى جذورها و منابعها و المشرق من تراثها و تاريخها. لذا ستكون كل النوافذ مشروعة امامها للتواصل مع ذاتها في مختلف تقلباتها و اطوارها و مع الثقافة العربية و الانسانية، ناشرة بين الناس عطاءها الناضج، لا رقيب عليها غير عقلها المبدع و ضميرها العادل. الصعاب، كما نرى و ترون كثيرة، لكننا نثق ان متقني شعبنا و مبدعية مؤهلون لتحديات ترقى عبرها ثقافة الجمهور الواسع الى مستويات حكمائه و مفكره و فنانيه و الى تحقيق منجزات ثقافية رائعة. معا اذن الى عملية تنقيف متواصلة توظف فينا الامل و تعيد انتاجه.

خطوات تنفيذية!

ان اهم ما ينبغي ان تركز الوزارة على تنفيذه وباسرع وقت هو :

1- مواصلة تطهير اجهزة الوزارة التنفيذية والادارية من العناصر التي مارسست ادوارا شائنة في الترويج لثقافة العهد المنذر بكل ماكانت تحويه من بشاعة وانحطاط. والعناصر الهزيلة والكسولة، وفتح مراكز ومواقع للكفاءات الجيدة النظيفة والجادة في بناء ثقافة جديدة وناصعة في بلادنا!

2- العمل على تحسين سلم الرواتب والمكافآت والحوافز، وتحسين ظروف حياة العاملين فيها وبما يتناسب ومهامهم الصعبة و اوضاع مماثلهم في البلاد المجاورة والعالم. ويسهم في بناء مؤسسة جديرة ببناء وادارة ثقافة متطورة.

3- انشاء مجلس استشاري، أو مجلس أعلى للثقافة من خبراء في شئون الثقافة والمتقنين يعنون في متابعة تنفيذ برنامج الوزارة الثقافي والعمل على تطويره واغنائه.

4- دعم النقابات والاتحادات الخاصة بالكتاب والادباء ماديا ومعنويا وضمان استقلالها وتزاهة انتخابها وحمايتها من التدخلات الحزبية والحكومية. ودعوتها لمشاركة أكبر في البناء الثقافي. على صعيد الاستشارة أو المبادرة العلمية.

5- ايلاء الادباء والكتاب والشعراء والفنانين رعاية كافية باصدار قوانين تمنحهم حقوقهم، واشكالا من التفرغ لمهامهم الصعبة، والمساعدة في تأمين السكن اللائق لهم ومنحهم الجوائز التي يستحقونها، ومساعدتهم عبر السفرات الاستطلاعية أو الدراسة للوقوف على تجارب الشعوب والمجموعات الثقافية التي خرجت من نير النظم الفاشية والدكتاتورية كتجارب المتقنين الالمان والايطاليين واليابانيين مثلا.

6- توسيع العلاقات الثقافية من المنظمات والاتحادات العربية والعالمية وتعميق التبادل الثقافي والادبي والفني معها.

7- العمل على تنشيط نشر كتب المؤلفين العراقيين وتنشيط الترجمة خاصة الكتب العلمية والفكرية، وتلك التي تعكس تجارب شعوب عانت من ويلات الدكتاتورية والحروب، واصدار المجلات والدوريات المتنوعة والمتخصصة!

8- تأهيل القطاع الاهلي لأحياء عملية النشر والانتاج الثقافي المشترك وتنظيم خطوات الشروع بالعمل لتأسيس مجلس مشترك بين اداريي الوزارة وجماعة الناشرين.

9- الاهتمام بالرواية والمسرحية والشعر وفتح ورشات عمل لها واستعادة تقاليد اللقاءات والمهرجانات الثقافية وعلى اسس ابداعية ونقية.

10- العمل على تخليص المسرح من الابدال والتهاافت التجاري، واعادته الى تقاليده الجادة و تراثه الاصيل الذي عرف به في اعوام الستينيات والسبعينيات. ودعمه وايصاله للمحافظات واقامة مهرجاناته النوعية. ورعاية العاملين به معنويا وماديا.

11- دعم السينما وتهيئة مستوى معقول من مستلزمات الانتاج وتأهيل السينمائيين

الشباب بالدورات و الزمالات لتعزيز خبراتهم وتطويرها والعمل على المدى المتوسط لإنشاء استديوهات متطورة بالمال الخاص أو شراكة الدولة، والاستفادة من تجارب عربية وعالمية كالسينما المصرية والهندية والعلمية والاستعانة بخبرات خارجية والعمل على انتاج افلام تمجد نضالات الشعب ضد الدكتاتورية، وتقضح ممارساتها وتساعد الناس على فهم حقائق تاريخنا الحديث، مع افلام ذات طبيعة انسانية ودرامية.

12- الاهتمام بالفرقة السمفونية الوطنية. ودعم الفرق الموسيقية الجادة والعمل بسجد لتخليص الاغنية من امراضها وابتذالها وجعجعتها العسكرية، وتحبيب الموسيقى للناس ونشر الموسيقى الجادة العالمية والعربية، ودعم اسعار التسجيلات والقرص المدمجة.

13- دعم النشاط الفلكلوري، وتنشيط دور الازياء ومراكز الفن الفطري.

14- العناية بالمتحف الوطني والمتاحف الاخرى (خاصة الطبيعية والزراعية) والعمل على استعادة الآثار والتحف المسروقة ومساندة اعمال التنقيب وترميم الأماكن والمعالم الاثرية.

15- تطوير السياحة، وتوسيعها وتخليصها اجيزة وبرامج من مفاصد العهد المندثر، والاهتمام بالعتبات المقدسة وجعلها مراكز جذب روحي وانساني.

16- الاهتمام بالفن التشكيلي ورعايته باقامة المعارض والمقتنيات العربية والعالمية. وتشجيع الكاليريات، ومكافحة الاتجار غير المشروع باللوحات والاعمال الفنية العمل على استعادة لوحات الفنانين العراقيين المسروقة، واعادة بناء المتاحف الفنية المدمرة.

17- تتطلع الوزارة لمواكبة الاعلام المستقل بقنوات فضائية تلفزيونية واذاعية تختص بحقول الثقافة وبما يسهم في تطوير السينما والمسرح والغناء والموسيقى وبرامج التراث والسياحة.

18- دعم تعميم ثقافة الانترنت واستعمال الحاسوب خاصة من قبل الكتاب والمؤلفين والعمل على توفيره لهم بشكل جماعي، او بشكل شخصي وباسعار مناسبة.

19- تعزيز دور دائرة الفنون ودعمها بالعناصر الكفوءة والنشطة.

20- تأسيس هيئة أو مجلس للتراث العراقي يرعى ويكشف البحوث والمعاهد والمنشورات التي تعني بحماية تراث الوطن الثقافي في مناطق العراق المختلفة.

21- انشاء بيت ثقافات العراق ليتخصص في درس وتحليل الثقافة العراقية المترامية ويمكن ان يسمى بيت الذاكرة العراقية، ويمكن ان تكون احدي مهامه استعادة الكتب المخطوطة والوثائق التي نهبت من المكتبات أو بدائل عن اشربة وتسجيلات الاغاني والمسلسلات والافلام الوثائقية التي احترقت خلال الحرب الاخيرة.

22- اقامة اسابيع متخصصة اسبوع للقراءة تشارك فيها الوزارة والاتحادات والورش للتمريس واتقان معنى القراءة ودورها ويكون لثقافة الاطفال موقع اساسي في انشطة القراءة.

23- تشكيل لجنة خاصة من وزارة الثقافة ووزارة التربية والتعليم العالي والبحث العلمي

للعمل والتنسيق سوية على تخليص النصوص والكتب من ثقافة العهد المباد والقيام بفعاليات مشتركة لنشر الثقافة الجديدة.

24- العمل على عودة المثقفين والمبدعين العراقيين المنفيين في الخارج وتسهيل سبل سفرهم وسكنهم و عملهم في وطنهم والعمل على التعريف بنتائجهم ونشره وتكريم المستحقين منهم!

25- السعي لاحتفاء بكبار السن من الادباء والتشكيليين والمسرحيين والموسيقيين والمغنيين ومنحهم الجوائز والشهادات التقديرية.

26- تحويل عدد من قصور المسؤولين السابقين الى قصور للثقافة، واعدادها لفعاليات وعروض فنية خاصة او كدور ضيافة لوفود او شخصيات ثقافية زائرة.

27- جعل الاشراف الثقافي على المكتبات العامة من اختصاص وزارة الثقافة. وتنظيم ذلك بلائحة خاصة بالتنسيق مع الادارات المحلية.

28- ستهتم الوزارة بالثقافة الكردية والتركمانية من خلال تطوير دار الثقافة الكردية ومديرية الثقافة التركمانية وتأسيس مديرية للثقافة الكلدو آشورية، ونشر الكتب باللغة العربية عن آداب وثقافات هذه الشعوب وفتح المجالات الرحبة امام انشطتها الثقافية والادبية والفنية.

29- الاهتمام بالمواقع الاثرية وحمايتها من السرقة والتخريب، العناية بأعمال التقيب وتنشيطها والحفاظ على الاثار المكتشفة وتصنيفها والعمل على استعادة الاثار المسروقة، وتطوير العمل في المتاحف، وتنظيم متاحف لنا تتجول في بلدان العالم تعرف بثقافتنا وتاريخنا.



شخصيات

عبد الفتاح ابراهيم: شاهد على احتلالين!

جليل العطية

كم معدل اعمار العراقيين في عصرنا؟

سؤال لن تجد جوابا علميا له.. غير ان الرقم المتوقع هو : ستون عاما .. لكن هذا الرقم المتواضع تناقص كثيرا قياسا لاعمار ابناء الشعوب الأوروبية مثلا.. ولا حاجة لمعرفة الاسباب في بلد طحنته الحروب والحصارات، حتى عجز العراقيون عن معرفة عدد المقابر الجماعية الموجودة في بلادهم!

رغم كل هذا فثمة استثناءات شملت عددا من الشخصيات العراقية، نذكر منهم السادة: -عبد العزيز بن الحسين الجواهري (الشاعر) الذي توفي في تموز ١٩٨٦م عن ٩٤ عاما (مولده في النجف ١٨٩٠)

-محمد بهجة الاثري (المجمعي) الذي توفي في ٣١ اذار ١٩٩٦ عن ٩٤ عاما -محمد مهدي الجواهري (شاعر العرب الاكبر) الذي توفي في دمشق في ٢٧ تموز سنة ١٩٩٧ عن ٩٨ عاما.

-عبد الرزاق الحسني (المؤرخ) الذي توفي في بغداد ٢٤ تشرين الثاني الاول سنة ١٩٩٧م عن عمر ٩٤ عاما.

-واخيرا صاحب (على طريق الهند) الذي توفي في بغداد في بداية اب ٢٠٠٣ عن ٩٩ عاما وفق (ارجح الروايات).

وبذلك كان الاطول عمرا ممن عاصروناهم من المفكرين والمتقنين العراقيين.

ولد (عبد الفتاح بن ابراهيم بن عبد الفتاح بن حميد بن ابراهيم ال وريد) في البصرة سنة ١٩٠٤م -وفقا لرواية الاستاذ مير بصري في كتابه (اعلام الادب في العراق الحديث)- في اسرة دينية معروفة.. كان ابوه وجده من ائمة المساجد ويحملان لقب المدرس. درس في البصرة وبغداد (١٩٢٠-١٩٢٤) ثم واصل دراسته في الجامعة الامريكية في بيروت (٢٤-١٩٢٨) حيث اختار علم التاريخ وكان الكتاب الاساسي الذي درسه (تاريخ اوروبا الاجتماعي السياسي) للكاتب الامريكي (هياس) ودرس (تاريخ اوروبا الحديث ١٨٧٠-١٩١٨ وغير ذلك من الكتب التي وسعت مداركه الفكرية ليتجاوز الاطار المحلي الضيق ليعتنق الفكر الاشتراكي ثم الماركسي.

قال عبد الفتاح ابراهيم (حصلت نقطة التحول عندي نحو الاشتراكية والاتحاد السوفياتي خلال اعدادي لاحد البحوث الدراسية حول الثورة (١٩١٧). ولم يسبق اختياري لهذا الموضوع اي فكرة او دافع الدراسة والبحث .. اما سماعي بالاشتراكية فقد حصل لأول مرة من خلال دراستي لكتاب .. HEYAS فهذا الكتاب تناول الحركات السياسية والاجتماعية في اوروبا ومن ضمنها الحركة الاشتراكية. بالاضافة الى الثورة الفرنسية وما

رافقها من مفاهيم حول اندحار الاقطاع وانتصار الطبقة الوسطى والديمقراطية والدستور .
اي انني تعرفت على الاشتراكية بشكل اكايمي مدرسي).

غير ان المضامين الاجتماعية في تفكير ابراهيم لم تبرز فيها الاشتراكية بل برزت فيها الديمقراطية بمضمونها الليبرالي المعادي للسلطة، فيقول:

"كنت انظر ان المقدرة المالية لكل من الاقطاع والاعنياء بصورة عامة انعكست في سيطرتهم على الجهاز السياسي وبحكم عدائي للجهاز السياسي ودفاعا عن الديمقراطية دخلت المفاهيم الديمقراطية تفكيري.. وهذا كان قد نتج عن تاثيري بالثورة الفرنسية التي اشبعت مفاهيمي السياسية بمضامين اجتماعية. ولتحقيق الديمقراطية لابد من التأكيد على الشعب والمطالبة بخدمته وتحسين احواله الاجتماعية والاقتصادية.. فأتخذ مفهوم الديمقراطية عندي مضامين اجتماعية....".

بعد عودته من بيروت مارس (عبد الفتاح) التعليم في الموصل والبصرة ما بين ١٩٢٨-١٩٣٠ وتعرض لمضايقات من السلطة. في هذه الفترة قرأ كتابا للبروفيسور MOON عن الاستعمار فصمم على ان يتلمذ على يده يقول "قبل قراءة هذا الكتاب كنت افهم انني اكره الانكليز كاتكليز فقط . اما بعده فاصبح مفهومي عن الانكليز وكرهي لهم كونهم استعمارا اقتصاديا استغلاليا".

سافر (عبد الفتاح) الى الولايات المتحدة ١٩٣٠ ليدرس على يد الاستاذ (مون) وبارشاد من استاذة اختار الكتابة في تشريح الاستعمار واسالييه في امتصاص الشعوب وقد سماه (على طريق الهند) وقد طبع لاحقا عدة مرات في بغداد ودمشق.

استثمر الطالب كل وقته في الولايات المتحدة لدراسة العلاقات العراقية- البريطانية. وعاد الى وطنه دون ان يتم دراسته، لكنه قرأ (راس المال) لكارل ماركس ودراسة عن الدستور السوفيتي وغير ذلك.

عندما عاد الى العراق عمل مترجما في ميناء البصرة ثم وزارة العدل في بغداد (١٩٣٢) وعاد الى التدريس، واصدر مع آخرين مجلة العصر الحديث (١٩٣٦) ثم عين استاذاً مساعداً في دار المعلمين العالية عام ١٩٤٠ فمفتشاً بوزارة المعارف (التربية) عام ١٩٤٣ واستقال من الوظيفة في السنة التالية فأسس شركة الرابطة للطبع والنشر وتولى ادارتها، واصدر مجلة (الرابطة) في اذار ١٩٤٤ وهي نصف شهرية لبث الثقافة القومية الديمقراطية. امن (عبد الفتاح ابراهيم) منذ مطلع شبابه بالاراء التقدمية والديمقراطية وحقوق الانسان ودشن مساهماته الفكرية بكراس عنوانه (مباديء الشعبية) الفه سنة ٣٠-١٩٣١ وهو الكراس الذي تبنته جماعة الاهالي قبل صدور جريدة الاهالي، وهو عبارة عن (صفحات منهجية بشكل كراس يعتبر اقدم وثيقة سياسية واقتصادية معروفة من تاريخ العراق، وربما في تاريخ المنطقة العربية تصلح لتكوين النواة التي تحمل كل شروط النمو من اجل تطور الحركة الاشتراكية والنظرة العلمية لها في العراق وما جاوره) كما يقول (عبد الغني الملاح). واشترك (عبد الفتاح ابراهيم) مع (محمد حديد) و (علي حيدر سليمان) بوضع اربعة فصول من كتاب (الشعبية) الذي اتخذ في الشيء الكثير من بمبادهتها الاشتراكية مع اشادة بها وترغيب بمبادهها معتبرا اياها المباديء الوحيدة التي يمكنها ان تخدم الطبقات الاجتماعية

المسحوقة، فاستعرض فيه تاريخ الفكر السياسي من اليونان حتى ثورة أكتوبر الاشتراكية ١٩١٧. من الواضح ان (الشعبية) كانت تمزج بين مبادئ الديمقراطية وبين مبادئ الاشتراكية العلمية، لكنها تختلف عن كل منها فقد اعترفت (الشعبية) بنظام الحكم الدستوري المبني على قاعدة التمثيل النيابي ودعت الى حماية حقوق الانسان. الا انها ناديت بان تكون للدولة من حيث علاقتها بالافراد حق التدخل في كل ما يتعلق بتنظيم المجتمع وتبنت نوعاً من التجمعات الشعبية مؤكدة على الشعب كمجموع لا كأفراد، وفي نفس الوقت رفضت الاعتراف بوجود الصراع الطبقي في المجتمع، كما رفضت اسلوب العمل الثوري لتغيير المجتمع، ومن ناحية اخرى اعترفت الشعبية بتنظيمات الاسرة والدين والوطنية. بعد صدور جريدة (الاهالي) في كانون الاول ١٩٣٢ انتقل (عبد الفتاح ابراهيم) الى البصرة ليعمل في الميناء وهناك واصل الاطلاع على الفكر فترجم كتابين: الاول (التربية والتعلم في الاتحاد السوفيتي) والثاني عن الزعيم الهندي (غاندي) لاجابه به. ثم صدرت له سنة ١٩٣٥ دراسة بعنوان (مطالعات في الشعبية) تضمنت هجوماً قاسياً على الفكر القومي جاء فيها:

"ان تاريخ القومية ملطخ بالدماء مملوء بالفضائح والمظالم محشو بالاخاديع والأكاذيب.. وان القومية كانت ولا تزال من الاساليب التي تستغل الشعوب بواسطتها لفائدة الفئات الحاكمة وحدها". وقد سببت هذه الدراسة -وغيرها- خلافات ونقاشات بينه وبين جماعة الاهالي، اما المفكرون القوميون فاتهموه (بالستالينية). ولعل من المفيد ان نثبت هنا شهادة الفقيه عبد الفتاح ابراهيم في كيفية توصله الى مفهوم القومية من خلال الحديث المباشر الذي اجراه واياه (عامر حسن فياض) في الثاني من اذار سنة ١٩٧٧: "بصورة عامة تكونت انطباعاتي عن القومية انذاك من خلال موقفين تاريخيين. من جهة -ان المانيا في زمن (وليم الثاني) اخذت تنمي وتطور علاقاتها بالدولة العثمانية فزار (وليم) تركيا وبعض اجزاء الامبراطورية وخاصة الاماكن المقدسة كالقدس -هذا الاهتمام الالمانى جاء بدافع الاطماع الالمانية بممتلكات الامبراطورية العثمانية. احتضنت المانيا الحكومة العثمانية ورفعت معها علم الجامعة الاسلامية لبسط نفوذها على الشرق.. ومن جهة اخرى فان الانكليز ايضا بدافع اطماعهم في المنطقة ولمواجهة النفوذ الالمانى ومقاومته رفعوا فكرة القومية العربية بسوجه فكرة الجامعة الاسلامية.. ولكن هاتين الفكرتين لم تكونا مقطوعتين عن الجذور في الدولة العثمانية نفسها. بل اساسهما هو الاسلام من جهة والحركة الطورانية من جهة اخرى، فاستغل الالمان فكرة الجامعة. هذا الاحتضان للفكرتين من قبل الالمان والانكليز بالاضافة الى اطلاعي على اقتران مفهوم القومية الاوربي بالبرجوازية، كل ذلك خلق عندي رغبة من كلا الفكرتين، ومن الطابع القومي بالذات. زاد كرهى عندما بدأت ارى بان مفهوم القومية عند العرب انذاك مفهوم قبلي، وذو طابع فاشي!

بعد الحرب العالمية الثانية انصرف (عبد الفتاح) الى العمل السياسي فالف في نيسان ١٩٤٦ حزب الاتحاد الوطني واختير رئيساً له.. ثم اصدر جريدة (السياسة) فجريدة (صوت السياسة). وبعد قيام ثورة تموز ١٩٥٨، عين مديراً عاماً لمصلحة مصافي النفط حتى اذار ١٩٦١ ثم واصل التأليف والترجمة. كان (عبد الفتاح ابراهيم) واحداً من رواد الفكر التقدمي، ومن اوال دعاة مكافحة الامية، واول من تنبه لخطورة تدخل الجيش في السياسة وعارض الانقلابات العسكرية! وعمل الكثير من اجل حرية الفكر وحقوق الانسان وحقوق المرأة.

اتاح له عمره المديد ان يشهد احتلالين: الاول تشرين الثاني ١٩١٤ عندما دخلت القوات البريطانية العراق.. وكان صبيا في البصرة. الثاني في نيسان ٢٠٠٣ عندما احتلت القوات الامريكية-البريطانية العراق. وكان يصارع الشيخوخة ويوشك على الاحتضار!

رجل الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم دافع العيين في اوج حاجة العراق والعراقيين له والى امثاله ممن ناضلوا من اجل الديمقراطية وحرية الفكر والمعتقد وتحرير المرأة واقامة مجتمع مدني.. حقا انها خسارة فادحة تتطلب ان ينهض تلامذته ومحبوه الى جمع تراثه المطبوع والمخطوط في مجلدات باقرب فرصة وليأخذ مكانه اللائق في مكتبة التراث الديمقراطي.

قائمة باهم اثار الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم:

1. الشعبية-بغداد-١٩٣٢
 2. التربية والتعليم في الاتحاد السوفياتي (ترجمة)-بغداد-١٩٣٢
 3. غاندي (ترجمة)-بغداد-١٩٣٢.
 4. مطالعات في الشعبية-بغداد-١٩٣٥
 5. على طريق الهند-ط١-بغداد-١٩٣٢
 6. مقدمة في الاجتماع-بغداد-١٩٣٩
 7. كلمة في وجهة المجتمع بعد الحرب-بغداد-١٩٤٢
 8. مشكلة التمويل-بغداد-١٩٤٢
 9. وحدة الحركة الديمقراطية-بغداد-١٩٤٦
 10. دراسات في الاجتماع-بغداد-١٩٥٠
 11. معنى الثورة-بغداد-١٩٥٩
 12. قصة النفط-بغداد-١٩٦٠
- وغيرها.

من مراجع المقال

1. اعلام الادب في العراق الحديث لمير بصري (ثلاثة اجزاء)-دار الحكمة-لندن-١٩٩٤.
2. تاريخ الحركة الديمقراطية في العراق لعبد الغني الملاح-منشورات وزارة الاعلام-بغداد-١٩٧٥.
3. تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي للدكتور فاضل حسين-بغداد-١٩٦٣
4. جذور الفكر الاشتراكي والتقدمي في العراق لعامر حسن فياض-دار ابن رشد-بيروت-١٩٨٠.
5. معجم المؤلفين العراقيين لكوركيس عواد (ثلاثة اجزاء)-بغداد-١٩٦٩.
6. الموسوعة الصحفية العراقية للدكتور فائق روفائيل بطي-بغداد-١٩٧٦.

ملف عن حسين الرحال ومحمود احمد السيد في الذكرى المئوية لميلاد رائد الماركسية في العراق حسين الرحال ورائد الرواية العراقية محمود احمد السيد ستنتشر (الثقافة الجديدة) في العدد القادم ملفاً ساهم فيه عدد من الكتاب والاكاديميين العراقيين وذلك اسهاماً في ابراز دور المفكرين العراقيين في بناء العراق الحديث.

أدب وفن



حسب الشيخ جعفر ومحمد خضير

مبدعان بلا جوائز .. مبدعان بالجوائز كلها

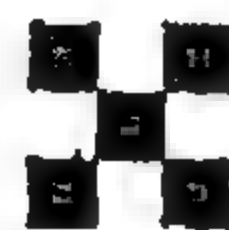
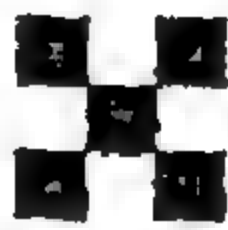
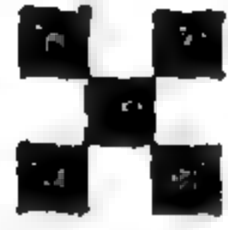
لا شك في أن حائزي الجوائز هم أقل عدداً من مستحقيها، إذ لا يمكن لجائزة إن تستوعب كل مستحقيها، وهي في الوقت ذاته لاتمحو اثر المبدعين الغفولين عندها؟

(جائزة نوبل) حازها الكثير من المبدعين في مجالاتهم المختلفة، ولكن مبدعين آخرين لم تصلهم، فلم يقلل ذلك من شأنهم.. وثمة حائزون حازوا شبهات بسببها.. وثمة من يسعى اليها ولا تصل اليه.. وهناك من لا يريد لها، وثمة من لا ينتظرها.. وهناك من رفضها لقباً وقبل قيمتها المادية (جورج برناردشو) ! وثمة من حازها ولم يسمح له بتسلمها (بوريس باسترناك) !

ان المبدعين الحقيقيين لا ينتظرون الجوائز، ولا يشغلون بالهم بها.. ولكنها، حين تأتيهم، تكون بمثابة التبريت على الكتف بعد رحلة طويلة وشاقة، ولكنها شائقة.. مثل رحلة الشاعر العراقي المبدع (حسب الشيخ جعفر)، ورحلة القاص العراقي المبدع (محمد خضير)، وكلا المبدعين هذين لم ينتظر ولا ينتظر جائزة، سوى جائزة الاحساس بأنه انجز ما يصبو اليه، غير ان مبدعينا (حسب) و (محمد) حازا جائزة (سلطان العويس) الاماراتية حيازة في وقتها المأمول....

نقول ذلك لأن هذين المبدعين في الشعر وفي النثر، هما مبدعان بالجوائز وبدونها.. والشكر لمن عرف قدرهما الابداعي والانساني، فنوه بهما وبابداعهما من خلال هذه الجائزة.

مهدي محمد علي



قفانبك:

رثاء الامال وادانة بارونات الخراب

اقام (ديو ان الكوفة) في لندن امسية ادبية بمناسبة صدور (قفانبك) وهو الديوان الثامن للشاعر عبد الكريم كاصد، وذلك مساء يوم ٢٠ / ١١ / ٢٠٠٢، ساهم في الامسية الفنان فيصل لعبيبي بمادة نقدية حول الديوان، وكذلك الدكتور رشيد الخيون، كما دعى الشاعر عبد الكريم للحديث عن تجربته الشعرية في هذا الديوان.. علما بان الفنان فيصل لم يحضر الامسية بسبب سفر طارىء.. في ماياتي نص المساهمات الثلاث.

فيصل لعبيبي

كان الشعر قبل اللغة وسيظل كذلك. الشعر ليس اللغة وانما لغة داخلية لحدث ما، يجري وصفه بالكلمات والصوات، فاللغة ليست الشعر بل وسيلة للشعر. والشاعر هو من يجعل اللغة تابعة له وليس العكس، لقد صرخ (ابو العتاهية) يوما في وجه خصومه قائلا: "انا اكبر من العروض" والشعر بعد هذا ليس الوزن والقافية والتفعيلة والنثر ولا حتى البحور، فكل هذه الامور، ماهي الا وسائل لظهوره واشكال تعلن وجوده.

يعتبر (ارسطو) واضع اول بحث منظم حول الشعر في اوربا، وما جرى بعد ذلك هو اعادة تاويل النص الارسطي، وكانت اوربا في القرون الوسطى تعتمد على الشاعر (هوراس) في هذا من خلال كتابه (الفن الشعري)، لكن عصر النهضة اجبر النقاد والشعراء معا على ضرورة قراءة (ارسطو) نفسه بدلا عن كتاب (هوراس)، خاصة في ايطاليا واصبحت الماساة والملحمة ومن ثم الكوميديا من عناصر الشعرية فيها، اما في المانيا فقد ظهرت الشعرية من خلال (لوسين وهوردر) وبروز المذهب الرومانسي مع (الاخوة نوفاليس) و (هولدرين) ومع (كولدرج) والرمزية، التي تمثلت في اعمال (ادجار الزبو) في بريطانيا وامريكا، ثم مع (مالارميه وبول فاليري) في فرنسا. الا ان كل هذه الجهود كانت تفتقر الى الاستقلالية التي ميزت ابحاث (ارسطو) وحيويتها النادرة. اذ كان شعر القرون الوسطى يعتمد على البلاغة والعلاقة بين العمل الادبي والكون حسب النظرية الايمائية (mimetique) وظلت فترة عصر النهضة تصارع هيمنة الكنيسة فاختلفت نتائجها بما هو لاهوتي وانساني معا، وفي القرن السابع عشر والثامن عشر ركز النقد على العلاقة البراجماتية بين العمل الادبي والقارئ، واهتمت الرومانتيكية بعبقرية المبدع وفرادته وشخصيته الغريبة والغامضة، ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اصبحت الابواب مفتوحة للافكار والاتجاهات المختلفة، فظهرت (الشكلانية ١٩١٥-١٩٣٠ formalism) في روسيا، متمثلة بجماعة موسكو ولينينغراد امثال: (رومان جاكوبسون، شلوفسكي، توماشيفسكي، بروب، ايخنباون، نينوكراذوف، نتيانوف، باختن، بريك، فولوشينوف) وفي المانيا برزت المدرسة (المورفولوجية ١٩٢٥- morphologie علم الهيئة) التي اهتمت بتراث (غوته) ورفضت التاريخية، بتاثير من (كروتشه وهوسلر) حيث ركزت اهتمامها على انواع الخطاب الادبي واشكاله اكثر من

اهتمامها على الاسلوب بينما افرزت حركة النقد الجديد في الادب الانكلو-ساكسوني، فسحة اوسع لاحتواء اكثر من نظرية او اتجاه نقدي، وظهرت قابلية للتأويل المتعدد والحيوي حول معنى الادب مع (أ. ريتشارد ودبل يو. امبسون) واشكالية السرد والسارد (الراوي) مع (ب. لوبوك، رينيه ويليك، واوستن وارن)، اذ تم توحيد الشكلائية مع النقد الجديد. وتأخرت فرنسا عن هذا النشاط حتى الستينات رغم جهود (مالارميه وبول فاليري) السابقة بظهور جماعة (tel quel) والبنويين امثال (ليفى شتراوس وجاكسون وبن فنست) وكتابات (موريس بلانشو) الفلسفية، والذين اثروا على اللسانيات والانتولوجيا (علم دراسة عادات وتقاليده الشعوب). اذ برز للوجود علم جديد سمي: علم النص (textologie) وبالساذات مع (جوليا كريستيفا، رولان بارت، امبرتو ايكو وغريماس)، ويقول (ت. تودوروف ودوكرو) في قاموسهما الموسوعي الهام في الشعر وعلوم اللغة: ان المختص في مجال الشعرية، لايهتم بمقولات الخطاب الادبي بل بالنموذج الادبي للعصر"، لان الشعرية هي بناء ميتانصي (ما وراء النص)، يستمد شرعيته من الاستراتيجيات المعرفية، كما يقول (جون ماري شيفر) في كتابة: (ماهو الجنس الادبي؟).

ابتداء علينا التخلّص من اللغة الارسطية الثلاثية: (الملحمي-الغنائي-الدرامي) فيما يتعلق بتقسيم الاثر الادبي، "لأنها نمذجة مزعجة" حسب كتاب (ماهو الجنس الادبي؟)، لكي نفكر في عمق الشعرية العربية نفسها لصياغة استلقتنا الجديدة، لان انعدام وجود الدراما عندنا ليس مرجعه الترجمة السيئة لكتاب (ارسطو) عن الشعر، بل لعدم حاجتنا لها اصلا، حيث تعودنا على اشكال اخرى للتعبير عن شخصيتنا، مثل التعازي ومسرح الظل ومجالس السمر والحلقة وغيرها. النص عند العرب يختلف مصدره عن النص في الغرب، فهو عندهم من اللاتينية (textus) التي تشير الى النسيج والخياطة، بينما تشير عندنا الى العلو والارتفاع والظهور والبروز اضافة الى حصره فيما يتعلق بالكتاب والسنة عند المسلمين منهم، يقول (ابن منظور) في لسان العرب: "النص هو رفعك الشيء، نص الحديث نصا، اي رفعه". قال (عمرو بن دينار): "ما رايت رجلا انص للحديث من (الزهري)"، اي ارفع له واسند ومنه المنصة التي هي المرتفع الذي يقف عليه الخطيب، ويرى الفقهاء ان نص الحديث او الآية يعني ما هو ظاهر اللفظ من احكام. وقد ارتبط النص في النقد العربي القديم بالشعر والنثر، فالشعر هو: "ديوان العرب وعلمهم وعمدة ادبهم وجامع اخبارهم وحافظ انسابهم ونظام فخارهم" الخ. ويقول (ابن رشيق) في كتابه (العمدة): "انما الشعر ما طرب وهز النفوس وحرك الطباع..". ويرى (حازم القرطاجني) في: (منهاج البلغاء وسراج الادباء)، "ان الشعر هو الكلام الموزون المقفى الذي يحبيب الى النفوس ما قصد تحبيبه ويكره اليها ما قصد ذلك". لكن (الجاحظ) يعتقد ان "الوزن والقافية وجودة السبك وسهولة المخرج وكثرة الماء وصحة الطبع، كل هذا وغيره صناعة، انما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير". وهو يقترب من المدارس الحديثة في هذا الشأن، خاصة اراء (تودوروف ودوكرو).

ان عيب جماعتنا في فهم المدارس الغربية الحديثة يكمن في استنباحهم وتقليدهم لها، دون تفكر او اعادة نظر، لان تاصيل المفاهيم والحركات الابداعية يتطلب ايجاد بيئة مناسبة لها وبدون ذلك سيكون الجهد المبذول هباء منثورا، ان الحداثة وما بعد الحداثة في الغرب يملكان تراثا يمتد الى عصر النهضة، اي ما يقارب تسعة قرون متتالية وغير منقطعة، وتتعرض الحداثة بما بعدها اليوم الى هزات في الوسط الذي نشأت فيه بالذات، فهل ننقل ازماتهما الى عالمنا المازوم اصلا؟؟.

كانت الحداثة في أوروبا قد تخلت عن قيم ما قبل الحداثة وكل ما هو روحي ومعنوي ومقدس في الحضارة الغربية، أما ما بعد الحداثة فتبدو أنها إعادة نظر لما جرى أثناء فترة الحداثة نفسها، مع اهتمام خاص بالحضارات غير الأوروبية، أي تفحص الجانب الروحي للحضارات ثنائية، وكلاهما تنتهم الأخرى باللاعقلانية. فالحداثة تنظر إلى ما بعد الحداثة كحركة معادية لإنجازات الفكر الأوروبي وداعية لأحياء الغرائز والمشاعر البدائية، بينما تنتقد ما بعد الحداثة، كونها قد ألغت المشاعر والانفعالات الإنسانية من قاموسها واعتمدت على العقل والمنطق الرياضي الذي تشك في قدرته في التعامل مع الأحداث والظواهر بحصافة وتدعم فكرتها هذه بالحروب التي قامت بين الأوروبيين خلال القرن العشرين وما قبله، وترى في أخلاق بعض الشعوب البدائية ما هو أرقى وأنبل فيما يتعلق بالآثار والتعاون والتضامن البشري، عكس المجتمعات الغربية المتفككة والمتفسخة من هذه الناحية. وحسب (مدرسة فرانكفورت) فإن العقل الغربي قد شيئا الإنسان وحوله إلى آلة أو بضاعة عكس الحضارات الأخرى التي بعثت الروح في الأشياء.

في رواية (أمبرتو إيكو)، اسم الوردة يسمم أحد رجال الدين كتاب (أرسطو): الكوميديا، ليقتل كل من يطلع عليه من رجال الدير الذي يعيشون فيه، حتى لا تنتشر السخرية بينهم وبالتالي بين الناس، لأن انتشارها يعني بالنسبة إليه التخلص من الخوف وعندما يتخلص الإنسان من الخوف، فإنه يبدأ بنقد القيم والأخلاق فيضعف إيمانه واحترامه للتقليد والدين والمقدسات والدولة والقانون. فينهار المجتمع. واستطيع القول بأن معظم مبدعي البشرية وثوارها يحملون في مشاريعهم المميزة مسحة من السخرية والتهكم، لأن تغيير ما هو قائم يحتاج إلى تسفيهه، حتى تتم القناعة بضرورة التغيير.

هذه المقدمة الطويلة نسبياً تفيدنا في معالجة أعمال شاعر بقامة (عبد الكريم كاسد) ومعاينة نتاجه الأخير (قفا نبك) وهي لا تغنينا قطعا عن مراجعة أعماله السابقة، حتى يكون الفهم أفضل والفائدة أعم، أنه يتذكر ويسئلهم مواضعه وهو خارج المكان والزمان، خارج بلاده وخارج زمان الأحداث والأشخاص، لكنه يربطها في خيط واضح، لأنها تراثه الذي يتكىء عليه وهو كتاب مفتوح للذي يدرك غناه وثرأه العميق، وابتداء من (حكايات من الحمراء) نرى الشاعر يمزج المرارة والخسارة الحالية بتلك التي كانت ويضيف لها مسحة السخرية القاسية وكأنه يقول كالمتنبئ: "أنه ضحك كالبكاء"، منهيا تساؤله لأبي عبد الله، آخر ملوك الطوائف في الأندلس، بالجملة التالية: "أين نمضي بهذه التركة بابا عبد الله؟". هل يطرح الشاعر سؤاله علينا نحن الذين سلمنا كل شيء؟! أما في (الحكاية الأولى) فإنه يعترف لنا بعد كل هذا العناء والتعب، كونه "أفقر خلق الله" وتأتي (الحكاية الثانية) لتفصح نموذجاً للدون كيوخوتية متكبراً راحه للطعان أمام هذا الانهيار العام وعجزاً يشبه عجزنا الحالي في مواجهة المحن "من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر!" و (الحكاية الثالثة) تصف (ابن خلدون) بدموعه التي لم يبق سواها بسعد أن تخلص عنه الأقربون وتوالت عليه النكبات، مع ما بذله هذا العبقرى من خدمات وإضافات للفكر الإنساني المتنور. أعمال الشاعر عموماً تمتلئ بالمفارقات والأسئلة والتهكم المرير من الواقع، متخذاً مادة التاريخ وتشابهه المواضيع معانداً، وهو في حنينه المر والمه لضياح الآمال في اندلسياته، يذكرنا باندلسية (شوقي) الرائعة التي مطلعها:

يانائح الطلح أشباه عوادينا

نشجى لو أدبك أم ناسى لو أدينا

ماذا تقص علينا غير أن يدا

قصت جناحك جالت في حواشينا

لما ترقرق في دمع السماء دما
 هاج البكا فحضبنا الارض باكينا
 نفس الالم والحسرة والمرارة نراها في (الحكاية الرابعة) حيث يقول:
 "من برج الحمراء
 تسمع غرناطة في الريح انينا
 وقع حوافر تنأى
 وهدير لمياه يصبغها الدم
 غرناطة تبكي"

ليس كالمبدع من يدرك الخسارة و(عبد الكريم كاسد) قد عاشها خطوة خطوة ولحظة لحظة، غربة وعوزا وضياح احلام وامال وقيم وانقلاب وميادىء، جحودا ونكرانا وتجاهل رفاق الدرب والاصحاب والاهل والخلان، وهذا واضح في معظم اعماله الشعرية المنشورة، التي اخذ يغلب عليها التأمل والتفكير والحكمة والسخرية المرة..

فرسان، عشاق، مفكرون، ثوار، شعراء، علماء، رجال دين، فقهاء ومؤرخون، هم مادة الديوان، هل كانت غرناطة امل الشاعر الذي ضاع ونجمه الذي افل؟ بعد تتبّع مضن وطويل مسحورا بحلم لم يتحقق بعد، هل هي بغداد ام البصرة؟ ام العراق كله!، فالقصائد تحمل دلالات واسئلة محرقة ورموزا لها صلة بالواقع الحالي لمحتننا، انها اشارت موحية بدلالاتها المتعددة: اخلاقية، سياسية، اجتماعية. ففي (جنون ابن الهيثم) يتساءل الشاعر عن الذي دفع ابن الهيثم للعودة الى مصر ثانية؟ وهو البصري المغترب مثله! وفي (حكاية من الاندلس) يستذكر زوجة (ابن ابي نسعة عثمان)، الذي تركت جثته نهبا للنسور، اذ تقاد من قبل جنود الخليفة الى دمشق، لانه رفض الاغارة على جاره المسيحي (الكونت اود) متسائلا: "كيف ترى يغزو جارا".

تعالج (سيدي الطبري) و (محنة ابن حنبل)، الضمير وازمته ومتطلبات السياسة وصدق العارف والمؤمن المبلى، اما في (سلاجقة) فنراه يتهم على ما الت اليه الامور وهزال الاحوال وتطرطرها. والنهاية التراثية لفرسان الفتح الاسلامي في شمال افريقيا (موسى بن نصير وطارق بن زياد)، نجدها في (هتاف)، حيث لا امان للسلطة الجائرة حتى لو تسمت بالدين ولقب حاكمها بخليفة المسلمين او امير المؤمنين، فالغدر من صفاتها، اذ يسيل الدم من خلف الستارة وتندرج الرؤوس، في مؤامرات القصور وبين الغلمان والمخصيين والجواري والعبيد. وتكشف (واقعة شعرية)، التباس العلاقة بين الشاعر والسلطان، بين المبدع والسياسي، من خلال (المعتضد بالله) والشاعر (ابن زيدون) في تبادلها الانتخاب، فيما راس ابن (المعتضد) البكر يتلى من شجرة، كانه مشهد اشوري، يتكرر في زمن اخر ولايزال يطالعنا حتى هذه الساعة في بقاع عدة من بلادنا العربية وتكبر اسئلة الشاعر في (سؤال)، اذ يدفعنا في معظم قصائده تلك الى الحيرة والتمعن بصروف الزمان القديم-الحديث معا، حيرة في اختيار الموقع والنبات على المبدأ، كما انه يشير الى اشكاليات السياسي والفقي والتقافي والاخلاقي. وربما كانت (بشارة) العمل الوحيد في الديوان الذي ينم عن تفاؤل، لكنه مشوب بعدم الثقة او التصديق، وقصيدة (الحذاء والملك) ترينا السخرية المرة واختلاط الحال، بعد ان يصبح الحذاء تاج راس الملك بينما ياخذنا الشاعر الى عالم السحر والالغاز والتضادات والغموض في (شواهد المعري) و (في بلاد العجائب)، هل يحذرنا الشاعر من مغبة الامتثال الاعمى لما هو قائم؟ هل يدعونا للخروج على اسس العالم الذي يحيط بنا؟ هل يسخر منا؟ كل هذا مرهون بقدرة المتلقي

وحساسيته ووعيه او موقفه:

"خلف كلمات التبجيل

ثمة شيء هش"

.....

"كل شيء ورق

النجوم والسماء

الحدائق والاطيار

الجنود والملكة

القصيدة والشاعر

كل شيء

كل شيء..."

تأتي قصائد الاحلام ككو ابيس بديلا للاماني والامال، انها التجربة المرة التي تركزت بين يديه لا النجاحات. وفي (الواح)، يلتفت الشاعر الى ارثه الاقدم في حضارات وادي الرافدين التي تعد مصدر كل ماجرى بعد ذلك للمنطقة من امور، واظن ان ذلك انعطاف نحو الجذور سيلعب في اعمال الشاعر القادمة دورا عميق الاهمية، فاعمال مثل: (السفيه)، (صوت)، (اوتنابشستم)، او (الجوقة)، لا يمكن ان نقرأ بدون احالات او تاويل بعيد الدلالة والمغزى، بينما نجد في: (قراءة في كتاب الجواهري)، عودة لما الفناه منه في قصائده السابقة، لكنها لاتخلو ايضا من اشكاليات الفترة وتبتعد عن هدف الشاعر في المجموعة، يقول في (رؤيا):

"ياأبت

ابصر فوق عمود الشعر

ظلالا تهتز

وحبلا يتدلى"

ولانه يتوجه الى الجواهري الذي يعرفه، كانت قطعة: (كلاسيك) من القطع المثيرة في لوعتها، وقد خاطب "رب الشعر مهدي الجواهري" كما نعتة مرة الشاعر (معروف الرصافي)، فجاءت موزونة ومقفأة، كما يحب (الجواهري):

"أنبيك اني بدار ليس ساكنها

الا الحثالة من مكذوبة النسب

يبكون منفي وفي المنفى لهم وطن

يفدون به برخيص الروح والنشب

انبيك ان بغاث الطير قد نطقت

وان جل خيول القوم من قصب

.....

لله كيف استحال المرتجى اجلا

وكيف اصبحت فتات غاية الارب".

مذكرا (الجواهري) ومذكرنا بدجلة الخير، اذ يقول فيها (الجواهري):

يادجلة الخير قد هانت مطامحنا حتى لادنى طماح غير مضمون

في عمله الشعري الأخير: (قفا نبك)، نأتي على نهاية الديوان، فهذه القصيدة تحيلنا الى محاولات سابقة لشعراء عرب واجانب، واذا كان (شوقي) قد حاكى (البوصيري) في نهج البردة والـف مسرحية شعرية للعشاق والمحبين، و (يوسف الصايغ) كتب (اعترافات مالك بن الريب)، مستلهما قصيدته الشهيرة، فان (عبد الكريم كاسد) ذهب الى المعلمات، التي تقترب من القداسة لدى البعض، اذ تكمن صعوبة التناول وحساسية الاختيار.

قد تبدو هذه القطعة الشعرية لدى بعض القراء عملا شيوانيا بالمعنى الرخيص، وهذا ما يبدو للوهلة الاولى، وعلينا ان نؤكد ان المرسل (امراً القيس) كان يروي لنا، نحن المرسل اليها (المستمعين والقراء) من خلال الرسالة (النص)، ازمة مختلفة واماكن متنوعة في فترات متباعدة، فيها الماضي والحاضر، وليس عملاً قد تم القيام به في وقت واحد، فهو يتكلم عن حياة طويلة، انه يقوم باعترافات، ومن هنا يبدو اختيار الشاعر (عبد الكريم كاسد) مهما لهذا النص بالذات، وهو ما اود التطرق اليه في هذه المقالة المتواضعة والتي لاتفي النص حقه قطعاً. ساحاول التحدث عن الشعرية ودلالات النص وسردياته، ففي القصيدة متضادات وتوافقات عديدة، اضافة الى تنوع الذوات والامكنة والحركات والاشياء ولكل هذه العناصر مستواها الخاص وعلاقتها بالمستويات الاخرى، كما اننا نلاحظ السلبي والايجابي ايضا، دون ان ننسى اختلاف الشاعر الاول عن الشاعر الثاني الذي اعاد صياغة النص بلغته الخاصة. تبدأ القصيدة عند الشاعر (عبد الكريم) كما يلي:

"قفا نبك من منزل لحبيب

عفته الرياح"

فلم يقل "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" كما في القصيدة الاصلية، وهي بداية موفقة لانها تشير الى الاصل وتكسر استمرارية هيمنته لصالح النص الجديد، تتعدم الذكرى هنا من المقطع لتحل الرياح بدلا عنها، لتؤكد على الذاكرة، ومنذ البداية تظهر المفردات الحزينة والسلبية: قفا=عدم التحرك/نبك=الالام/عفته الرياح=الهجران والتخلي/وتتوالى الاحزان في المقطع الاول: ففي الصفحة الاولى نجد اربع جمل توحى بالحزن والانكسار:

قفا نبك في الاولى/دمعي شفائي في الثانية/فاض دمعي في الثالثة/سال على النحر في الرابعة. كما ان الشاعر في اعتباره الدمع شفاء والديار الخالية انيسا له، يؤكد وضعه الراهن (الحاضر)، في المقطع التالي نجد الحالة قد تبدلت واصبحت تناقض الحالة الاولى، فالشاعر يحكي لنا عن متعته الخاصة بحرية تامة (العودة الى الماضي) وبوصف من يحب وكيفية ممارسة الحب معه وباوضاع مختلفة: فوق الراحة/دخل خدر/على ظهر الرمل، ثم المخاطرة والمجازفة بالحياة، ومن الوصال والتودد والمناشدة بتقليل التذلل، ينتقل الشاعر الى مناخ اخر للوصف والتغني بجمال معشوقته: "ياللصبا وهي تحمل ضوعك اني التفت/اضوعك ام هو ريا القرنفل/تمايلت بيضاء ضامرة الخصر/هفافة/مصقولة انت/كالدرا ابيض اصفر/جيدك، جيد المهامة هو الحلبي دون حلي"، وهكذا تتدرج الصور وتتعدد مستويات السرد وتتمو القصيدة في احضان اللغة فتتشكل شخصية المفردات داخل بناء العمل. ولا ينسى الشاعر النص الاصيل بين مقاطع نصه الجديد وهي محاولة اقرب الى التغريب عند بريشت التي توقظ في المتلقي احساسه باختلاف النصين، قبل ان يستغرق في النص الجديد وبالمقابل فان هذا التشكيل يعطي النص ماتعطيهِ العناصر المختلفة التي تستعمل في الفنون الاخرى (رسم/نحت/موسيقى/مسرح/ادب/سينما.. الخ). واذا تطرقنا للحوار داخل النص، فاننا نلاحظ مستويات مختلفة

ايضا، فهناك حوار الابيض والاسود على انورق (الحزوف وبياض الورقة) / حوار الكلمات (الدمع-سال) / حوار الصوت (كلام-صمت) / حوار العين (الكتابة-البصر) / حوار الاحاسيس (جراة-خوف) / حوار العاشق والمعشوق (فسالت لك انويل / قسنت وقد مال هو دجها و ادنى الرحال: سيرى و ارخي الزمام / افاطم مهلا اقلى التلال / هسنت و هي مبهورة: مالنا حيلة عنك) الخ / حوار الزمان (الليل-الصباح-العشى-الضحى-الماضي-الحاضر) / حوار المكان (الديار-الغدير-الخنز-الرمل-العشب) / حوار الحركة (حركة الحصار-حركة اجساد المحبين اثناء عمليات الحب-حركة النسيم-حركة الشاعر مع احسان و المعشوقة مع النافذة).

يقول (باختن): "الشاعر مقيد بفكرة لغة واحدة وناذرة ولفظ مغلق على حوار داخلي.. على الشاعر ان يملك طريقة سير وسط تعدد لسانی قائم.. عليه ان يملك لغته ويتخلل مسؤوليته كاملة عن جميع مظاهرها و عليه ان يخلص اللغة من نوايا الآخرين" فالشاعر مطلوب منه ان يوظف اللغة حسب نبرة صوته وطريقة الالقاء وتركيب اللغة وتعدد الاصوات ومرونة السرد، هذا يذكرنا (بالجاذب)، رغم احادية الصوت في الغالب، وهو ما نراه في هذا العمل الجميل.

مع الاسف لا نجد في انتاج الشعر العربي الحديث ما يوازي السرديات الهامة في اشعار الشعوب الاخرى و اذا استثنينا شعراء محدودين، فاننا نلاحظ هذا الفقر الواضح. شخصيا لا اعتبر نفسي قادرا حقا على ذكر الاسماء الالامعة في هذا المجال، نظر الحساسية العالية الشعراء وربما يكون اختياري اقرب الى ذائقي الخاصة و تواضع معلوماتي و فقر اطلاعي على نتاج الشعري الحديث، وهذا يقلل ويضعف حجتي فلا يعتد بها، لكنني استطيع القول ان هؤلاء الشعراء القلائل في شعرنا العراقي خصوصا، قد اغنوا المقاصد الجمالية التي تتناسب مع تطور ونمو النص الشعري عندنا ابتداء من السياب. ان ما تم انجازه يعتبر نقلة نوعية من النموذج الغنائي الممل والضيق الى فضاءات جديدة تتحقق فيها ابعاد ما يربد الشاعر ابعاله و اعرف ما يستطيع المتلقي التوصل اليه، اما القصيدة، فهي تشكل حواريتها الخاصة داخل نسيج النص وحسب حاجتها اليها، فكل نص، مهما انغمز بذاتيته، فهو يحمل حواريته الخاصة التي ترتبط بالنصوص التي قبله والنصوص المعاصرة له، فبيناك دانما (تهجين) لغوي مستمر و (تعالق) قائم بين النصوص كما يقول (باختن) في اطروحة الهامة: (جماليات الرواية ونظريتها) والتي تحدث فيها عن الشعر ايضا وعلينا ان لا ننسى بان للنص مظاهر هي:

المظهر اللفظي (verbal): يتشكّل عن طريق الوحدات اللسانية/الجملة/النحو/الصوت/المظهر التركيبي (syntaxique): ويشمل العلاقات بين الوحدات النصية والجملة.

-المظهر الدلالي (semantique): وهو حصيلة مركبة من مضمون الوحدات اللسانية دلاليا.

الواقع ان النص يحمل دلالات متنوعة اذ ان لكل شخص تأويله الخاص وربما تأويلاته المتنوعة للنص الواحد حسب الحالة التي هو فيها، وربما يجد نفسه مضطرا الى تبني دلالات متناقضة احيانا لنفس النص. (قفا نبك) تشكل مع سائر القصائد اطار الديوان رغم مغايرتها لروح القصائد الاخرى، فهي ترنيمة للذات، فيها من الخيال والصور ما يختلف مع رانعة (امرئ القيس) وفيها ما يلتقي معها، حوار داخلي ووصف لعلاقات وذكرى غرام مضى وتنهيدات العمل الجميل واستذكار لما كان وكان. في هذا العمل يستعيد الشاعر صباياه و أحلام الشباب، عالمة الذي لم يعد الاصورا بعيدة، مبهمة، فلم يجد الشاعر اجمل من معلقة (الملك الشاعر ذو القروح)، ليعالج بها ما يعتريه من تباريح، بها تنتهي المجموعة، وترتبط ايضا مع اول القصائد

وبأبي عبد الله بالذات، حيث الوجد والمجد الضائع والعواطف المشوشة والتوتر والاحاسيس المتناقضة، آخر الكأس التي افضت الى الانتهاء، رحيق الازهار الذي اشرف على الزوال، الايام الرخية، مواعيد الحب البعيدة والباقية كعلامات على صدر العاشق المنكسر والخسران، اختلاس الفرص الهاربة، الترقب، الحذر، الخوف، الاثارة، ولذة المغامرة، الخجل والبراءة والخوف من الفضائح وخرق التقاليد والمحرمات. ان مجموعة الشاعر الاخيرة، الغاصة بالمرارة والحسرة، هي وثيقة هامة من وثائق الفترة التي نعيشها، وشهادة صادقة عن ايامنا الحالكة وامالنا الضائعة، التي دمرها دهاقنة السياسة عندنا والانقلابيون وقيادت الاحزاب الفاشلة والحركات المنفلتة من عقالها والتي تريد ان تقود الوطن بالادعية والحروز والشعوذة والخرافات والارهاب.

وفي الختام. هذا عرض سريع للمجموعة، لاتفي الحاجة ولا تلامس العمق، استطعت ان احصي فيها اكثر من (٢٧١) مفردة توحى بالحزن والخسارة والالم والفقدان او الموت والدم والندهور، في (٦٥) قصيدة اغلبها قصيرة، وهو ما يحتاج الى المعالجة تعتمد على التفكير والبناء وعلم نفس اللغة مع الاعتماد على مجموعات الشاعر الاخرى، متمنيا ان يتصدى لها من هو مختص بالنقد الادبي حقا فيوليها العناية التي تستحقها.

قفا نبك

رشيد الخيون

في مجموعة الشاعر عبد الكريم كاصد (قفا نبك) توالى الازمنة وتناثرت الامكنة، واصطدم عصر الجاهلية بعصر الحنابلة والموجات الصليبية، وتخاصم (ابن حنبل) مع محمد بن جرير (الطبري) وتصالحا في المحنة ذاتها، وتترده (عبد الرحمن بن خلدون) من سيئات السياسة واغتسل بماء رحلاته وانكساراته، وتحدث الشاعر نيابة عن (فريد الدين العطار) بلسان الطير. قصائد كلفت قائلها رحلة في الماضي، ربما كان عزاءه من حاضر ليس فيه ما يسر، او ما يلفت النظر، فداهم ابا العلاء (المعري) في صومعته، والطبري وهو يحمل جنازته هاربا من شغب الحنابلة باحثا عن قبر يرقد فيه رقدته الابدية. وقفة امام اطلال الاندلس قادت الشاعر الى مناجاة آخر ملوك الطوائف المكنى بأبي عبد الله:

يا ابا عبد الله

الطريق الذي قادني اليك

قادك الى السفح

حيث السماء تجلس باكية

والقمران

حولها يسهران.

وكتب لخرناطة والامام الملقب بالقرطبي ولمن مات تحت اسوار غرناطة وقد عاشت زمنا محاصرا بين فاتح ومحرر، وليس بين الاثنين غير توالي الايام، يوم لهذا ويوم لذاك.

من برج في الحمراء

تسمع غرناطة في الريح انينا

وقع حوافر تنأى

وهدير المياد يصبغها الدم

غرناطة تبكي

غرناطة من برج في الحمراء.

الحسن بن الهيثم (ورد اسمه في كتب التراجم مرة بمحمد بن الحسن بن الهيثم، ومرة بالحسن بن الحسن بن الهيثم) مكتشف سقوط الضوء من الأجسام على العيون، فغير بهذا الاكتشاف ما كان سائدا في شأن فيزياء الضياء، فقال الشاعر على لسان العالم:

في يوم اسود

عاد ابن الحسن بن الهيثم

من اعلى النيل

الى اسفله

يتبع شمسا بيضاء

ويرى ظله مشنوقا

يتدلى من اعلى السقف

فأرتج..

وقام الى ظله مرتعدا

بيكي.

وابن الهيثم عالم بصري عاش بمصر في العصر الفاطمي، ذلك العصر الذي بنى القاهرة وازهرها، لكن العسكر المتمثل بصلاح الدين الايوبي اطفأ العصر الفاطمي وعين ابن الهيثم، وان حمل صليب كنيسة القدس الى بغداد، ووضع امام بوابة دار الخليفة العباسي تأكيدا لولائه لاهل السنة عبر دار الخلافة، فاستلهمت سلطة بغداد التجربة فوضعت صورة كبيرة لجورج بوش تداس بأحذية نزل لاء فندق الرشيد، وصلاح الدين لم يحرص على صد الصليبيين حرص الفاطميين والاسماعيليين، ومع ذلك لم يعف الايوبي من قتل السهروردي ولا غلق باب الازهر، وفي الامر اسرار ستفتح بعد حين.

قال الشاعر البصري عبد الكريم كاصد مناشدا جده ابن الهيثم:

ياجدي البصري

ترى من قaddock ثانية

منطفئ العينين

الى مصر

والقى ظلك في اعلى النيل؟

ياسيدي الطبري

أعو ان ابن حنبل

اسرجوا جنا إليك

وغادروا دار الامامة خلفهم حجرا

ودارك

من سيحرسها؟

بدأت محنة محمد بن جرير الطبري (وهو من اعلام القرنين الثالث والرابع الهجريين) مع كتابه "الفقيه والمتفقه" ففي هذا الكتاب كتب، وهو المؤرخ والمفسر، ان ابن حنبل ليس فقيها وانما كان محدثا، فشيخ الحنابلة كما ورد عنه انه يفتخر بجمع الف الف حديث نبوي، اي جامع المليون حديث، فما له والفقه؟ وهو لا يقبل الحوار والمناظرة ويرفض علم الكلام والجدل.

وكم كان الطبري محقا برأيه هذا حول ابن حنبل، فالمذهب الحنبلي لم يتبلور الا بعد فتاوى ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، مع ان شيخ الاشاعرة ابا الحسن الاشعري اتخذ من ابن حنبل اماما في تحوله عن الاعتزال فقط، مع انه شافعي الهوى.

وحجارة الحنابلة حبست الطبري عشر سنوات في داره، وكم حاول حوارهم لكنهم لا يحضرون المجلس، وامتدت محنته الى محاصرة جنازته فدفن ليلا.

وكان الشاعر قصد الموازنة، بين المحنتين، محنة ابن حنبل ومحنة الطبري بابن حنبل. وقال:

يا احمد الفقراء

ما شايعتُ فقهك مرة

اوزرتُ قبرك

او مشيتُ وراء مَنْ صلوا عليك

وان اردت الصدق

ما منيت نفسي باصطحابك

بين اتباع حنابلة.

بدأت محنة ابن حنبل مع مقالة خلق القرآن، والرجل ما كان رافضا لو اتت مؤيدة بقرآن او حديث نبوي، ولم تكفه الآية تأييدا: (اذا جعلناه قرآنا عربيا). وبشهادة اتباعه وولده صالح انه ضرب لحد الاغماء، وبشهادة خصومه ومنهم الجاحظ في رسالة خلق القرآن، انه لم يضرب غيره عدة اسواط لينة، لكنه الضرب هو الضرب ان كان مبرحا او شديدا، وقبر ابن حنبل ذهب بفيضان من فيضانات بغداد على الارجح فيضان ٦١٤ هـ، ففيها اختلطت رؤوس واطراف ائمتها من المدفونين في مقبر (ابن حنبل) لتتوحد في قاع دجلة.

ورسالة الغفران حضور في مجموعة عبد الكريم كاسد، قال:

استحلفك بالله يا ابا العلاء

ان تقول لرضوان ان يفتح الباب

ليحمل عني هذه العصا

- وان شاء - هذا الكلب

الى صاحبي الحطيئة

فقد وردتني اخبار

عن وحشته في الجنة.

و ابو العلاء لازال لغز يحير الالباب، فمرة هو الملحد الذي حاول الصعود الى طور سيناء،
ولما لم يجد احد يكلمه كما حظى موسى بكلمات الله قال:
لقد اسمعت لو ناديت حيا

- ولكن لاحياة لمن تتادي

ولو نار نفخت بها أضاءت

ولكن انت تتفخ في الرماد^١

ومرة يؤمن بعمق وكأنه معروف الكرخي، لذا قال عنه الحنابلة على لسان شيخهم ابن
عقيل: انه الملحد البارد، وان غفروا له لزومياته فلن يغفروا له رسالة الغفران، والتي تلقفها دانتي
في ملهاته وجحيمة.

وفي الحكاية الثالثة يتحسس الشاعر كاصد دموع ابن خلدون وهو (ينحني فوق ايامه النياقيات،
وقد خانه الاقربون) ..

ولا ادري لماذا نفرت انا من (ابن خلدون) مثلما نفرت من (عباس محمود العقاد)، نفرت من
الاول لكثرة سعيه في السياسة، وقلة وقته، في كتابة مقدمته، ونفرت من الثاني لملي من حروفه
وافكاره وجموده وتجنیه على العراق في اكثر من مناسبة، فهو يحصر كره ابي نواس لمصر انه
اشتياق الى الاباحية بالعراق، ولم يغفر له قوله بمصر:

ان تكن من فرعون فيكم خصاصة

فعصا موسى بيد خصيب(*)

وخصيب هو والي مصر العباسي

وان خصص ابن خلدون كل عمره للمؤامرات سلما وحربا، خصص لمقدمته وتاريخه العبر
سنة اشهر، اعتزل خلالها في حصن بقلعة قصية، وقوله انه كتب مقدمته بسنة اشهر فتح العيون
عليه، ليكتشف انه انتحل الدورة الاجتماعية وما ورد في مقدمته حول الجماد والنبات والحيوان
والانسان والدولة من رسائل اخوان الصفا، ولم يذكر هذه الجماعة لا بالاسم ولا بالاشارة،
ويكفي القارئ او الباحث ان يشك في امر ابن خلدون الاختلاف الكبير بين المقدمة والتاريخ مع
انها جزء من تاريخه. ولعله لم يعلم بما كتبه ابو حيان التوحيدي في الامتاع والمؤانسة، ذكرا
الجماعة التي ابسدها، ولا زالت المذاهب تتسبب هذه الرسائل المفخرة الى ائمتها،
فالاسماعيليون يقولون انها من بنات افكار الإمام المستور، وإماميون يقولون انها من بنات
افكار جعفر الصادق، وابن خلدون شيد عرشه بسنة اشهر، ومع ذلك فالرجل اعطته السياسة
واخذت منه لينتهي مصافحا تيمورلنك.

المجموعة الشعرية ذكرت بالسلاجقة والصليبيين وقصر الحمراء وحدائق قرطبة وشمس
الاندلس، وانتهت بقفا نيك، فالشاعر وقف يسمع همس اطلاله، التي لم يبرحها امرؤ القيس ولا
ابو العلاء المعري، فتراه جالسا مع الجواهري "وهو يشعل الحرائق كلها جطبا" ليتأمل محنته:

هأنت تخاطبك الاشباح

وحيدا

لايسكنها الناس

ولا يقربها
حتى الشعراء.

قفا نيك وغياب الشاهد

عبد الكريم كاصد

لم يكن التراث غائبا عن مجموعاتي الشعرية السابقة، فقد احتوت هذم المجموعات على قصائد استوحيت (الف ليلة وليلة)، وكتابات المتصوفة، وابن خلدون، وأبي العلاء المعري، وأحداثا كعام الفيل، ومدنا غابرة، حقيقية أو متوهمة، وامتدت لتستوحي أشخاصا ونصوصا من تراث الانسانية، فقد كتبت عن طاغور والابانيشاد، وتشيكوف في (سيادة الكلب الصغير)، ودستوفسكي في (الزوج الابدي)، وبولغاكوف في (المعلم ومارغريتا)، ورامبو، وكامو في (مقصلة)، ولويس كارول في (الس في بلاد العجائب)، وجلال الدين الرومي، وهاملت، وماكبث، وغوته، وآخرين، في قصائد تعاملت فيها مع هذا التراث من خلال التجربة الشخصية وليس من خلال التجريد والمعرفة وحدهما. في قصيدة (الصلب) مثلا وهي من مجموعة (نزهة الالام) استوحيت رواية (المعلم ومارغريتا) لبولغاكوف التي اتخذت من شارع اربسات في موسكو مسرحا لها، وشغلت قصة صلب المسيح جزءا كبيرا منها، ولم يكن هذا الاستيحاء وليد رغبة معرفية، بل كان وليد ظرف خاص وجدتي فيه، مرة، سائرا في شاعر (اربسات)، أثناء استشفائي، وقد استحضرت عالم الرواية وكانني اشهد صلب المسيح ثانية في عالم تتداعى اشيائه حوالي وفي داخلي، فلم اعد ارى في حاضر اربسات الا طريق الجلجلة وهو يوصلني الى هذا المشهد:

عند اربسات

رأيت الله يدعوني فاقبلت عليه

ثم لم ابصره

كان الورق اليابس يساقط

والرياح تمر

وعلى الشارع

بحر هائج من سقط الناس

واربات بأحجاره لم يهرع الى الصلب

ومحكمون يمضون الى الصلب

وجند خائفون

قلت لو كلمني الله

لو ان الشجر الصامت لم ينعق

وهذي الشمس لم تدن من الارض

لو ان الرب

اخرقت قليلا

ثم ناديت على السائر خلف الموكب اللاهث

من شعر يتناول التراث. فقد تكشف أبيات معدودة للشاعر عن جوهر موضوعه.

في قصيدة ابن حنبل وجدنتي اراء مشكلات شتى: موقفي المتعاطف مع ابن حنبل في صراعه مع السلطة و اختلافي معه في مواقفه الفكرية، موقفي من الحنابلة الرافض لمواقفهم الفكرية والحياتية معا، واخيرا موقفي من المعتزلة المتعاطف معهم فكريا و الرافض لضلوعهم في السلطة.

كيف ترى يتأتى للقصيدة ان تحتوي كل ذلك في شبكتها على حد قول الشاعر الصيني من دون اي التباس قد يضر بها ويحيلها الى مجرد حبال بالية لشبكة مقطعة ملقاة على ساحل الشعر؟ لم تحضر هذه الاسئلة، عند كتابتي القصيدة، عبر الرؤية الفكرية وانما حضرت عبر رؤيتي الشعرية التي كان هاجسها تجسيد التجربة، تجربتي الروحية وتجربة ابن حنبل في أن واحد لتثير القصيدة اسئلتها الخاصة بها: هل نتعاطف مع الانسان في مواقفه ام افكاره؟ وما جدوى الافكار اذا ما افتقدت نبضها الانساني في الواقع العملي؟ الا نجد انفسنا احيانا متعاطفين مع من نختلف معهم في مواقف معينة، ومختلفين مع من نتعاطف معهم في مواقف اخرى؟ الا نجد مانفتقد احيانا من فضائل مجسدة في من نحبه، ونكره ذائل مجسدة في من نحبه؟ كل هذه الاسئلة وغيرها يمكن ان تثيرها القصيدة ولكن ما يهم الشاعر ليس الافكار بالدرجة الاولى وانما تجسيد عالمه الشعري بكل تناقضاته وتفاصيله التي تتصارع لتولد وحدة القصيدة المكتفية بذاتها من دون احالات الى المصادر التي لا تقوم القصيدة من دون الاشارة اليها، لذلك وجدنتي مسوقا الى تقديم القصائد بلا تفسيرات، كاسرا ما هو مالوف سواء اكان اشارة او احالة الى مصدر او مقولة شائعة. ما أكثر ما يتناهى الى سمعنا: "هذا حنبلي" ولكن شئان ما بين هذا التصور وبين ابن حنبل الحقيقي. شئان ما بين ابن حنبل الذي سار خلف جنازته الآلاف من الناس وهذا ما لم تشهده اية جنازة في تاريخ الاسلام كما يذكر ابو العلاء المعري في رسالته التي رد بها على ابن القارح، وابن حنبل الذي اشاعه الحنابلة. شئان ما بين ابن حنبل المنطقي الذي اخرج المعتزلة في تفنيده حججهم حول خلق القرآن واتباعه المتعصبين من الحنابلة اعداء المنطق، الذين سجل التاريخ فعلتهم المشينة في الاعتداء على الطبري ورجمه بالحجارة وهو الشيخ الطاعن في السن، شئان ما بين ابن حنبل المدافع عن فكره حتى الموت، وان اختلفت مع هذه الفكر، وتحمله العذاب الجسدي الرهيب وبين موقف المعتزلة المهادن للسلطة، شئان ما بين ابن حنبل كما تراه القصيدة وبين ما هو متوهم. أو حقيقي في التاريخ، وهذا لا يعني ان الشعر بلا او هام، فالقصيدة او هامها ايضا، لكن ما يهم الشاعر ليس تقديم حقيقة او توهمه بقدر ما يهمه تقديم عالمه الشعري الذي يحتوي النقيضين بشكله القادر على التعبير عن شخصيته وموقفه الحياتي من المشكلات التي تطرحها القصيدة في تعاملها مع الواقع الحاضر أو التاريخي عبر جسيمة التفاصيل التي لا يمكن للخطأ أو الصواب ان يكونا مقياسا لها ابداً:

يا أحمد الفقراء

ما شيعتُ فقهك مرة

او زرتُ قبرك

او مشيتُ وراء من صلوا عليك

وان اردت الصدق

مامنيت نفسي بأصطحابك

بين اتباع حنابلة

و اتباع تنابله
و اتباع طغوا واستكبروا بالله
لكني بكيتك في طريق الشام
مغلو لا الى جمل
تشيعك المدائن
ام تحييك المدائن؟
مطرقا
و النجم لا يأتي
و شمسك لا تمر
ورنة الاصفاذ تقطعها الحوافر
و الثغور كأنها رجز الفرات تصيح:
"مت جبلا
ليحيا الناس"
هل أبصرتهم يأتون...؟
موكبك الفقير يسير في عرض السماء
يقوده ملك
و تحرسه ملائكة
و ربحك اقبلت يا أحمد الفقراء
انت الي اقرب من يد
تقضي بسيف العقل
انت الي اقرب من يدي اليمنى
و ابعد من حنابله
و اتباع تنابله
و اصحاب طغوا واستكبروا بالعقل
انت احب الي يا أبت

لقد سرني ان يعبر لي صديق يقيم في الدنمارك عن حبه لهذه القصيدة.. حبه الذي دفعه الى قراءة كل ما يقع تحت يديه من كتب ودراسات عن ابن حنبل لتكتمل صورته لديه. وهذا في رأيي اجمل تقرير للشعر ان تكون القصيدة حافزا لنصوص اخرى وليس العكس. هذا التغيير في الواقع هو مهمة القصيدة.

في تاريخنا يجري تبجيل الاشخاص وتعظيم الحوادث ولكن ليس هناك من يتساءل عن التفاصيل الحياتية لهؤلاء الاشخاص او الاسباب الحقيقية التي كمننت وراء الحادثة.

لقد امتد الهتاف للبطلين طارق بن زياد وموسى بن نصير من العصور حتى وقتنا الحاضر، ولكن ترى هل هناك من تساءل عن دم البطلين الذي سال من وراء الستارة في دمشق ولم يره احد وسط دوي هذا الهتاف الذي لم يتقطع بعد كل هذه السنين؟ هل هناك من تساءل عن رقعة الشعراء التي يختفي وراءها قدر هائل من اللامبالاة وحب الذات والقسوة احيانا؟

في قصيدة (واقعة شعرية) وهي ليست شعرية على الإطلاق يجلس الملك المعتضد بن عباد وشاعره ابن زيدون في حديقة غناء تزينها الجماجم. من بين هذه الجماجم جمجمة ابن المعتضد الأكبر. هذا الشاعر تصوره كتب التاريخ الرسمي وغير الرسمي شاعرا رقيقا وعاشقا مستهما لولادة بنت المستكفي، وهي التي كتبت عنه افحش الاشعار، وبطلا قوميا يمثل شخصه عبد الله غيث في واحدة من المسرحيات المصرية التي حصدت الكثير من الجوائز.

كم من الشعراء من يشبه ابن زيدون؟ او صاحب بن عباد الذي يتلوى من اللذة امام مادحي نثره الرديء كما جاء في قصيدة (ما رواه ابو حيان)؟

لعلنا كلنا نعلم مقدار المحبة او البغض التي يحملها الكثيرون من متعصبي الملك والمذاهب لشخصية الزبير بن العوام ولكن هل تساءل احد من هؤلاء المحبين او المبغضين عن حيرة ابن العوام وهو يردد بعد عودته من معركة الجمل وقبل اغتياله بلحظات، ربما، على يد عابر طريق مبغض: "والله ما هذا بخيار يا ابن العوام" كما يروي الطبري في تاريخه.

لقد هزني أسفه هذا هزا عندما قرأته لأول مرة، ووجدته وكأنه ينطق بلسان اسفي. انا الذي لم تستهوني يوما شخصية الزبير بن العوام. كم من خيار لنا لن نرده قط، وكم من اخ شيعناه تحت شعارات صاخبة كانت موضع تساؤل هو قبل موته بلحظات، وربما بأعوام وكم وكم! لقد جعلت هذا الاسف في قصيدة (حيرة ابن العوام) يردده ظل ابن العوام الذي حمله في الطريق.. لم يعد ابن العوام سوى ظل.. ظل بات قادرا على حمله، وهو يبكي اسفا عليه:

وجوه الجمال ملطخة بالدم

والهودج الذي انقلته السهام يميل الى الارض

وفي البعيد

ثمة ظل

ظل اسود

يحمل فارسة

يبكي فارسة

ويردد:

"ما هذا بخيار يا ابن العوام"

لم اتعامل مع التراث من زاوية ضيقة واحدة، وقد امتد رحبا امامي.. لقد تطلعت اليه، وفي نفسي شفقة عليه وعلي، اسأله، استنطقه وارثيه حادثة واشخاصا ومحننا. في قصيدة (سؤال) اتساءل مشفقا على المصير الذي آل اليه الشاعر (المعتمد بن عباد) بعد زوال ملكه، وفقر عائلته وذل بناته:

قلت للشاعر المعتمد بن عباد

كيف يحتفظ بالملك

من هو شاعر

وابناؤه شعراء؟

وفي قصيدة (حكاية من الاندلس) ابكتني فاجعة (ابن نسعة عثمان) الذي كان حاكما عند تخوم الافرنج، وعلى علاقة ضيق معهم حتى انه تزوج بنت جاره الحاكم (الكونت اود)، غير انه فوجيء ذات يوم بوصول كتاب من (عبد الرحمن الغافقي) يأمره بغزو حميه الكونت وحين

رفض، وهذا مايفترض باي انسان ان يفعله في مثل موقفه هذا، كان الموت من نصيبه والسببي
من نصيب زوجته الحسناء التي اقتيدت اسيرة الى دمشق لتصبح جارية عند بعض الاجلاف.
اي مصير هذا؟ اية مرأة هذه نتطلع فيها فنبصر ملامحنا وقد اصابها الهرم ورؤوسنا وقد غزاها
الشيب؟

من بين ولاء الاندلس الالف
الثقفي، الاحوص، عذرة، يحيى الكلبى،
الى آخره..

يحضرني ابن ابي نسعه عثمان
الحاكم

-فيما بعد-

بتغر عند تخوم الاقرنج
وصهر الكونت اود
حين اتاه الامر بغزو حميه،
كيف ترى يغزو جارا
او يخرق عهدا
(يا بن ابي نسعة..)

قبرك في بطن الطير
وطيرك في عنق الاخوة
يطوون شعاب الليل وراءك
تحضرني زوجته الحسناء
تساق بقافلة في الصحراء
الى ارض دمشق

ولعل ما هو اشد من هذه المحنة غرابة هي محنة (ابن الهيثم) عالم للبصريات البصري الذي
ادعى الجنون خوفا من بطش الخليفة الفاطمي (الحاكم بامر الله) اثر اخفاقه في تحقيق بناء سد
على النيل ينظم ري مصر، او كان مجنونا حقا ثم استعاد رشده فقفل عائدا الى بصرته، لكنه
رجع الى مصر ثانية؟ مالذي دعاه الى الرجوع ثانية؟ ترانا سنعود يوما الى منافينا لادمين جراء
ما سنعانيه في الوطن مستقبلا، وقد تقاسمه الذين تقاسموا متفانا. ربما، وربما لا، غير ان المحنة
تظل قائمة في الحاليين.

اما قصيدة ابي العلاء المعري فهي شيء مختلف تماما. لم اطرح على نفسي السؤال التالي:
من اين ابدأ بابي العلاء المعري امن شعره ولزومياته بالتحديد ام من رسائله: رسالة الغفران،
رسالة الملائكة، رسائله الاخرى، بل وجدنتي اردد ابياته مشغوبا وكأن ابا العلاء خصني بها
وحدني:

ثعالة حاذر من امير وسوقة
فمن لفظ صيد جاء لفظ الصيادين
ولا تتخذ من آل حواء صاحبا

وغيرهم إن شئت فاصحب وخادن
ثم وجدته مسوقاً للترنم بابيات لا أدري أأخص بها نفسي أم أخص بها أبا العلاء؟:
لا أمير ولا سوقة
يا ثعالبة
فاحذر
إن لي أخوة بين تلك الثعالب
لا سميع ولا سامع
يا ثعالبة
فأنظر
أقبل الصائدون من كل جانب
هذا التردد بيني وبين أبي العلاء أصبح من الاختلاط مما يصعب تحديده: من المتحدث أنا أم
المعري؟ من منا مرة الآخر؟ أم كلانا ترى أصبح مرة للآخر؟
فإذا كان صوت أبي العلاء هو:
لا أمير ولا سوقة
يا ثعالبة
فاحذر
فإن صده هو صوتي الآخر
إن لي أخوة من بين تلك الثعالب
وإذا كان المقطع التالي امتداداً لصوتي:
لا سميع ولا سامع
يا ثعالبة
فأنظر
فإن صده هو صوت أبي العلاء:
أقبل الصائدون من كل جانب
وهذا الاختلاط الذي يصبح فيه ثعالبة انسانا والانسان ثعالبة، وصوتي صدى صوت أبي
العلاء، وصوت أبي العلاء صدى صوتي نبتديء كتاب حيرتنا أنا والمعري. وعندما نقلب
الصفحة الثانية من القصيدة يطالعنا منظر الذئب الراع بين الأغنام:
أوه يا أبا العلاء
كم تشير إلى ذلك الذئب
وتقول:
"دعوه
ستهلكه صحبة الأغنام"

عندما نشرت هذه القصيدة في جريدة الحياة رجعت إلى البيت وكان معي العدد الذي نشرت
فيه فصادت قريباً جاء لزيارتي. ..ألني أن اقرأ له مقطعاً من القصيدة ليأخذ فكرة عنها وعن
شعري، فقرأت له المقطع الصغير المذكور ثم تحدثنا عن المفارقة في هلاك الذئب في صحبته

الاغنام غير ماهو متوقع ومالوف في مثل هذه الحال . ثم جرّنا الحديث الى الامثلة الباعثة على الحيرة في من يصحب من هم اضعف منه، مستمدا من ضعفهم قوة لقوته ليستخدمها في اضعاف الآخرين، وممارسة مايرغب في ممارسته، دون تحسب لما قد يسفر عنها من ضعف مهلك للشخص القوي نفسه.

اليس في صحبة الضعيف مايبعث على الضعف؟ كم من الشعراء المبدعين من اتخذ له مريدين تافهين لينصبوهم اتباعا وشعراء وارثين من بعدهم فكانت العاقبة خسارة هؤلاء المبدعين واتباعهم معا؟ كم من قادة اتخذوا أعوانا لهم من اضعف الناس واخسهم سلوكا ليقبوا بهم فكانت النتيجة ضعف القادة الاقوياء انفسهم، والامثلة على ذلك كثيرة في التاريخ. علق قريبي البسيط الذي لا علاقة له بالأدب، قبل ان نستطرد في الحديث عن الاقوياء والضعفاء والامثلة من التاريخ: "سُئلون معنى عميق ابن عمي" بينما سخر متقف اخر في حديث له معي، من هذا المعنى الذي راه قريبي البسيط عميقا.

لقد كشفت لي هذه الابيات المعنى الذي اردته وليس العكس أبدا، اي انني لم يكن لدي المعنى لكي أصوغه أبياتا، وكل مألدي هي رؤياي الكامنة التي قادنتني الى المعنى. ولعل سائل يسأل لماذا الحيوان منطلقا لعالم المعري، والاجابة بسيطة هي أن أبا العلاء لم يانس للبشر مثلما انس للحيوان وحتى للوحشي منه يقول في واحدة من لزومياته: ادود عن الفرائس ضاريات

واعلم ان غايتها افتراسي

اشار طه حسين في كتابه (تجديد ذكرى أبي العلاء المعري)، الى عالم الحيوان لدى المعري، مثلما وردت الإشارة ذاتها في كتاب العلايلي (المعري ذلك المجهول)، مضيفا ملاحظة جديرة بالاعتبار وهي "ان الجاحظ ملك المعري الى ابعد حد، ولاسيما في الحيوان الذي يشرح كثيرا من مبهمات المعري، وفي رسائله التي ادارها على السخرية الحادة اللاذعة" (ص ٥٢). وللحيوان عموما اثره الواضح في شعرنا العربي ولاسيما الجاهلي منه والاموي، واخص بالذكر الشاعر ذا الرمة الذي اتخذ من الحيوان مرآة لروحه القلقة المعذبة، صادرا عن احساس عميق بالكون على حد تعبير الدكتور (شوقي ضيف) في كتابه عن الشعر الاموي. ولا نعدم هذا الاحساس أيضا في الشعر العالمي كشعر ريلكه وولت ويطمان واودن وتيد هيز وآخرين كثيرين، ولعل ريلكه هو الوحيد من بينهم الذي يصدر ربما عن احساس كوني عميق في رؤيته للحيوان وموقعه من الكون ولاسيما في مراثيه الثامنة من (مراثي دوينو).

دخلت عالم الحيوان لدى المعري وتأملت بلذة مابعد هذا قصائده التي يخاطب فيها ثعاله والديك والغراب والحمامة والذئب وسائر الحيوان ويملا بها رسائله ويناجيها ويشفق عليها محذرا بعد ان تفض راحتيه من الناس ومفاسد عصره. وعندما قرأت الديك في لزومياته كتبت بعدها مباشرة قصيدتي عن الديك. وقصيدة المعري هذه طويلة تبلغ سبعة واربعين بيتا سبأورد منها الابيات التي انعكست في قصيدتي كلمات واخيلة:

أياديك عدت من أياديك صيحة

بعثت بها ميت الكرى وهو نائم

هتفت فقال الناس اوس بن معير

او ابن رباح، بالمحلة قائم

عليك ثياب خاطها الله قانرا،

بها رثمتك العاطفات الروائم

وتاجك معقود، كانك هرمرز،

ببهاهي بها املاكه، ويوائم

وعينك سقط، ماخبا عند قرّة،

كلمعة برق، مالها الدهر، شائم

وما افتقرت يوماً الى موقد لها

اذا قرّبت، للموقدين، الهشائم

متلما ساورد بعض ابياتها التي ينعى بها الانسان مفضلاً عليه الديك:

لو كنت لي مار هفت لك مدية

ولا رام افطارا، باكلك، صائم

ولم يُغل ماء كي تمزق حلة

حببتك باسناها العصور القدائم

ولا عمت في الخمر التي حال طعمها

كانك في غمر من السيل عائم

ولاقيت عندي الخير تحسب عيلا

ينافيك قول سيء وشاتم

فان كتب الله الجرائم ساخطا

على الخلق لم تكتب عليك الجرائم

راين فراري من زماني واهله

وقد غصن شرا نجده والتهايم

هذه الابيات اتخذت لها لبوسا اخر في قصيدتي ناقلاً اياها من مدار هجائي للإنسان الى مدار اسطوري، وان شئت كوني، بغدو فيه الكون مسرحاً للنجمة تصعد فيه كالنعامة وبريقاً لعيني الديك يتلأل في السماء، وهو (اي الديك) وسط هذا الجلال الكوني هرمرز الملك بثيابه السود والحرر، بينما تشد المدي وتشب المواقد، على مقربة منه، لخلق صيحته المنبئة بالفجر، وانبعاث الميث.

اقول في قصيدتي:

صعدت نجمة كالنعامة

عيناك برق

وهذي الثياب الجميلة

سود وحرر

وكانك هرمرز

اي المواقد شبت

واي المدي قربت

ايها الديك

ياملك المحصنات

ويا ابن أوس

ويا بن رباح

ويا صيحتي.

حين ينبعث الميت في صيحتي

أهي مفارقة أخرى ان صيحتنا التي ذهبت ادراج الرياح تزعم انها قادرة على بعث الميت؟ أم هي مفارقة ان يصبح ديك ابي العلاء وهو الضرير صيحتي؟ واين ابو العلاء من وحشه الشاعر الذي "يجد خلاصة في انبعاث او اخرة؟".

في الصفحة الرابعة من كتابنا انا و ابي العلاء استحلفه وهو الروح التي شسغفها العالم الاخر فانفتح لها في (رسالة الغفران) ان يشفع للحطينة وأن يحمل له عصاه وكلبه اللذين اقتنعهما في الجنة:

استحلفك يا ابا العلاء

ان تقول لرضو ان ان يفتح الباب

ليحمل علي هذي العصا

-وان شاء- هذا الكلب

الى صاحبي الحطينة

فقد وردتني اخبار

عن وحشته في الجنة

يرد ذكر الحطينة في (رسالة الغفران) في المقطع التالي: "فيذهب، عرفه الله الغبطة في كل سبيل، فاذا هو ببيت في اقصى الجنة، كأنه حفش أمة راعية، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة، وعنده شجرة قمينة ثمرها ليس بزك، فيقول: يا عبد الله، لقد رضيت بحقير شفن. فيقول: والله ما وصلت إليه الا بعد هياط ومياط، وعرق من شقاء، وشفاعة من قریش وددت انها لم تكن، فيقول: انا الحطينة العبسي". واذا كان بيت الحطينة في اقصى الجنة كما ورد في رسالة الغفران فهو عتبتى بالذات الى هذه الرسالة التي كان محورها (ابن القارح) والى حكايته مع الزق بالذات حين راه من باب المسجد فوجاه اي طعنة وشقه. تبدأ قصيدتي بحكاية يرويها (ابن القارح) نفسه بيهة بالحلم او بحلم يقظة وربما كانت ادعاء محضا بطعن الزق الذي لم ينسكب خمره، غير ان الزق سرعان ما ينقض حكاية ابن القارح حين يروي انه ابصر ابن القارح حين مر بباب المسجد مشيرا اليه ان يتبعه لكن ابن القارح لم يلمحه، ولو لمحه ونقض توبته، معبرا عن ندامة تكذب توبته المزعومة واتخاذ المسجد مكانا لتوبته.

حاولت في هذه القصيدة-الحكاية ان الخبص موقف ابي العلاء من الادب والادباء الذين يقولون فيهم:

وما العلماء والجهال الا

قريب حين تنظر من قريب

ومن رياء عصره، واخترت المسجد مسرحا جامعا فيه ما لا يلتقي من الاضداد ابدا. اصل هذه الحكاية نجده في رسالة الغفران في مارواه المعري عن توبة ابن القارح التي "تسامعت بها المحافل" حتى شاع أمرها في الجنة عندما مات ناسك من اهل حلب فاخبر الحواريات بذلك - لاحظوا سخريه ابي العلاء المبطنة- "فسررن وابتهجن، وهنأهن جاراتهن" ثم يروي ابو العلاء

ان ابن القارح لزم المسجد بعد توبته، فاجتمع اليه "الشبان المقتبلون، والادباء المتكهلون" "يقتبسون من آدابه، ويصغون المسامح لخطابه". عندئذ يرد ذكر الخنجر ليتحول القصص الى نقيضه، اذ يقول ابو العلاء: "واذا كان ذلك بتفضل الله، اعد معه خنجر ا كخنجر ابن الرومي". ثم يستطرد: "فاذا قضى ان يمر بباب المسجد الكهل المرقب (اي الزرق)، وثب اليه (يقصد ابن القارح) وثبة نمر، الى متخلفة وقر أمر (اي التي تتخلف من الحيوان في القطيع الكثير)، أو أمر اصحابه بالوثوب اليه، فوجاه بذلك الخنجر وجاة فانبعث بمثل الدم، أو الخالص من الخالص من العندم، وقرا هذه الآية: "ان الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين"، وكان توبة ابن القارح ما هي الا مزحة طريفة لا تستحق كل ذلك العناء والنصب من قبل ابن القارح في تظاهره بالورع ولاسيما وان الحسنات يذهبن السيئات. هذا هو جوهر حكاية ابن القارح والزرق واصل حكايتي وان حكايتي لحكاية ابي العلاء ذيولا لا تعيننا كثيرا في اضاءة مانحن بصدده من تناسل:

من باب المسجد

ابصرت الزرق يمر

-قال ابن القارح-

فوجأته...

لكن لم ينسكب الخمر

قال الزرق:

"من باب المسجد

ابصرت ابن القارح

فاشرت له ان يتبعني"

قال ابن القارح:

"ما أجهلني

لو صح الأمر"

اما مرثئي لأبي العلاء فهي مرثية للمعرة والناس مثلما هي مرثية لي ولمدني وناسي، فبعد اربعين عاما على رحيل ابي العلاء يدخل الصليبيون المعرة ويستبيحونها:

لم تتل راحة بجوار

فهل نلتها ميتا يا أبي

حين مروا

وضاقت بأعلامهم

جنبات الفضاء

ترى اهتز قبرك

وارتجفت في التراب عظامك؟

ام انت اصغيت

قلت: "القبامة حانت

وقد شقت الصرخات السماء

وشبتت نذر النار في الطرقات
وسيق اليها الحجارة والناس
يا أبت!
هل رايت القيامة آتية
-في الحياة-
فآليت ألا تجور على أحد
وكان القيامة قامت حقا فجاءت خلائق ابي العلاء ثانية تتقدمها طيرة ووحوشه، اشجاره
وافاعيه:
جاءت الخلائق:
الحمامة بلا طوق
الجمال دونما سنام
الاسد بجانبه
الغراب بشعر أشيب
الذئب بفروءة حمل
الضبع برأس امرأة
الفهد بوجه أنسي
الشجرة بصحبة أفعى
الجبل بسنامين
جاءت الخلائق
واشتاقت الارض للسماء
هكذا تنتهي قصيدة ابي العلاء بقيامة حقيقة للخلائق.

(2)

للشاعر تاريخه ايضا ووقائعه المتخيلة التي يريد ان تصبح تاريخا، لذا ينشئ الحكايات التي ينسبها الى التاريخ ليعطيها ثقله وديمومته وهو في هذا الانشاء قد يستغني عن التاريخ كليا او يعتمد بعض اجزائه ليكمل صورته كما يراه، وقد يجمع ما تنأثر منه ليعيد للصورة حيويتها التي افقدت، وهذا ما حاولت تحقيقه في حكايات لاسند لها من واقع غير ما تنأثر من هذا الواقع كما في قصائد (حكايات من غرناطة) والمقطع الخامس من قصيدة (احلام)، الذي يتكىء في سرده على حكاية (الجنى والملكين الاخوين وامرأة الصندوق) في (الف ليلة وليلة) ويشوشها كعادة الاحلام، كذلك في هوامش هذه القصيدة، وقد تتخذ لها صفة الوقائع من دون أن يكون هناك واقع اصلا، وهذا في تصميم لعبة الشعر الذي يراد له دوما ان ينادى عن المراجع، كما في قصيدة (الملك والحذاء)، وكما في المقطع السادس من قصيدة (احلام) حيث الشاعر يجلس الى بركة ليصطاد، فلا يسحب في شبكته غير البركة نفسها على هيئة امرأة:

جلست الى بركة أصداد

فاهتز الخيط

وانسحبت معه البركة

عارية بين يدي
صحت بطفلي:
"انظر"

إمرأة من ماء
إمرأة من ماء"

ولعل موضوع السحر في قصيدة (شيء عن السحر) اقدر من غيره على إثارة تداعيات الماضي وأحداثه التي يكتنفها الغموض وتتخللها المعجزات.. فمن منا لا يتذكر المدن والمرايا المسحورة في (الف ليلة وليلة)، والناس الذين تحولوا إلى حجر، أو الذين طاروا بأجنحة في الهواء. في السحر يمتزج التاريخ بالخرافة والفولكلور، وتستدعي أعقد الحلول لما يبدو مستعصيا على الحل.

مالذي سيفعله البشر لو جلس حصان على العرش؟

مرة جلس حصان على العرش

فأمر الخيول

أن تركب البشر

ناشراً الفرع بين الناس

وقد تشاوروا في الأمر

فلم يجدوا خلاصاً إلا في السحر

بعضهم صار حصاناً

والآخر فأراً

والثالث سمكة

وبعضهم فضّل الطيور

فهاجروا منفرداً

أو في سرب

والآخرون اجتنبوا الطريق

وسكنوا الأحجار

حتى خلت البلاد من الناس

وسادت الخيول

تركب

في نزهتها

الخيول

ومالذي سيفعله الإنسان لو وجد نفسه في مدينة لا يسكنها غير ديكه وقد قدموا له حفنة قمح؟

في مدينة

لم يدخلها أحد

في قلب الصحراء

رايتُ ديكه

تتفخ في الأبواق
وأخرى تصدح فوق الأبراج
ولا بشر هناك
ثم تقدم إليك
ودعاني
ان اتناول حفنة قمح
او وجد نفسه في مدينة مسحورة وقد زال عنه السحر وسط أناس من حجر؟
لو كنت في مدينة مسحورة
وسط أناس من حجر
وغيوم من حجر
وكلاب من حجر
ماذا ستفعل؟
ماذا ستفعل؟
أيها المسحور
وقد زال عنك السحر.

هذه الاسئلة وغيرها قد تجد اجابتها في السحر نفسه أو في إسطاله، وفي الحالتين قد يجد الإنسان نفسه في محنة لا تماثلها محنة أبدا. وإذا كان السحر أشد الموضوعات ارتباطا بالتاريخ، فهل هناك ما هو أشد ارتباطا أيضا بالتاريخ من الجواهرى الذي خرق التاريخ بالواقع، والواقع بالتاريخ. وجعل من الفاظه نوافذ نطل منها على واقع وتاريخ دون ان يطمس أحدهما الآخر، في تخفياتها وجلاتهما في ان واحد، وفي ما يتلفان فيه من حلم يستوحى ثانية ذلك التراث الحاضر ابدا.. تراثنا الشعبي في لعبة ساخرة لا حدود لها بين الحلم واليقظة.. بين الحلم والتاريخ:

حلم الشاعر يوما
بوحوش كاسرة
في أقفاص
تتطلع فيه
وحين أفاق من الحلم
رأى نفسه في قفص
فارتاع
وعاد الى أحلامه ثانية
يبصر أقفاصا
ووحوشا كاسرة
تتطلع فيه
وقد ياتلف الواقع والتاريخ في المكان مثلما يتلفان في الحلم:
الكوفة

التي حملها الجند في الصحراء
ولم تبلغ المدائن
الشاخسة ابدا الى السماء
وقد سال دم كثير .. كثير
على الأرض
الرملة
التي اوقفت القمرين
ليلتقيا
المسببة
القادمة بثياب الأسر
الى قبر في الشام
لتلقاك كما كنت
كما كنت
بهياً

لقد امتدت سنوات الجواهرى حتى اصبحت تاريخاً، وتقلص التاريخ في شخص الجواهرى
وشعره حتى اصبح واقعا، وكان في الاثنين الحاضر الغائب ابدا في شعرنا العربي، غير ان
تاريخنا يتردد صده حتى الان في واقعنا الفاجع يمتد الى اوروك عبر صوته النادب:
"انا ابن دجلة"

صانع السلال المطلية بالقار
و القصائد التي حملت الرب على البكاء
انا العابر الذي اقام المدينة
على كتفيه
وظل واقفا
يرد عنها الطعنات
"انا ابن دجلة"

حامل القرابين
السائر بدواي وامتعتي.
انذر نفسي ذبيحة
اذا اعوزتني الذنور،
ماذا فعلت
لتهجرني ايها الرب؟
في هذه البرية المقفرة
برية الامي

ان لم يكن غائرا في ماهو أبعد من اوروك.. في الكهوف المظلمة، كما في مقطع السير الى

الوراء في قصيدة (شيء عن السحر):

هذه الأيام

لا اقرأ غير كتب السحر

حتى اعتدت السير الى الوراء

بعيدا عن الناس

والاشجار

والمدن

باتجاه كهوف مظلمة

وبراكين خامدة

وعمالقة

قالوا انهم اجدادي

ثم رايتني

بين صخور هائلة

فجلست

منتظرا

ان يعبر عالم اثار

لعلنا لم نزل نقيم في تلك الكهوف المظلمة التي خيل لنا اننا اجتريناها منذ زمن، بسانتظار من
يكشفنا من علماء الاثار، ولعلنا قادمون الى تلك الكهوف في سيرنا الى الوراء من يدري؟

هبطت غابة

(كانت يوما خضراء)

حاملا تعاويذ لتحرسني

وطلاسم لعلقها فوق الاشجار

لكن لم ار اثارا

لشجرة أو طائر

لحيوان أو عشب

لقمر أو شمس

غير روح تتبعني

وتصيح:

"أخرج!

أخرج!

من مملكتي ايها الضال"

قريبا من تلك الروح في معراجها الصاعد باتجاه السماء في حركته المعاكسة لامتدادنا
الارضى الى كهوفنا الغائرة، نقيم ممالكنا الوهمية، حيث الجميع، ابتداء من الديناصور
المنقرض، الى (الس) الصبية الحالمة، مروراً بالخفاش الاعمي، والارنب المذعور، والدودة
الزاحفة والتغلب الماكر والحية المراوغة، يسرون الى بلاد العجائب. هناك يكشف الشاعر ان

كل شيء من ورق:
في بلاد العجائب
كل شيء من ورق
النجوم والسماء
الحدائق والاطيار
الجنود والملكة
القصيدة والشاعر
كل شيء...
كل شيء
ألا يستحق كل ذلك وقفة للبكاء؟
قفا نبك من منزل لحبيب
عفته الرياح
وطافت بأرجائه الموحشات الظباء
كاني يوم الرحيل لدى شجر الحي ناقد حنظل
يقول صاحبي: "تجمل"
وأنى
ودمعي شفائي
وهذي الديار أنيسي

(1) ابن نباتة: شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص ٤٦٦.

(*) البيت على وجهه الصحيح هو:

فإن يك فيكم إفاك فرعون باقيا

فإن عصا موسى بلف خيب

(المحرر)

تجربتي الأدبية

فهد الأسدي

سفر التكوين: في أصقاعنا لم يكن الناس يؤرخون تواريخ الميلاد سوى ساعات النحاس، ففلان ولد يوم حريق (تكلة) وهو حريق كانت قد أشعلته تلك الهبلاء فأكل نصف أكوخ القرية القصبية، وعلان ولد يوم الموج الأكبر الذي تطافت فيه مياه الفيضان حتى هددت سارية علم الحكومة يومذاك، لذا فحين سألت أُمِّي عن تاريخ ميلادي قالت: أذكر جيداً أنك ولدت بعد اليوم السابع لمقتل ملك. كانت لاتعرف اسم ذلك الملك، لكنها تتذكر ان البعض كانوا يندبسون صائحين:

بالغسلت جسم الملك كلى اشكيت صوابه

ضربة عمد لو هو تيل لو قنبلة من أصحابه

ومن ذلك النعاء علمت انني قد اكون من مواليد الثاني من نيسان عام ١٩٣٩، وربما ترك هذا الحديث بصمة مبكرة على ادراكي أو ألقت بي عواصفه مرغماً على شواطئ التاريخ والقصة، فأتجه اهتمامي بالسؤال لماذا يعترك الانسان؟. كانت فاتحة ميلادي انساناً مصرع ملك، وفاتحة ميلادي كاتباً بعد أقل من عشرين مصرع ملك أيضاً!!

* ولدت في بلدة الجبايش التي كانت وقتذاك جزراً منسية وسط أهوار وأحراش البردي والقصب الكثيفة، تلك البلدة كانت تظل مؤخرتها منقوعة في الماء عدة شهور من السنة. حين كانت جدتي الطيبة تهز مهدي القصبى وتهدهدني دفعت بي بهزة نشوة الى المياه، لم يبعدنى عن الموت سوى صرخة نبهت جدتي الضريرة والآخرين، ومن ذلك اليوم تعلمت أنك كي تعيش لابد ان تطلق الصرخة بوجه الاختناق، وعرفت ان الكتابة ليست سوى نوع من الصراخ بوجه كابوس التراكمات التي تحاول أن تسد على الانسان دروب الخلاص!!.. أنا مدين فى كثير من صوري لذلك الهور العظيم المتخيم بالمعاناة. مدين لأسراب الطيور الحذف والخضيري والبط الاسمر فيه. وأنا أرقب مواسم هجراتها للبحث عن الأمن والدفع والقوت وعن كل جديد. مدين لأسماك وغيامه وكواسجه وأفاعيه وهي تعلمني الحذر أثناء السباحة وسط التيار، وتدلني على الفكوك الفاعرة لألتهم الفرائس.

مدين لعوالمه وأساطيره، منها اسطورة احفيظ وحكايات إنسانه الذي عايشته في طفولتي وهو يعيش في الكوخ السومري نفسه، ويستعمل القارب السومري نفسه، ويصيد بألة الصيد نفسها، وان تبدلت صورة اليوم عن الأمس كثيراً، لقد أترع كاسي بـصور معاناة ذاك الانسان وهو يواجه طبيعة قاسية ويقع في احبولة المراكبين وتجار البوارى، أو يسقط فريسة (الكنديرين) وهم متعهدو نقل عمال التمر الى جراديق البصرة، هذه البصمات المحفورة في ذاتي طبعت وشمها فظهرت في قصص (طعم للغيلم، أسعد طفل، نهر الجنوب). ذلك النهر الذي قلت ان على ضفافه الضحك حزن، واللذائذ حزن. والعمل حزن. ومع كل ذلك يصير على ان يجري.

* يؤكد بعض المجذفين القول: لافضل لاحد بصنع الارض هناك حتى للالهة، فمن زبد المياه وثقل الاقطال وزند الانسان صنعت الاوطان.

استقرت الدودة المتطورة، وظلت تواصل الكدح بإصرار عنيد. ولا ادري كيف يتأتى لي الصلف أن ادير ظهري عن الصور وألغي ما انطبع على ذاكرتي منها؟

(هذا الانسان الذي كنت أخشى عليه من الغرق ثم خشيت عليه من الظمأ).

* هناك حيث كان يفسح الفرات دموعه المتعبات على صدر أرض الهور، فتمتد ببطاح وبطاح، وبرغم سماحة هذا الهور وهدوئه وسلامه تثور هذه البطائح المائية أحيانا فتزجر أعاصيرها، فتفتح أواجها الاشدق بوجه السفن المتعبة وبوجه الملاحين التائهين، أو المغامرين، أو الحمقى منهم، فيلبون نداء المجهول. يوما وأنا صغير ركبت هذه البحار المجهولة مغامرا. داهمني الأعصار فخفت فعلا. ثم أدركت كم هو طويل طريق الخوف!. كدت أصير العوبة ذاك المجهول، لكنني تعلمت من تلك التجربة المريرة انه لكي تهزم الخوف من المجهول عليك أن تدجنه بالكتابة - المواجهة. لقد علمتني موجة عدوة هذا السر منذ صغري!.

"جسد يمتطي صهوة الريح" قصة ناقل البريد.

* عش في الجنوب بالذات. وفي أهوار الجنوب بالذات. وفي الجبايش بالذات وفي قصبية الزنوج بالذات عندها ستفهم قصتي.. وقصة الزنوج تلك جزرة يتجمع عليها تضامن أكواخ قصب تضم اسرا من الملونين. يتجمع في أسواق عيونهم حزن العالم كله. فمع القهر والاستلاب كانت تحاصرهم لغة اللون. الناس هناك طيبون يشاطرون ناس قصبية الزنوج أفراسهم وأحزانهم أحيانا، الا انهم ولفرط الجهل يمازحونهم فيطلقون على جزرتهم "جزرة العبيد" وكان الكثير من ناس الجزرة هذه يصدقون كونهم عبيدا رغم ان الكثير منهم بلا سادة. وهكذا وجدت ضمن تجربتي ان ما هو أقسى من العبودية أن يصدق المرء دوما كونه عبدا. ولذا فحين كتبت قصة "طيور السماء"، ثم رواية "الصليب حلب بن غريبة". وجدت شخصا واقعية ظلت تعيش ضمن القهر البطرياركي، وما كان علي سوى ان اخلق منها شخصية تركيبيية، ضمنيتها كل رؤاي فما تتركه لغة اللون من سخام في ضمير الانسان. لذا أقر بأنني خططت، فعلا في هذه التجربة، لأن يتبنى المستعبدون خلاصهم من خلال تجربة انسان استسلم كخروف للذبح بسبب تصديقه كونه عبدا وما درى أن خلاصه يجيء من خلال قطعه للسلسلة التي تقيده، وكفه عن مازوكيته وسوطه لذاته.

* كنت الولد الخامس بين سبعة لمستخدم في الحكومة ذي مرتب متواضع اضطر للنزوح الى الهور، هروبه من فصيل لجيش الانجليز آنذاك. كان مع جنود هنود تعلم منهم بوضع جمل انكليزية وكلمات هندية، واورثوا له قرحة في المعدة نتيجة مشاركتهم أكلة الرقي بالفلل الحار. قال لي يوما انه تحدى الضابط الانكليزي حين رمى (بالأكل الذي لم يستطععه الا بالماء قائلا بأنه الزوي بالياني) وهي جملة هندية تعني العمل الذي قام به، وحين حاول الأمر صفعه دفعه الى الماء وهرب متخذا الهور ستارا.. وهكذا كتب على اسرته قدر العيش مع القسوة ثمنا لطبع فيه.. ربما أورثني هذا الأب بعضا من ذلك العناد، وربما هو من أسس في ذاتي هاجس كتابتي لقصة معمرة علي، تلك المعمرة التي تبستلي بالكثير من المصائب والكوارث ومع ذلك يصير (علي) فيها على مواصلة الحياة. اضطررتي الحياة محاولا ان اخفف النير عن كاهل أبي للدرس والاشتغال. مارست خدمة البيوت وعرفت من أسرارها الكثير. شيء لا يفيد سوى مزابل التاريخ، لكنه يصنع المادة الخام للكتابة، ويغني سقوط الذاكرة، وهكذا فحين أعطتني الحياة وحلها جهدت لأن احيل وحلها بكيمياء الفن ذهباً، وبقي هذا طموحي المشروع أبدا، لقد صيرت حواسي نتيجة تلك الممارسة الحياتية أنني حصان. وقد جهدت لأن اسجل من خلال واقعتي بكاره وصدق ماسجلته حواسي، ولقد استبدلت حدث التاريخ بخيال القصة، ذلك لأنني اجد الفن بطموحه أبلغ صدقا في التعبير عن آمال انسانا لافردا، ترى أليست من مهام الفن الكبرى أن يظهر الانسان خالقا للتاريخ لاضحية له؟ من هذه الرؤية حاولت اعادة انتاج الواقع في شكل وجوه الحياة نفسها لابهيتها الحسية. بل بكل ماوراء قشرتها البراقة الزائفة من صراع مرير.

* زاحمتني في طفولتي جيوش الأطفال والاسمال والبول الدموي. كانت لعبتنا المفضلة على شواطئ الأنهار (مباراة البول الدموي) الفائز فيها من كان بوله أكثر دماً. ترى أية لعبة لعينة كانت تلك؟ لم تحفر تلك الصور أخاديد في تضاريس الروح. لقد قيل اعطني الإنسان في السنوات الأولى من عمره، ولا يهمني من يأخذه بعدي، لقد استلبنى ذاك القدر الطفولي، فلون أيامي بالمرارة وعصرتني في شبيبتني المتناقضات الحادة التي عاشها مجتمعي، فتركت أثراً من السخام في نفسي كالسخام الذي تركته الحرائق على الكواخ التي قد تسلم من السنة اللهب لكنها لا تسلم من الاصطباغ بالسواد.

* أول من فتح عيني على جدوى الفن معلم رومانسي، كان يحب الشعر والموسيقى. كنت على ما أذكر في الثالث الابتدائي، وقد فوجئنا في صقع كهذا ان يحل انسان بيننا وهو يحمل كماناً!.. استعدت المدرسة يوماً لاستقبال قائد طراد بحري انكليزي كان يجري مناورات عسكرية في مياها، وقد كلفت الادارة هذا المعلم ان يهيئ تلميذاً كي ينشد قصيدة أمام القائد، وقد كان قدرني أن اكون ذاك التلميذ المختار، حفظني قصيدة لم أكن لأفهم من معانيها وقتذاك الكثير، لكن عدوى الحماسة سرت لي من معلمي ذاك المريض بحب كبير.. لم أجد لي من مهمة سوى ان اصرخ بالقصيدة بحماسة أشد.. فحنجرتي بكر، وحنجرة استاذي كانت قد انلفتها شرور كثيرة، وهكذا علا صوتي أمام القائد الانكليزي، صادحا بقصيدة اليازجي "تنبهوا واستيقظوا أيها العرب.. فقد طما الخطب حتى ضاقت الركب).. كان حماسي يعلو مع احتقان وجه القائد وكنت في ذروة الانفعال عندما صرخ القائد - سستوب!!.. وأكمل في رطانة موجهها كلامه لمدير الناحية - نوت زين.. طفل يتعلم حماسة كثير.. لم أكتشف إلا بعد الوعي.. ان حمرة انفعاله لم تكن سروراً، وان للفن قدرة فائقة على الاستقراز وان للكلمة البدء في المساومة.. ولذا تجنني أسخر من التنظير القائل ان الهم الاجتماعي لا يضيف بعداً جمالياً للفن، إذ ان تنظيراً كهذا، وفي رأيي المتواضع، ينطلق من فلسفة مثالية كرسنها مدرسة الفن للفن. لقد أمنت ان القيمة الجمالية للفن تتبع من ارتباطه بالهم الانساني، وحتى مع الفن التجريدي، فانا اراه تعبيراً عن حاجة نفسية من خلال البحث عن عناصر التجانس والموائمة والانسجام بين الالوان والاشكال. ولذا لم أؤمن يوماً بأن هناك قيمة جمالية خالصة لوجه الجمال وحده، ثم ماهو مفهوم الجمال الخالص؟. انه امر ضبابي مائع أعلن بلا خجل عدم استيعابي لوصاياه، وعدم التزامي به منهجاً لكتابة إذ يظل الجمال، وكما قال دوستوفسكي معركة يتصارع بها الله والشيطان ميدانها قلوب البشر، لست مع الشطحات الفلسفية التي تزعم ان للجمال وجوداً خارجياً موضوعياً، إذ ان ميدان الجمال هو العقل البشري، وتذوقه يمر من خلال هذا الموشور. لقد انتهجت الواقعية، لانها المدرسة التي لا تهرب من الهم الانساني، ولا ترتفع عن مشكلاته، وقد تتلمذت على الاعمال الواقعية العظيمة، إذ وجدت فيها جمالية عالية في الفن، لقد قال غوته: من النفع الى الجمال من خلال الحقيقة.

* المعلمون الأوائل:

قبل أن افك الحرف جيداً فتح لي باب الفن القصصي معلمان، أحدهما مضمد صحي جاراً لنا كان (تشيخوفي الاول). كان يمتعنا ليالي الشتاء بقصص وحكايات ألف ليلة وليلة، وعندما يؤديها أحياناً تمثيلاً بصوته، وكان هذا انبهاراً في الفن. بعد ان بهرتني صخرة بلون الشذر الازرق جلبتها أمي بعد زيارة لها للمراقد المقدسة، وأطلقت عليها (صخرة العباس) واستعملتها تميماً لازالة الاوجاع!

كنت اظن انه ليس للطابوق سوى لون واحد، لكنني وجدت وكذا الفنون الابداعية ان لها ألواناً عدة، أما معلمي الثاني فهو أوتة اسرتنا سنين طوالاً. وكان يقوم لقاء اقامته بسرد الاساطير والحكايات لنا. ويجعل نفسه راوية أو مصنفًا لأشعار أبي الشعبية، ومؤرخاً لبطولته المتواضعة

مع (شعلان أبو الجون)، خلال ثورة العشرين، قبل نزوحه الى أرض الهور. حين بدأت أفك الحروف جيداً كانت دائرة العلاقات البريطانية قد أسست مكتبة للدعاية. بناء هندسي جميل من قصب وسط حديقة على ضفة النهر. لقد ضمت تلك المكتبة كتباً عديدة، وبوسترات دعاية من نهاية الحرب العالمية الثانية. لازلت اذكر صورة غوبلز، وحبل يلتف حول عنقه، وثارت من خلال الصورة حتى من ذلك القائد الانكليزي، ومن كل من يطلق الرصاص على الثقافة كان قد عين في تلك المكتبة مرشد، كان يودني فيزودني بالنشريات الملونة والمجلات والكتب الصغيرة، وكنت احب هذا الرجل، الا انه اختفى فجأة. وقيل وقتها انه كان ينظم خلايا في السر لحزب سياسي ممنوع وقد اعتقل. لقد كان ذلك مفاجأة لادارة المكتبة الانكليزية، وتساؤلاً وأسفاً بالنسبة لي. لماذا يعتقل انسان يخدم الثقافة، وهذا التساؤل ربما فتح باب القلق المنتج عندي. وفي خضم العشق للقراءة، واعتماداً على هوسي وفصولي في ان ارفع كل ورقة ساقطة في الشارع، وبعد ذلك وجدت طريقي بنفسني خاصة، بعد ان انتقلت الى مدينة الناصرية لاكمال دراستي الثانوية، ووجدت مكتبة عامرة فيها.

* كنت نادراً ما اتابع القصة العراقية، لذا لا استطيع الزعم بأنني تلميذ لها حتى ولو توفر معلمون فيها. الا ان القصة العالمية استهوتني كثيراً، لقد أسرنتني في البداية شخص (هيجو). وبهرتني من الانكليز (توماس هاردي) في رائعته (تس، سليلة اسرة دربرفيل) وعجبت لخيال (ج، ويلز) في رائعته (بلاد العميان). لم أمل لديكتر وسومرست كثيراً، أما عن شكسبير فقد كنت أحفظ مقاطع من (هملت) وظللت اردد دوماً مع نفسي "كلما زاد صفاء السماء كان منظر السحب أبشع).. ودون كيشوت من أخذ علي لبابي، كما احذ لبابي عباقرة القصة الروسية بكتابتها كلهم. فقد ظلت نجوم مثل جوجول وتورجنيف وتشخوف وليرمانتوف وتولستوي والشيشيف دوستوفيسكي لامعة في فكري لحد الان. ورائعة (موبي ديك)، واندرية جيد، ومالروا وسانت اكزوبيري لايمكن للذاكرة البشرية ان تتساهل، وفوكنر وشتاينبك في رائعته (عناقيد الغضب) وارسكين كالدوريل.

بداية النشر:

بدأت النشر عام ١٩٥٩ بمقالة نقد في مجلة (المثقف) العراقية، وبعد شهرين نشرت قصتي الاولى في المجلة نفسها، وكان فرحي غامراً حين سمعت ان الناقد (علي الشوك) كان قد أعلن بعد قرائته لقصتي على اسرة التحرير عن ولادة قاص عراقي.

كانت تلك شهادة أعتر بها الى جانب شهادات نقاد عراقيين وعرب واجانب عززو ثقتي بالكتابة. الا ان نقادي الاول كانوا اقرءاء من الاصدقاء، دفعني احدهم لأن اصرح بالتهيب ولوج باب المجلات العربية، كانت مجلة (الاداب) قبلة لادباء عرب كثيرين، وفعلاً خلال شهر من ارسال قصتي لها نشرت القصة على صفحاتها. أقر بأن ذلك ملائي سروراً. منذ ذاك وضعت اقدامي على طريق الادب الشائك العسر. وحين أعلن احد زملائي يوماً عن تكفيني قاصاً كوني اصبحت محامياً ألهته المحاماة عن الادب على حد زعمه، وجدت في اعلانه استفزازاً للعمل والقول: ان المحاماة تظل زوجتي ولكن القصة عشيقتي قياساً مع الفارق. كما يقبل المناطقية على قولة تشخوف.

قصتي مع جيلي:

شاهد من هذا الجيل، ولجت مقاهي الادباء ومجالسهم في بغداد منتصف الستينات. كنت اظن ان بغداد آنذاك ستضيف لي لكنني فوجئت بعواصف التجريب التي كانت تعصف على القصة العراقية. (وصادف ان شأهت رفاً سينمياً عن كاتب أمريكي من ارياف كنتاكي اكتشفه ناقد

ادبي كبير وهو يقلب أوراقا انتاء انتظاره لملء خزان سيارته من محطة لضخ البنزين يعمل بها ذلك الكاتب المغمور، اعجب الناقد بهذا فقدم قصته في إحدى صحف الأدب الشهيرة، فشهّر الكاتب وجذبه أضواء نيويورك نجاحاً إثر نجاح. كان المشهد الأخير في حفلة دعا لها كاتبنا الثري هذا بمناسبة صدور كتابه الأخير، وكان الجميع ينتظرون رأي ذلك الناقد بالكتاب. ورفع الناقد صوته بلهجة ناصحة وقال: "عد إلى قريتك في كنتاكي، فقد كانت قصتك الأولى هي الفضلى". وجدت وكان هذا القول يعنيني وآخرين مثلي أمام ركام الأعمال التجريبية آنذاك، ووجدتني وآخرين نراجع الذات. لقد كان تيار القصة الستينية قدراً تاريخياً لي في تظاهرة التجريب الصاخبة تلك، أعلن عن جيل بلا أساتذة، وهو عقود مشروع لو كانت الإزاحة تتم بإحلال البديل الأفضل المكمل للقصة الخمسينية التي ظلت أسيرة مضمونها، والذي كان ينبغي عليه أن يتحرك باتجاه الواقع الجديد الذي أفرزته الثورة (وطبعاً حتم علينا أن نستنتج منها ومحاولات جادة وإنجازات في التجديد في الأسلوب استفادت من إنجازات القصة العالمية، وحتم علينا أن نبرز انتمائيتها، وهما ما تخلفت عنه القصة الستينية في الغالب كثيراً. نقول كان المشروع يقدم البديل الثوري في الفن، إلا أن تلك الشهوانية المستعرة والرغبات غير الهادفة في التجديد طرحاً تجارب لم تتضح بعد مواليد خدجاً اختفت في أنابيب الشكلية، كانت تلك الأعمال في الكثير منها تكتيكاً غير مستوف شروطه يبحث عن مضمون، وبذلك فقد ولدت مخلوقات شوهاء تخالف طبيعة الفن القائمة على التطابق بين الشكل والمضمون، إذ لا يمكن لأي مضمون أن يستورد شكلاً، ولا لأي شكل أن يفرض نفسه على أي مضمون، وهذا ربما أثبتته نظريات الأدب ودراساته الجادة. أننا نستمتع بالعمل الأدبي حين لا نستطيع أن نميز في نسيجه أي شكل وأي مضمون وهذا بعض من أخفاقات التجريبية الشكلية حين لم تحقق هذا الشرط الفني.

لقد ولد التيار التجريبي انعكاساً لخيبات عديدة منها انكفاء القاص الخمسيني وعدم القدرة على مواكبة الواقع بعد الثورة، مما حتم ملء الفراغ بفرضان جدد ذوي سيوف خشبية استفادوا من العلاقات في مؤسسات الأدب والنشر آنذاك، وطبق البعض منهم سياسة (الدومنيك) اليابانية، فراحوا يغرقون السوق الأدبية بالمنتجات، وهنا صار لكل من نشر كتيباً حق الادعاء كونه مبدعاً. لابل شيخ طريقة. وما على الآخرين سوى أن يفهموا ما يكتب، وقد عانت التجريبية من أشكال آخر يتمثل في الغموض والافتعال في اللغة والأسلوب، هذا الغموض تولد من عاملين وهما: نقص التجربة الفنية والحياتية من جهة لدى الكاتب، وعدم وضوح الرؤية للواقع آنذاك. ولأن الصدق الفني يجيء حتماً من الصدق الموضوعي، لذا فحين لم يستلم وعي الكاتب الواقع استلاماً كاملاً فشل في أن يعبر عنه تعبيراً كاملاً.

وإذا فقد عانى التيار التجريبي حتى مع افتراض نبيل طموحاته وتوجهه الثوري في الفن، عانى من قطيعة مع قارئه. إن ذلك الغموض المفتعل حتم زحمة المصطادين في تلك المياه العكرة، ذلك لأن الغموض قد يخفي كاتباً مبدعاً أحياناً (وهو هنا غموض فني). إلا أنه في أكثر الأحيان يخفي الكاتب تافه، وكما قيل فالأعمال العظيمة بسيطة ابتداءً من الإنجيل وانتهاءً بالشيخ والبحر. وهذا أخيراً وليس آخراً. لقد تحول بعض كتاب تلك الموجة الفاشلين إلى كتاب رقي وسحرية.

وثمة أخفاق آخر للتجريبية تمثل في تعاليها عن تقديم مضمون مقنع والغائها الشخصية. وكان البعض قد فهم خطأ آراء (أو كوتوا) في فن القصة كونها فن البرجوازي الصغير وإن على كاتبها أن يقدم مأساة من طبق فاصوليا أو من اختيار ربطة عنق مثلاً.

وإن عالمها هو عالم الشخص المطحون المنسحق الذي قد يتعرض لمآسي كثيرة، قد تنجم من أشياء تافهة، ولا أدري كيف لم يتأت للتجريبية آنذاك أن تقدم المأساة. وقد كانت أمامها أطباق

من هموم انسانية أعمق ليست ترفاً.

الا انه وبعد ان أنسحرت موجة التجريب، وتمت مراجعة الذات القاسية من قبل بعض الزملاء الذين واصلوا مسيرة الفن القصصي حتى تبلورت أعمال قصصية عراقية وجدت لها المكان اللائق في فن القصة. وظهرت اجيال تبشر بأمكانيات طيبة استفادت من دروس التجربة الستينية. بقي عليّ ان اشير الى ظاهرة اجدتها في رأيي مازالت من مخلفات التجريبية، إذ لايمكن ان نتصور ان ظاهرة ادبية ما مهما كانت نوعها لا تؤثر سلباً أو ايجاباً في مسيرة الادب. انني ارى ان التجريبية قد استمدت ملامحها في انجازات جديدة تمثلت في ظاهرة المعلوماتية التي سادت حتى في اعمال قاصين مبدعين بيننا في تلك الاعمال التي تقترب الى فن (المقالة)، أكثر من قربها الى فن القصة، حين نلمح من خلالها استعراضاً لثقافة الكاتب. ومع ان من الاساسي ان يكون الفنان مثقفاً. الا انه ليس من المحتم ان يكون كل مثقف فناناً.. حتى مع ثقافتنا بمستقبل العلم فأننا لانعتقد ان يكون (الكومبيوتر) كاتباً مبدعاً يوماً. ثمة حكمة هندية تقول: اياك والدخول من دبرٍ واسع.. هذه تصدق في فن القصة كثيراً.. أحياناً أصعب مافي الامر ان نحاول الانتقاء من متجر الحياة الواسع موضوعاً لقصة.. ولأن هذه الحكمة ترتبط بحكاية استعيرها لحالة الكاتب المعلوماتي.. يقال ان ثعلباً اراد ان يصادق فيلاً، وبقترب منه، فدخل من دبره الواسع الى جوفه، وهناك فوجيء بأحشاء الفيل الغنية فراح يلتهمها، التهم الكبدة والاحشاء والقلب وغيرها، فامات الفيل، وظل الثعلب طامعاً بكنزه حتى تبيست اعضاء الفيل وانسدت مداخله عندها حار الثعلب في ان يجد طريقاً له في الخلاص، فقيل له اياك والدخول من دبر واسع.

الا يصدق هذا على الكتاب الذين يحاولون اتخام اعمالهم القصصية بالمعلوماتية وخاصة التاريخية فينتقل دمها. وكما قال تولستوي: ان اكبر صعوبة في عمل الكاتب هي اختيار احتمال واحد فقط من بين مليون احتمال. واضيف ان الكاتب الذي يهمل التكنيك الادبي أو اساليب التجديد في الفن ليس بمبدع الا من هو اسوأ منه.

ذلك الذي يتوه دوماً لاهثاً في بحار التجريبية وراء قناعة هشة، ان عليه ان يطرح اسلوباً جديداً لاغير، مع كل عمل جديد له.

مفهومي عن الواقعية:

حاولت في قصصي أن اعرض العالم كما يترأى لحواسي دون تزويق أو تزييف أو اهمال لأية كمية من الفرح أو السخطف فيه. ووجدت ان عليّ الا انكر الوجود وقسوته على انساني، عليّ ان اعيش فيه واتجرع كؤوسه حد الثمالة كيما اعرفه جيداً.. ولأجعل من هذه المعرفة سلاحاً يعيش انساني على الخلاص من قسوة الوجود، ترى هل نجحت؟ هل حققت طموحي؟. هل كتبت قصتي الام؟ اجوبة مازالت لا امثلك شجاعة على البوح بها حتى لنفسني.. أين مكان هذه التجربة المتواضعة أمام تجارب الادب العظمى؟. وشيء لايمكنني ان أقيس به، إذ هل يُقاس البحر بقدر ضئيل، وبالقدر الذي اشفق به على انتاجي من معاول الهدم اشفق عليه من بخور النفاق!!.

شاعر راحل يرثي شاعراً رحل قبله

قصيدة الى الغريب

شعر: عبد الخالق محمود

تقديم: جاسم العايف

بعد الرحيل، المفجع، للشاعر الصديق "مصطفى عبد الله"، وصلني كتاب، عنه، وله، بعنوان "الأجنبي الجميل" من اصدار رابطة الكتاب والصحافيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين.. كان الكتاب، بمثابة ذكرى ووفاء لمصطفى.. بدأت، له، رابع، الكتاب مسراً الى كل الاصدقاء، الادباء، والمنقذين، حتى انه، وصل الى (الناصرية) - مدينة الشطرة تحديداً، ومن الاصدقاء الذين اطلعوا على هذا الكتاب، صديقنا الشاعر (عبد الخالق محمود) ..

بعد فترة أسرني عبد الخالق، وكنا ليلاً، في حديقة اتحاد الادباء - البصرة - انه كتب قصيدة رثاء في ذكرى مصطفى عبد الله وانه لا يستطيع نشر القصيدة، وهي مودة الى (مصطفى) داخل العراق، كما لا يمكن نشر القصيدة، خارج العراق وهي با، سم (عبد الخالق) ضحكنا بمرارة، من هذه المفارقة، ثم قرأ القصيدة، ولحظت، سواثر الذوف، المطبقة عليه، مع انه استبدل الاجنبي، بالغريب الجميل، ثم علق انه يأمل نشر رثاء في الوقت المناسب، والمكان المناسب. كذلك مرة وصلتي مجلة (الثقافة الجديدة) ومعه ديوان شعر صغير، للصديق الشاعر عواد ناصر، الان لا اذكر محتويات العدد، ولكنني اذكر الافتتاحية، وكانت بقلم الرفيق (عبد الرزاق الصافي) رئيس التحرير آنذاك، واذكر عبارته "ان العثور على هذه المجلة لدى احد أبناء شعبنا داخل الوطن كاف لأن يقوده الى غرفة الاعدام"، ومع ذلك نسرب العدد، الى عدد محدود جداً من الاصدقاء.. كان من بينهم (عبد الخالق) وبعد ان اعاد العدد المذكور وجدت بداخله قصيدته، عن (مصطفى)، عرفت ما الذي يفكر به (عبد الخالق) واحتفظت بالقصيدة لدي.

بدأت صحة عبد الخالق بالتدهور.. دأبته مرض (الكبد) اللعين، بذل الاطباء جهداً، لمساعدته، دون جدوى، قال له الطبيب:

- لم يبق من كبدي شيء.. الا انني اثق، انك لو التزمت، بما اقوله لك، سوف يعود كبديك أو جزء منه، على الاقل الى سابق عهده..

سأله عبد الخالق:

- كم سأعيش، بما تبقى لي من كبدي؟

اجاب الطبيب:

- ربما سنة أو اكثر قليلاً..

رد عليه عبد الخالق، بصفاة عجيب مملوء بالدهشة:

- سنة؟.. انها كثيرة جداً يا دكتور..؟

أصر (عبد الخالق) على السير، بإرادته نحو الحافة الأخيرة للحياة، سافر، ثم عاد سريعاً، وأخيراً تمكن منه المرض تماماً..

غاب التمتع بعينه.. تهدم بناء قامته.. ازدادت الرعشة في يديه، تتأوب المرض، والحصار في الأكل من جرفه، شيئاً فشيئاً، إلا أنه بقي، على ولعه بالنكتة، كان روائي طرائف من طراز فريد.. لا بل كان صانع طرائف.. ثم نقل إلى (المستشفى التعليمي) وهناك رحل.. ثم ثوي في مقبرة (الحسن البصري) بالزبير.

الآن وبعد، انكفاء، نظام البعثيين القتلة، عادت (الثقافة الجديدة) تسير في شوارع البصرة.. أرى أن المكان المناسب قد توفر لنشر القصيدة.. في ذكرى المراثي الغالي (مصطفى عبد الله)، والرائي الراحل (عبد الخالق محمود) الشاعر الذي ولد عام ١٩٤٨ في البصرة وتوفي فيها قبل عامين خلفاً ديوان شعر مطبوع بعنوان (مراثي الشمس) وبضعة دواوين مخطوطة.

قصيدة إلى الغريب

في ذكرى: مصطفى عبد الله

عبد الخالق محمود

قبل عشرين عاماً عرفتك،

كنت فتى أخضر الشاربين.

قبل عشرين عاماً عرفتك،

كانت نجوم المساء

فوقنا، غابة من ضياء

وسماء الجنوب الخفيضة نلمسها باليدين

قبل عشرين عاماً عرفتك،

أذكر:

إن السماء

هبطت ورده تستظل بنا،

وردة تحت قمصاننا نستظل بها،

وبها ما بنا:

عطش وارتواء.

قبل عشرين عاماً،

بدأنا الطريق الذي ضمنا،

ومن المهد، قلنا، إلى الحد:

نبقى، معاً، سائرين
* * *
بعد عشرين عاماً،
أنا، الآن، وحدي،
أنت وصلت الى آخر الدرب،
بينما بقيت انا في العراق
ضائعاً..
المدى ظلمة و عويل
فالمدينة، حولي، مفاجئة بفتاها القتل
والفتى عائد كالحسين
فوق مهرته،
ظاميء الشفتين
دون رأس،
يُسائل عن وردة اسمها كربلاء
أهذا الحبيب
بعد عشرين عاماً تجيء...؟
لقد شاب رأس الفتى،
والليالي تكرر،
الليالي التي لا تنفد،
ولم يبق في العمر الا القليل
وسماء الجنوب البعيدة مطفاة،
وانا سائر، وفؤادي الدليل
أيهذا الغريب
أأنا العائد، اليوم، أم أنت،
أم أننا، قبل عشرين عاماً قُتلنا،
وصيرنا حينا شهداء؟
أيهذا "الغريب الجميل"
كيف داهمنا الموت
والحب، لما يزل، دورة في الدماء؟؟

إرحلوا عن وطني

شعر: يحيى السماوي

هذه الأرض التي نعشق
لا تثبت ورد الياسمين
للغزاة الطامعين
والفرات الفحل
لا ينجب زيتونا وتقاحا وتين
في ظلال المارقين
فأرحلوا عن وطني المذبوح شعبا..
وينابيع .. وطنين
فاتركونا بسلام آمنين
نحن لانستبدل الخنزير بالذئب
ولا الطاعون بالسل
وموتا بالجذام
فأرحلوا عن وطني..
هذه الخوذة
لا يمكن أن تصبح عشا للحمام
فأرحلوا عن وطني..
والدم المسفوخ
لئن يصبح أزهار خزام
فأرحلوا عن وطني..
والبساتين التي غادرها النبع
وما مر عليها - منذ جيلين - الغمام
تصرخ الآن: ارحلوا عن وطني
وارفعوا - قبل العقوبات - أياديكم

عن الشعب المضام
حررونا منكم الآن
ومن زيف الشعارات..
وتجار حروب.. النفط والشفط..
وأصحاب حوائيت النضال
سارقي أرغفة الشعب
أدلاء جيوش الاحتلال
فأرحلوا عن وطني..
واشربوا نخب انتصار القائد السجان
في الحرب على الشعب السجين
نحن مهزومون من قبل ابتداء
الحرب:
نخل يشخذ التمر
حقول تشخذ القمح..
وطنين
سال منه الدم من بوابة القصر
الى محراب رب العالمين
فأرحلوا عن وطني..
وامنحونا فرصة الدفن لموتانا
وان نخرج من تحت الركام
جثثا مابلغت عمر الفطام
فأرحلوا
من قبل ان ينتفض النخل العراقي
ويستل سيوف الانتقام

الزاوية الأخرى

وفاء عبد الرزاق

خذ ما أخاف أن أضيع به
خذة لسكنة تعتريك
لينتهي الأبيض واقفاً
ونسافر
أنا المتعطشة لتوبتك
كي أعيدك
أخط كونا مرعبا
أيها الزاوية الأخرى من الخوف
أستعد لظلام الرب
وفي وجنة الخطيئة أدخل
بأمرك أدخل لأزرق ألتهك
عليك أن تكون الندى
لأنكسار الورد
وجحيم ورقة في انتماء الغصن
أن تغلق القيامة
وتفتح باباً توهمني
وكونني الثانية
كوني الأولى
قوس فسحة لست فيها
فأنا لشدة ما أخافني التكوين
كونتك
وكنت المحرم الذي اعتصم به
إحلب ترابي واقتدر
ليحرس آخرنا الأول
وأولنا المنسي بفاتحة وحشية

كن ذنبي
لأطوف غرقانة بالأمل السري
فكيف تحب من أنت به
وتلغي انتراغ نبي من قبلة القلب؟
كن ذنبي
ربما لحظة .. لا أدري
بأنني المولودة فيك
فيأتي الليل نصف خجول
كي أنام على نجمة الدمع..
كن ذنبي
مالهذا المذهب فيك
لا تنكسر فيه الربات
وتأخذ شكلي!

النهر

٣١
٣
٦٥

شعر: د. حسن البياتي

رغم أنحسار النور عن عيني أراك
نوراً يبدد كل أو هام الظلام
ماكنت يوماً محض رقم في مداك
بل نهر عشق يرتوي من نبعه كل الأنام
إلا حثالات الأنام
ياأيها النهر العراقي الأصيل
طوقت جيد وجودنا لما اببت
إلا زيارة كل مزرعة ومصنعة وبيت
يرنو لمقدمك الجميل
ياأيها النهر العراقي الأصيل
كم حاول الأعداء-لكن ما أستطاعوا
تعكير منهلك الفراتي النقاء
كم حاولوا
أن يقتلوا

تبارك المتدفق المعطاء-لكن ما أستطاعوا
ركبوا رؤوسهمو، خزل بها الخواء،
شربوا مياه البحر، فأنثقوا وقاء واء،
مضغوا رمال البيد ماشاءت وشاءوا
رفسوا-غباء-كل أعمدة الضياء
رجموا قناديل الفضاء،
صفعوا جبين الشمس
فأهترت أكفهمو-وما أنزاح الشعاع،
لعنوا نجوم الليل والقمر المضاء،
سحبوا خيوط الفجر-لكن ما أستطاعوا فتسلقوا، متفافزين
فعل القروء-على طواحين الهواء
دارت بهم دوراتها،
دارت بهم.. حتى هوى متناثرين
في جوف جب لا قرار له
سوى قاع الجحيم
وبقيت، ياكنزي العظيم،
نهرأ

يعانق نبعه الأبدى
آلاف الينابيع المضيئة

صنعاء ٣١/٣/١٩٩٩

ذالك المواطن

مهدي محمد علي



سموه قديماً زيد الخيل
وسماه رسول الله بزيد الخير
لكني عايشت الزير المقصود لدي
في القرن الحادي والعشرين
باسم يومي هو (زيد صباح ياسمين) !
عايشت الزيد فتى بالمعنى الأموي
كتوما لا يستغلق
يألف عتمته إذ هو نور في ذاته
يجعل أغنية في المذياع الإلكتروني
لكي تغنيه عن الدندنة
بلا سبب
في المكتب !
يجعل في (الثلاجة) خبزاً
جبناً
وخياراً - ماءً
والماء
وهو يجوع ولا ندري !
يسهر حتى الفجر ولا ندري !
ويفوق الفجر ..
يباشر اعمالاً من هذا الفجر
الى الفجر الاتي
دون كلال
مثل فتى أموي
لاحق له في (ليلي)
أو (لبنى)
فيظل كتوماً، لكن لا يستغلق
يألف عتمته
في عمة أغنية في المذياع الإلكتروني
لكي تغنيه عن الدندنة بلا سبب
في المكتب
ليظل الى ابد زيد الخيل
وزيد الخير !

بصرة حلب
2003/10/6

قصة قصيرة

البحث عن الضفاف

عبد الحسين العامر

برتابة متواصلة، بدأ المطر في الخارج ناقرأ بحباته على زجاج النافذة منذ بواكير هذا الصباح، مثيراً بداخلها هدوءاً قللاً.

وقبالتها في الغرفة كانت السنة صغيرة من النار الزرقاء تتراءى لها من خلال زجاجة دائرية أسفل اسطوانة حمامية اللون توسطت المكان غامرة إيّاه بالدفء.

في حين هي مستغرقة بأستلقاتها على السرير تنظر بتأمل للتشكيلات التي ترسمها قطرات المطر على الزجاج، والتي كانت تبدو لها، أو هكذا أوحى لها:

أعلاماً تحملها سواعد تلاحمت أجسادها على جياذ غائرة باتجاه صحراء مفتوحة، وهي تدوس بحوافرها طحالب ونباتات صغيرة مخربة بعض الفتحات لحيوانات برية - نافذتها الوحيدة - لمعرفة قدوم مساءات هذا الفضاء الشاسع موعد نزهتها الليلية. تفرست جيداً:

في الاعلام، وفي الوجوه المتشابهة كلحاء الاشجار، العيون، الانزع المرفوعة، عيون الجياذ المفتوحة نحو البعيد، رغم كثافة الغبار.

كانت تحس بخصلات شعرها تتحرك بفعل رفيف الاعلام، ورائحة الغبار المتطاير الممزوجة برائحة الاجسام المزدحمة. تراءت لها عوالم كثيرة:

اصوات حادة، اجسام تتدافع، سهيل جياذ تكسو، واخرى تنهض، اذرع متشابكة، ضجيج كفيل أن يبقى صدها متردداً لسنين طويلة في هذا الفضاء الواسع.. وتاهت في لهثات الخيول وكان الارض تمتد الى ما لانهاية تحت أرجلها، فتفصدت بلورات من العرق الناعم سائحة على وجهها كحبات المطر على الزجاج!

التفتت الى جانب وسادتها:

كان طيفاً هائماً في صباحات لم تشرق بعد!

نهضت وصوت ذلك الطيف يتردد بداخلها:

- "انتظريني مساء هذا اليوم" ..

توشح وجهها فرحاً وهي تتجه نحو نافذة الغرفة

نظرت للشارع، كان المطر متواصلاً التفتت الى مرآة بقرتها.. كانت خصلة شعر متدليلة..

في أكثر الاحيان، كان هو يعدل ترتيبها بين مجموعة الخصل على حافة وجهها، وتنهدت:

- لا أعتقد أنك تتسي هذا، ولا انا أيضاً، فليس لدينا مايشغل البال سوى أن نلتقي، عندها

سيكون أي مساء جميل هذا.. أدلو أنت معي!

ابتسمت، عندما نظرت نحو مزارب البيت المقابل، الذي كان يتدلى منه خيط من ماء المطر

تالِق في عيونها الفرِح ثانية، عندما داهمها احساس بأنها ستراه قادمة فعلاً

وراحت تجر ساعات النهار، منتظرة دنو الممساء - كم هي ثقيلة وبطيئة، تلك الساعات؟

قالت هذا وهي تداري ذلك التالِق بارباك.

وتكاثف النقر ... نقر حبات المطر على زجاج النافذة.
أثارت انتباهها حركة خفيفة خلف باب الغرفة، وبدأ يندفع ببطء
تسمرت في مكانها.
اتسعت حدقتا عينيها محتوية كل ما خلف الباب من وجود!
وردد ذات الصوت:
- ساكون عندك.. فلا تقلقي
- ومن يستطيع أن يمسك بخيط القلق ياترى، وكيف ينسج منه مساحة ولو صغيرة من
الطمأنينة؟
اتسعت شقة الباب قليلا.
شعرت بتصاعد انفاسها المتلاحقة
اندفع الباب أكثر
كادت أن تشهق!
فدخلت قطّة بيضاء، تنفض ماعلق بأرجلها من ماء المطر متجهة نحو مصدر الدفء وسط
الغرفة!
لم تحتمل الدوار الذي انتابها، وتنفست بصعوبة، بعد أن كادت تترنح كبندول الساعة الجدارية
المعلقة قبالتها.
اقتربت من القطّة المتكورة، ومسحت جوانب بطنها المنتفخة عن رذاذ الماء الذي بلل شعرها،
وهي تنظر من خلال الباب المفتوح لفناء البيت الذي بدأ يمتلئ بماء المطر والفقاعات شيئا
فشيئا.
فقاعات هنا تتحرك ببطء وأخرى هناك تتجه نحو فتحة تصريف الماء وسط باحة الحوش،
بعضها ينفجر منتصف المسافة وبعضها يواصل انحداره فتبتلعها سريعا على التعاقب.
تكاثرت الفقاعات، لم تبق أية مساحة صغيرة من باحة الحوش الا وامتلات بالفقاعات البلورية
الناصعة البياض وهي تتدافع مع بعضها متزاحمة في انحدارها نحو البالوعة. وعلى سطوحها
اللينية يسبح الرذاذ الناعم المتطاير في الهواء كما تسبح قطرات الماء على زجاج النافذة امامها،
وكما ساحت أيضا حبات العرق على صفحة وجهها وهي في لهائها وراء الخيول!.
وعلى امتداد جواف باحة الحوش يمتد شريط من الرغو، أشبه بتجمعات الرغو على سواحل
البحار والخلجان والبحيرات بفعل حركة الامواج التي تدفعها الرياح.
لحظتها اندهشت، عندما رأت فقاعة كبيرة شفافة بيضاء كالكبة وسط تلك القباب الصغيرة.
تخيلت نفسها متقرصة داخلها!
فسمعت لقطرة الماء التي تسقط بالقرب من حافة قبعتها الكبيرة صوتا هائلا يُضاف الى
اصوات الفقاعات المنفجرة، وكيف تصعد هذه على الفقاعة الاصغر منها، وكيف تحتمي تلك
بأخرى خوف التبلل من المطر، أو خوف الوصول الى فتحة الابتلاع، فتظل تدور حول الفوهة
منتظرة دورها، وكم انتهت فقاعات ارتجافا من المطر!
كان لانحدار الماء من اطراف باحة الحوش وتسربه السريع في الفتحة، على شكل سورة
سريعة الدوران، ساحبة معها بعنف عشرات الفقاعات، مئات الفقاعات، صوتا أقرب للدوي،
ومن خلاله تسمع أنين الفقاعات وهي في قم البالوعة، كلوعة وأنين العصافير في قم الأفعى!.
وأحيانا يكون ذلك الصوت، أقرب الى الصفير، بفعل الهواء المحصور بين عنق البالوعة

وجوفها، يشبه صفيير الرياح في الغابات، أو البنايات المهجورة آخر الليل!.
شعرت بهاجس أقرب الى الخوف يغلف روحها، وهي تنظر لتكاثر الفقاعات البيضاء
البيوت، كالطيور البيضاء التي تملأ الفضاءات الواسعة في مواسم الهجرة، وهي في رحلتها نحو
المدن البعيدة على سواحل الخليج، أو الى مدن أخرى عبر البحار، فتخرج النسوة في قرى
الجنوب وفي عيونهن الأسى لهذا الحشد من الطيور المرتحلة مسرعات الى إيقاد أحجار
البخور، ليتصاعد خيوطا ويعلق بأجنحتها لتستدل به المكان أثناء العودة!
تماما مثلما يفعلن لأولادهن، قبل الرحيل الى الجندية، عندما يوقدن أعواد واحجار البخور في
المجامر، ويذرن فوقها الملح وبذور نباتات الحرمل، ومن ثم يوسعن من اطراف ثياب الاولاد
أثناء قفزهم على تلك المجامر، ليتسرب من خلالها عبق الدخان بين فرقة بلورات الملح،
فتسري الفرحة على وجوه الامهات مطمئنة بعودة الاولاد من الجندية بردا وسلاما...!
استدرك:

من خلال تقرير اخباري سمعت:

ان ٩٠ مليون من الفراشات الملكية العجيبة الالوان، لاقت حتفها في غابات المكسيك، بعد ان
قطعت رحلة امتدت الاف الكيلومترات عبر المحيط من استراليا، إثر موجة برد مفاجئة وامطار
غزيرة..

وتساءلت بما يشبه النزيف:

أبهذه السهولة يُغتال الجمال، ويتكسب تلالا من الالوان المبهجة تحت الاشجار وقرب منابع
المياه!؟

وأية مقبرة جماعية، تستطيع ان تخفي جريمة اغتيال الملايين.. ملايين من جنث الفراشات؟.

-2-

مع دنو المساء، خرجت باتجاه محطة القطار، والمطر ما أنفك يهطل بغزارة، تدفعه الرياح
بقوة، معرقلا سير المركبات في الشوارع والمارة على الارصفة، وهم يترაკضون خلف
بعضهم قرب حافات البنايات، وتحت الاشجار، عبثا متحاشين ذلك الرشق.
فتذكرت كيف كانت تحتمي من المطر بجدران البيوت عبر الازقة في الصباحات المبكرة،
وهي في طريقها مع صاحباتها بقمصانهن البيض مسرعات نحو المدرسة وهن يكركن
بتعليقات مرحة، كسرب من بجعات - تشكايكوسكي - في طريقها نحو البحيرة!.
وردت من حواراته معها:

- "عندما نلتقي، سأحدثك في الطريق، وأنت تحت معطفي، عن حكايات كثيرة.."

عندما دخلت من البوابة الرئيسية، كانت ثيابها مبللة تماما بماء المطر.

فأندست بين ضجيج حركة المسافرين المتوزعين طوابير أمام شباك التذاكر، وفي صالات
الانتظار، الواقفين حلقات في الممرات، وفي غرف الموظفين، عمال المحطة المشغولون بتهيئة
عرباتهم الصغيرة لنقل الحقائق والصناديق المرزومة، عمال آخرون يحملون فوانيس
الاشارات للقطارات المسافرة، للقطارات القادمة.

وسط كل هذا يواصل مذياع المحطة بث الاغنيات الهادئة أو ذات الايقاعات الراقصة، لتبدد
في دواخل المسافرين الاجواء الموحشة والشعور بالغربة والقلق.. القلق موزع بين الرحيل وعشق
المكان والوجوه، والضجيج الهائل في الدواخل، في الحقائق، في الثياب، تحت الثياب، تحت
الجلد، تحاول ان تمتصه الاحاديث الجانبية والعيون المنشغلة بالترقب والهدوء والقلق، كهدهوء

العربات المرمية على الجانب البعيد من رصيف بعض المحطات التي تمر بها القطارات سريعا عبر المدن والبراري..

كيف تنتظر تلك العربات المرمية، الفارغة من المقاعد، الفارغة من الرفوف والحقائب، وضوء المصابيح، والمواسير التي تشكو العطش وسط تلك البراري، فأصبحت عالما معتما، بعد ان كانت ضاجة بالحياة والحركة، متحولة الى توابيت.. توابيت حديدية، يمر بها مفتشو المحطات ليسحبوا منها تأشيرة الصلاحية للخدمة والسفر!

كيف تنتظر تلك العربات المرمية، للعربات التي تخطف أمامها والممثلة مقاعدها بالمسافرين، ورفوفها بالحقائب، ونوافذها بضوء المصابيح.. ياترى؟
.. أعلن مذياع المحطة:

بعد قليل سيصل قطار الرحلة رقم ٢ مرحبا بالجميع.
أحسّت أنها معنية هي أيضا بهذا النداء، وكأنه هو الذي يعلن بداخلها:
"انتظريني مساء هذا اليوم"
ارتبكت عيناها باتجاه قدوم القطار.

عادت الأغنيات، وواصلت دواخلها الاحتفال المربك.. بالانتظار.
ازداد ضجيج المحطة بالمسافرين والمستقبلين، وحركة الحقائب، واصوات الصبية الذين يحملون بأيديهم الصحف والمجلات القديمة، باعة السكاكر، السندويتش، المتسولون، الجنود، مراقبو التفيتش، عمال عربات المحطة، العمال الذين يحملون فوانيس الاشارات المضاءة.

هي لا تعرف بماذا أحسّت!
تدخل عندها الزمن، زمن هذا المساء، بزمن مساعات العمر الذي مر، مجمعة في داخلها كل عذابات الانتظار!

وصل بعرباته التي هدها التعب كما يبدو، تعب المسافات.. والماء يقطر من جوانبها، تماما كالخيول التي خرجت توا من شواطئ البحر بعد ان تعبت من السباحة.
تاهت بين الضجيج، لم تعرف أين تستقر عيناها، وهي تحت الخطى بين الناس، والحقائب، وحزم الافرشة، والطيور الملونة المرتبكة في الاقفاص.

ركضت باتجاه معاكس لسير العربات، تلتصق عينيها في الوجوه المطلة والايادي التي تؤشر من خلال زجاج النوافذ والاجساد المزدحمة في أبواب العربات المفتوحة.
- حتما سارى وجهه يملأ كل النوافذ على سعتها.

مرت العربية الاولى.. الثانية، وكأنهما خاليتان تماما رغم حشد الوجوه على النوافذ!
العربية الرابعة.. السادسة.. العاشرة.

نسيت البرد وثيابها الرطبة عندما ازداد قلقها وهي تركض نحو أبواب العربات، مثلما كانت وراء الخيول!

توقف القطار، نظرت بلا عناء الى حشد الوجوه النازلة.. فقد كان واضح الملامح.
خف الزحام قليلا، شعرت بقسلك، عادت راكضة مرة اخرى نحو العربات،
الاولى.. الثالثة.. الخامسة.

بدأت تلتصق عينيها القلقتين بعنف هذه المرة بما تبقى من الوجوه في المحطة، بعد ان كادت تفرغ العربات.

عن بُعد رأت آخر من نزل، كان يحمل حقيبة صغيرة ومعطفاً على ساعد يده الأخرى.
 - "انتظريني، وعندما نلتقي وأنت تحت معطفي، سأحدثك عن حكايات كثيرة..".
 ابتسمت، تطايرت نتفاً من البهجة ملأت أجواء المحطة.
 ابتسم هو الآخر عن بُعد!
 أسرعت باتجاهه.. نحو العربية الأخيرة.. هذه ماتبقى لها.
 - واصطخب في دنيا روحها الفرح، كأصطخاب نقر حبات المطر على زجاج النوافذ.
 - كم أتبعني انتظارك.
 الا ان فرحها بدأ يتضاءل كلما اقتربت منه!
 طمأنت نفسها:
 - ربما لمتعاب السفر، وقلق الأيام، ذبلت بعض ملامحه.
 وعندما اقترب أكثر.. لم يكن هو الذي تنتظر!
 كان جندياً متعب الوجه، نظر لها بخيبة، لأنها لم تكن هي الوجه الذي تمناه بداخله هو الآخر..
 ومضى!!
 شعرت بوحشة المحطة الفارغة، وبرودة ملابسها الرطبة.. هي لم تتذكر انها شعرت بالدفء يوماً!
 حدثت جارتها ذات مساء:
 - هل تعرفين بماذا يحس الانسان عندما يشعر انه يعيش وحيداً؟
 وهل تعرفين بماذا يحس وهو متقل بالعذابات وحده، حاملاً رجليه بلا مودعين، ما عدا ظله الذابل؟!
 أنا الآن كالساعة الجدارية القديمة التي يعلو صندوقها وزجاجها الغبار، تلك الساعة التي يتحرك علي ميناؤها بارتجاف، سهم واحد، فضاعت منه كل المواقع.. مواقع الضفاف والزمن!
 وساد الصمت بينهما، كصمت القرى الجنوبية آخر الليل.
 حملت ثقل الانتظار الطويل بخطوات بطيئة، وهي تهم بالخروج من المحطة بين تكاثف الليل، وصوت الاغنيات المبتعد، وانشغال المطر برتابة هطوله.
 توقفت عند البوابة الخارجية.
 التفتت الى الوراء.
 لا أحد.
 كما في كل مرة.. لا أحد.
 سوى عامل التنظيف، وآخر يحمل فانوس الاشارات المنطفئ، يتحرك بينهما وهو منحني بتعب آخر من تبقى من المتسولين يللم أعقاب السكائر أمام جريدة قديمة متدلية من أحد مقاعد الانتظار الفارغة:
 - هؤلاء في كل مرة.

أبو الخصيب

كانون الثاني ٢٠٠٣

القرابين

الأهداء

الى استاذي الفاضل: عبد المالك.. المحترم.
معلمي في الصف الأول الابتدائي للعام الدراسي ١٩٦٦-١٩٦٧
الذي مات ولم يبق ما يذكرني به سوى ما تعلمته منه، من لفظ صحيح، واعتدال في الرأي، واستقامة
في التصرف وفي السلوك، وبقايا من ركاب جدران مدرسة إجميلة القديمة، التي انهارت وذُفنت تحت
انقاضها أحلام صباي، وكل اشيائي الجميلة.. وسارية العلم..
أهدي قصتي.. القرابين.. مع حبي وتقديري، وبالغ من الحزن والأسى...

خميس صالح الجميلي
2003/7/25

عندما تشد العواصف، تترع الرحمة، من عفاريت الارض، وملائكة السماء، فتسقط
الاخلاق، وتُخنق الأصول، وتنتحر القيم الجيدة، فيصبح الأخ جلاذ أخيه والجاسوس عليه..
فتجف بحور الشعر، وتغيب الذاكرة، وتختفي المواهب، ويكون من أصعب الامور كتابة ولو
جملة مفيدة..

وهل ترجو ممن يلفظ انفاسه الاخيرة ويحتضر أن يقول كلمات مفهومة وذات معنى؟ فكر
معي وفسّر ما تشاء..

حاولت جاهدا أن أجمع افكاري المشتتة تحت وطأة الحرب وعويل البارجات وانفجارات
الصواريخ، ودخان نفطي كثيف يغطي مساحات كبيرة من سماء المنطقة، ممزوج بلون دموي
يثير الحزن، والرعب في النفوس..

ولأول مرة، اكتشفت بأنه مُحال تحقيق المساواة، الا في حالة تعرضنا لغارات جوية، فيأخذ
كل منا نصيبه من الخوف والارباك.. والقلق..

نحن نعيش وسط أرض محروقة، وبالقرب من أبار النفط المستهدفة والتي سُخرت وارداتها
لأغراض مخلة بالشرف الوطني، والتي لم يكن لنا نصيب منها نحن البؤساء سوى حمايتها
لنكون لها قرابين.

أه.. لو كان للشعر شيطان كما يدّعي البعض لكان حاضر ومدّ لي يد العون والمساعدة
الشيطانية وصقل بي الموهبة التي أصرت على الرحيل منذ زمن بعيد.

قل شيئا.. أي شيء.. وإن كان ضبابيا وفيه الكثير من الغموض.. هل تستطيع؟..

أعترف أنني غير قادر على فعل أي شيء، ولا أتمكن من كتابة ولو مطلع قصيدة..، بالرغم من
محاولات كثيرة، جميعها باءت بالفشل، ولا أنكر بأنني أصبحت عاجزا تماما عن مجرد التفكير
بكيفية ملء الفراغات ووضع الكلمة الصحيحة في مكانها المناسب.

وأقر أنني لا أستطيع حل أبسط مشكلة عائلية تواجهني في حياتي اليومية التي ملئت قهرا..
وقد أكون في أكثر الأحيان أنا السبب بوقوعها، بل اني في أحيان كثيرة أكون مصدر إزعاج
لمن هم حولي كوني لم أوفق في الوصول الى معرفة لغز اللغة التي يمكن أن أفهم بها معهم،

كوني مصابا بخيبة أمل..

قد تكون تلك الغرفة الطينية التي تغفو على ضفاف نهر دجلة والتي شُيّدت بطريقة بدائية وبدون اعتناء، والتي تشبه في تكوينها وبطريقة بناءها، بخراج مليء قِيما تكاد تتفجر على من فيها، والعزلة، التي فرضتها الممنوعات هما السبب في تكوين تلك العقد المستوطنة والمسيطرة تماما على أفكارى، مما أدى بي الى ان أكون شخصا غير مرغوب فيه، وليس مالوفا من قِبل الآخرين...

وقد أكون مرفوضا حتى من قِبل تلك الغرفة التي ثبت بما لا يقبل الشك انها لاتصلح للاستخدام البشري لكثرة ما فيها من عناكب سامة، وصرصر مزعجة في الصوت والصورة، وقوارض تمارس نشاطها سرا وعلانية، وعقارب تقضي على الضحايا بطريقة الخطف، وزواحف تتسلل الى أهدافها بغفلة لتحقيق نواياها الخبيثة، والتي كُتِبَ عليّ رغم أنفي أن أولد، وأعيش، وأموت، وأبعث منها..

خطّ ضبابي تكاد الرؤيا تنعدم فيه، ممتد صوب الشرق أو هكذا توهمت، باتجاه نهر دجلة لاتستطيع أن تقرر ما هو بداخل أو خارج ذلك الخط، مهما دقت النظر أو بذلت من جهود.. فإذا كنت تريد الوصول الى الشاطئ فعليك أن تسير وفق ذلك الخط، وأعلم أن الاسماك تكون قريبة منه في مثل هكذا أنواء جوية مضطربة وغير مستقرة.. وذئب الجوع ينهش أحشاءك الخاوية والتي لم تهضم سوى المبادئ والشعارات منذ فترة طويلة..

وإن فكرت بتغيير الاتجاه ولو قليلا ستزل قدمك وتسقط غريقا وإن حاولت العوم بهدف النجاة فإنك ستكون من نصيب تلك الفكوك السمكية المفترسة..، والتي تنتظر بشوق على من حاولوا الابتعاد عن الطرق الضبابية، ولم يألوا السير فيها وضمن مداها.. فإنها سوف تخلبك مرغما من القهر باتجاه (حويجة علي السنو) المطوقة بمياه النهر من أربع جهات والتي يسميها علم الجغرافيا بالجزيرة المائية، والتي كأنها وجدت أصلا لتكون وطنا لتلك الحيوانات المتوحشة، وأنت فيها.. لاحول لك ولا قوة..

أنت فيها بين الهزيمة والانكسار، والاحباط والفشل، أنت فيها عبارة عن كتلة هموم، ومجموعة شكوك، بين الخوف من معلوم معلن مبطن، ومجهول مخف مغلف... سر بحذر وتعامل مع من فيها بحلم وتأن، وإن كنت على يقين من أنك مهما حاولت لن تغلح في مسعاك..

وإذا سمعت أصوات انفجارات ألحق بنفسك في أقرب مخبأ صنعتته مخالب كلب سائب عليك تنجو من موت محقق، أو إصابة بليغة علي أقل تقدير.

وأعلم أنك إن نجوت منها اليوم ستال منك لاحقا لامحالة.. فالمعركة مستمرة، وكلما توقعنا انها هدأت قالوا ستبدأ من جديد.. ويبدو لي انها لن تنتهي.. كيف تنجو وأنت تسير وسط ضباب كثيف ومحاصر بهديد طائرات مزعج ومخيف، يمزق السماء وانفجارات تحرق الأرض، وقنابل عنقودية تقتل من فيها وما عليها، وصواريخ تأتي من عدة جهات، معلومة وغير معلومة، ودون سابق انذار ولأسباب غير مفهومة، وأنت أعزل ومجرد من أي شيء، لاتملك سوى ماتعلمته من الاستاذ "عبد المالك" رحمه الله، معلم الصف الاول الابتدائي، وبقية انفاس متقطعة ومخنوقة وغير منتظمة قد تخسر ها هي الاخرى في أية لحظة وبدون تبرير، كون الرئة التي تتنفس من خلالها أصبحت عاطلة عن أداء أبسط واجباتها.

ولن يبكي عليك أحد.. ولن يتعبك حتى جدران غرفتك الطينية النتنة والتي ستبقى ملاذا آمنا

لرمي غائط المارة من بعدك.

فإن كانت نهايتك كذلك فلا تحزن عليها ولا تأسف، نحن نسير على خطاك وبنفس الاتجاه، شئنا أم أبينا، لافرق، نهايتنا آتية عن قريب وسوف نرحل ولا ندرى لماذا..

سنموت بنفس الأسلوب إن لم يكن موتنا أشد قسوة، على العموم، موتنا واحد وإن اختلفت طرق الوصول إليه، وهما واحد وإن اختلفنا في الأديان والمذاهب والقوميات، يجمعنا الشقاء سيد الهلاكات، محكوم علينا بالموت الجماعي المؤجل، ليتهم يستعجلون، فحياتنا ويل والم، ليتنا نمضي سريعا ونخلص، بئس الأمنية والطموح..

تلك كانت هو اجس: يوسف علاوي وعالمه الملي بالآخفاقات، محاسن ومحاسن، بعالم مشوش.. بنوء بالازدواجية والتناقضات وأنت فيه، بسين مطرقة التكنولوجيا.. وسندان التخلف.. مطالب بأزدواجية الشخصية، فأنت إن لم تكن مصابا بها فعلا، فأنت تعاني منها وتعيش حالة مرضية مزمنة استفحلت ونالت من الجميع خارج الإرادة.

وبقرار تعسفي، واجراءات كيدية، لايمكن إنكارها، أو التخلص منها، فابننا إن لم نكن مصابين فيها فنحن مضطرون على التظاهر بها لكي نعيش ولو على الهامش مرغمين، وأعلم.. إنك لو تمكنت من ولوج هذا العالم الذي نسميه نشارا ستكون مالوفا إن لم أقل من قبل الجميع فأنت سوف تحضى باحترام الأغلبية.. وأعلم.. أنك إن بقيت بعزلتك فإن البحث جاد ومستمر على أمثالك أينما وجدوا من أجل القضاء عليهم، أو وضعهم في الحجر الصحي، وتحت المراقبة المشددة، خشية إلحاق أذى بأخرين..

فالعزلة.. مجرد العزلة.. كافية لإثارة الشكوك حولك ووضعك في قائمة المحذور منهم، وهي دليل على اتهامك بفقدان التوازن والصواب وأثبتت عدم سلامتك الفكرية..

وأعلم.. أن طرق التعليم قد اختلفت عما كانت عليه منذ رحيل معلمنا، عبد المالك: ففي القراءة الخلدونية.. كان في.. "زنبيل زنبيل فول" في أحد دروسها بهدف اتقان لفظ وكتابة صرف اللام من خلال تكراره في مواقع مختلفة من المفردات، هكذا كان يقول لنا استاذنا عبد المالك..، ذلك الرجل الذي علمنا أبجديات القراءة والكتابة بجهد وعناء والذي كان يهتم بدراسة الاخلاقية، أكثر بكثير من اهتمامه بدرسي القراءة الخلدونية والحساب، كان يركز.. رحمه الله.. على الاخلاق ومشتقاتها التي قضت نحبا أو تكاد..، وأصبحنا نعيش زمن اللاتربية واللاتعليم..

رحم الله، عبد المالك.. الذي مات ولم يبق ما يذكرني به سوى ماتعلمته منه من لفظ صحيح، واعتدال في الرأي، واستقامة في التصرف وفي السلوك، وبقيت من ركام مدرسة جميلة القديمة التي انهارت ودُفنت تحت أنقاضها، أحلام صباي، وكل أشياء الجميلة، وسارية العلم..

ولكن هل يمكن لقوة القاهرة أن تمحو ذكريات الطفولة، وأحلام الصبا..؟؟

وإن كانت قد ملئت زنبيل زنبيل رمانا في القراءة الحديثة بدلا من الفول..، كانوا يقولون: لابد من التغيير.. فقد مر بنا زمن لايجز بقاء الحال على ما هو عليه، خاصة بعد مرور فترة طويلة على إعداد معلمين جدد ومناهج حديثة.

والا لماذا أصبح في الزنبيل رمانا عوضا عن الفول؟

أليست من أجل النهوض بجيل جديد لايعاني من سوء التغذية ولو على سبيل الوهم، والخيال، يتقن التصنيف ولعبة كرة القدم والضغط على الزناد؟؟؟..

وليذهب الى الجحيم صرف اللام، والفول، وعبد المالك معا.. هكذا كانوا هم يقولون.. انها المنجزات اللقيطة والمكاسب الوهمية والتي كان الغرض منها الضحك على الذقون وتجميد

العقول..

تلك كانت هموم .. يوسف علاوي.. التي افرزتها مكابدات عمرها أكثر من ثلاثين عاما.. ودع: يوسف علاوي.. وطنه الصغير "قرية أجميلة" مضطرا الى حيث هناك، ترافقه غربته التي أدمن عليها، وهم كبير ماذا خطاه بأقصى مايمكن، مطلقا للريح عنان ساقيه على يصل الى مبتغاه بأقصر وقت ممكن، وكان كلما ظن انه أقرب من مقصده اضطرت التواءات المسار لأن يكون أكثر قربا من حافة النهر وزادته بعدا عن الغاية، فذلك المسار الضبابي الذي رسمته حوافر الحيوانات لم يكن يألف السير فيه ولا يحسن التعامل معه كما يجب، فكلما هم نفسه وحث خطاه غالبه هاجس شك مخيف يوحي انه صار بعيدا عن سيرته والمألوف فيها وان قرار خروجه غير مدروس، ناتج عن تعرضه لضغوطات خارجة عن ارادته، وان المفاجئات، والمنغصات.. التي زادت من قلقه لم تكن ضمن حساباته، ولاح في الأفق يقين ينذر بأستحالة الوصول لمعرفة مايدور أو يجري هناك...

وعليه أن يبحث عن أقصر السبل بقصد النهاية بغض النظر عن النتائج، وبينما هو منشغل بالتفكير لايجاد عملية إنقاذ سريع ولو بشكل مؤقت بهدف الخروج من المأزق الذي هو فيه، قرر أن تكون خطاه محسوبة.. تذكر ان عملية العد قد تغيرت هي الاخرى وفق المنهاج المرسوم حديثا والذي شمل الحساب والتحسبات ولم يتوقف عند حدود درسي القراءة الخلدونية، والاخلاقية.. واثناء ترتيبه للأرقام حسب الطريقة التي صارت مالوفة ومعمولا بها، ألقى بأحدى ساقيه وبدلا من ان تستقر على ارض صلبة ليخطو خطواته الثانية لوحث في الهواء واذا به يهوي من حافة النهر الى قاعه، ولم يحاول فعل أي شيء لانقاذ نفسه مستسلما لقدره الذي قاده الى تلك النهاية التي كانت متوقعة.

اختفى "يوسف علاوي" تماما.. ولم تظهر منه سوى فقاعات هوائية طفت على سطح ماء النهر كونتها عمليتي الشهيق والزفير، من أسفل الى أعلى، سرعان ما اختفت هي أيضا يرافقها خيط أحمر يميل الى البني قليلا امتزج بماء نهر دجلة، منسابا وفق مارسم لمجراها، ابتلعتة دهااليز دجلة، مثلما هو الحال لكثير من قبله وسوف تبئلع المزيد.. ذلك هو "يوسف علاوي" الذي ولد غريبا.. وعاش غريبا... ومات غريبا.. ومن بدري قد يُبعث غريبا..

قال لي الهدهد: إن يدا.. خفية، وراء مصرع يوسف علاوي وعينا تحاول اقتفاء اثره، فأنها محاولة ميئوس منها، كون أسماك نهر دجلة ألقت أكل لحوم البشر..

وكان اختفائه إثر تخطيط محكم، مع سبق الاصرار والترصد خارج ثورة الغضب، مثلما اختفى ذلك الخيط الدموي الذي أفرزته جراحاته، حيث ذاب وتلاشى بماء نهر دجلة الذي أوشك هو كذلك، أن يجف ويختفي ذات يوم فهو مهدد بالانقراض شأنه شأن تاريخ.. يوسف علاوي.. الذي اضحى ذكريات، مجرد ذكريات.. فقد غاب الى الابد، غاب ولن يعود.. مثلما غابت ذاكرة الشعراء وأصبحت الكلمة بلا ذوق ولا طعم ولا رائحة..

هكذا قال لي الهدهد، وعهدي به صادق ولا يكذب، ولا ادري ان كان قد تغير هو الآخر، وأصبح على غفلة مني يعمل لحساب جهات اخرى، فأنا لا أضمن حتى نفسي.. وهناك، امبراطوريات انقرضت.. ودول عظمى أنهارت.. وشعوب لا تقهر هُزمت!..

الشرقاط/ اجميلة

عبور البحيرات

كريم عباس زامل

قبل اسبوع من هذا التاريخ، ابتدأت ادون في دفتر قديم وجدته صدفة، بعضاً من مذكراتي التي تبدو ساذجة لي الآن، وتمنيت ان امزقها حيث أصبحت تؤرقني، في كل يوم احاول ان احصر جزءاً من رحلتي التي استمرت لعدة أشهر، هل فعلاً ان هذه الايام التي قضيته هنا هي حياة حقيقية أم انها نوع من حالات الضياع التي تمنيت أن أحياها في يوم من الأيام؟ هذا هو مفتاح اللغز الذي دمر حياتي وجعلني أخسر مكانتي بين اساتذتي في (كلية الطب، جامعة بغداد)، الوقت أصبح هنا سيامياً أو ربما سائلاً أحس به بين أصابعي لزجاً أحاول أن أتجسّى مقسطع من حروفه، كأنني نفس ذلك الطفل المدلل في الصفوف الأولى، يوم كان المعلم يختارني لأقرأ نشيدي بين الطلاب، وحين كان يأخذني ويرفع يدي في الساحة المزدهمة بالوجوه كنت احس بالنشوة وكان الارض أصبحت في كفي مثل تفاحة، عرفت هنا من أبي كل شيء، فقرار الحكم أصبح نهائياً، ولابد من اني ساواجه مصيري هل ساحيا لأسبوع آخر؟ فهذا أصبح لغزاً يحيرني يُضاف الى اللغز القديم، فأسمي أصبح الآن (طه ياسين جبر) والصحيح هو (سعدون ناجي)، كل المحاولات باءت بالفشل ومصيري سوف يكون فوق "آلة الموت الفرنسية" كلما حاولت أن اتخيل مصيري أصاب بالهوس الذي يضجرني فانتاسي ولو بقليل من الحيل التي ابتدعتها وأقنع نفسي بأنني سوف أحيا لعشر سنوات جديدة، الأحلام ابتدأت تُغيّر حياتي، رموز وحيل وصور متكررة من أيام طفولتي وأنا صغير في منطقة "أم الدجاج" ومن أيام العطل الصيفية حيث كنت أذهب مع أهلي إلى القرى الجنوبية، تلك كانت هي جنتي الأولى وأيام شبابي في المدارس التي أتذكرها الآن وكأنها جحيم دانتي، والصور الكثيرة المزدهمة في واجهات السينمات، حيث كانت تلوث ذاكرتي فأبدوا معتوها، كنت أحفظ الأغاني الهندية من دون أن أعرف معناها، كل شيء أصبح عندي مجرد وهم، أبي ابتدأ يملكني حيث لا أرى الا صورة وجهه المكفهره تطاردني وأنا فاقد الوعي يتلبسني (رؤيا الشر)، قرأت في مقهى (منكاش) قصة (المحاكمة) لفرانز كافكا، وها هي الآن تتمالكني تماماً، أحيا بنفس الشوارع الضيقة التي تسير بها شخصيات القصة، أنا أصبحت البطل، كلما حاولت أن أصل الى نهايتي المزدوجة، وجدت نفسي أراجع مرة أخرى الى خطواتي الأولى، والغموض يغلفني وكأنني ذلك الرجل الضبابي الذي عشته في القصة قبل عشرين سنة، وها هو الآن يصبح "أنا آخر" يتلبسني ويزدوج معي في خطواتي، في الشارع أنزع أحياناً قميصي، لأبدو بقميصه المشجر، وفي نهاية اليوم حيث ينطفئ الضوء في العاشرة ليلاً أبقى متوحداً مع "وجه كافكا"، مرة في محاكمة غامضة، ومرة داخل قلعته الحجرية المبهمة، وفي نهار مشرق تحولت الى جثة كبيرة مملوءة بالقش حيث كان يهمني أن أعرف نهاية لعبة الصمت القذرة التي كنت أعبها، وفي المشهد الأخير هناك أشخاص غير معروفين وامامهم شخص يدعي انه حاول الهرب الى جهة مجهولة، الملامح تبسّو غامضة، كل شيء هنا عكس ما أريد، وفي نهاية القصة يملكني الرعب، العراب صاحب الانف المعقوف والفك المتهدل الى الاسفل يطاردني بظله وكأنه الماضي النحس الذي حاولت أن اهرب منه.

وفي الاسبوع الثاني عثرت بين أوراقى على قصة جديدة وجدتها صدفة في جريدة مسائية (قداس الموتى الألمان) "خورخي لويس بورخس" عرفت ان حياتي محصورة بين هذه العقدة ونهايتها، فمنذ طلوع الفجر كنت أمسك هذه القصة كي أقرأها بصمت وبصوت عالٍ أحياناً حيث حفظتها كلها، انه نفس مصيري الذي انتظرتة وكأنها قد كتبت عني وفي المقدمة ثمة مقطع من "العهد القديم"، (بالرغم من انه يقتلني سوف أظل أثق به)، انهارت أعصابي تحت تصاعد ضغط الدم في عروق بطل القصة، وهو ينتظر مصيره الذي أصبح مؤكداً و عبر الكلمات كانت أنفاسي تتصاعد وكان قلبي سوف يتوقف بعد لحظات، وجدت نفسي تحت أقدام كائنات خيالية ومصير محتوم هو نفس مصير (أوتو ديتريتش آل لنده)، كنت أصرخ بين الجدران الخاوية والأشياء ابتدأت تتماثلني بذاكرة الحجر وهو يطبق فوق صدري، الأبواب التي أمامي هي مجرد ثقوب داخل ذاكرتي، أصوات خيالية عبر بادية الغجر الجنوبية كنت اسمعها عبر المسافات المتوغلّة بالعمق وأنا ادخل قلعة الموت" وكانني بأقصى الشمال الأفريقي، هل إنني اواجه الآن الوجه الدائري وهو يتلو قراره الأخير فوق رأسي الذي ابتدأت أفقد السيطرة عليه، كنت أرى "وجه أمي" هنا مندسا بين الوجوه، و "وجه أبي" وكأنه ذلك الوجه الذي كنت انتظره قبل ثلاثين سنة وكأنه رأس سيارة مدببة تخترق الأفق لتخرج ذاكرتي من مصاطب الزمن، لم أتصور إنني سوف اواجه صديقي الذي التقىته في منطقة (النهيرات) وقد أخبرني في "....." قرأ قصة "قداس الموتى الألمان" وعرف نهاية (أوتو ديتريتش آل كنده) فبالرغم من انه سلم صديقي "ثامر عبد الحميد" الا اني سلمت نفسي له وتركت مصيري بين يديه.

في الشهر الأخيرة أصبحت كائناً آخر بعد ان عرفت اني سوف أكون فوق "الكرسي الهزاز، قد خسرت مكانتي بين اسباتنتي واتهموني بالجنون المطبق بعدما خلعت ثيابي في "غرفة المدير العام" وسلموني مخفورا الى أهلي ومعني التقارير الطبية (نوبات هستيرية حادة، جنون وفصام شيزوفريني حاد) وأمام طاولة المحقق كان أبي يجمع التقارير في اضبارتي الشخصية: (عيادة الدكتور فاضل زياشمعون - العشار - سعدون ناجي - فصام شخصية وجنون عظمة تتناهب حالات من الأسى الدفين/ صدمات كهربائية بالجهاز printer - Auto (لمدة ستة أشهر متوالية). كان هذا ماجلبه أبي بعد أن عرف بأني سأواجه حكماً بالموت، المحنة الغريبة التي انتابتني هنا هي تقمصي لشخصية أبي، أصبحت مجنوناً بأبي، كنت ادون في دفتر جيب صغير بعض الملاحظات (الكلمة الاغريقية "اللوغوس" فعلت فعلها في نفسي وأصبحت اعاني من "عشو الكلمات"، أصبحت مجنوناً باللازورد).

الجلسات تتوالى والاشخاص غريبو الملامح يأخذون بصمات اصابعي فوق أوراقهم وهذا أصبح لا يعنيني كثيراً، انني متهم غير واع لجريمتي التي ادخلني بها أبي، بعد ثلاثة شهور أصبح كل شيء واضحاً أمامي، الرجل ذو اللحية الصفراء يتسلمني مجبراً كي يدون أقوالى وهي جمل غير مترابطة:

* هل مارست جريمتك منفرداً؟

- كلا

* كيف داهمتك الدورية؟

- عند المنخل في نهاية البحيرات الشرقية كان معي شخص اختفى فجأة.

* وأين الشخص الثالث الذي كان معكم؟

- لا أدري

* هل لديك اقوال أخرى؟

- لي ملاحظة أخيرة، أرجوا ان تبحثوا عن "وجه أبي" كي تضعوه مع صورتي التي تثبت فوق اضبارتي.

- ها ها ها ها ها ها ها ها ها ها.

انتهت الجلسة بضحكات عالية وصراخ هستيري حيث دونت ملاحظات لا أعرف معناها.

وفي يوم ١٩٩٥/٥/٢٦ دونت في دفتر ملاحظاتي الصغير مايلي:

(قسطنطين بالوغوس بطل كازنتزاكي بحق، منذ اللحظة التي وضع بها التاج فوق رأسه في "ميسترا" كان لايعرف انه سوف يلبس الشوك على رأسه والى الأبد).

الجرمانيون يشوشون مخيلتي، القلاع تتحرك في الظلام وجثتي مرمية في الممر والحرس الليلي ينتبه الى صوت غريب وصور وكأنها لأشباح قادمة من عمق الظلام، سبعون ساعة واحد وعشرون دقيقة وخمسون ثانية وبضعة لحظات تفصلني عن العالم الآخر، السلاسل تطوقني بحلزونها المزدوج، الوادي الصخري يختزلني ككلب سائب، "أسطة ناصر" عينان جاحظتان مع أنف بارز وفك متهدل، كان يسجل عنواني في دفتر صغير عنده (العمارات السكنية - التيمية - مخبز جواد - دار ١٧)، وقتها تمنيت ان ادخله معي الى "آلة الموت الفرنسية" لكنني لم أره ثانية منذ كنا نعمل سوية في "مكابس التمر".

آخر مادوننت هي سبع صفحات تمزقت واستطعت ان اقتطع ماتبقى منها بعد محاولتي الاخيرة للانتحار واطلاق سراحي وكان هذه المحاولة هي نوبة الجنون الاخيرة التي انتزعتني من الهاوية التي اراها مرسومة أمامي دائما.

أوراق ممزقة وعلامات غير مفهومة كانت توحى وكان سعدون ناجي حاول الانتحار سبع عشرة مرة واخرها كان محاولة ابتلاع موس حلاقة قديم، وفي كل مرة تكون الصدفة هي التي تنقذه، ومن الاوراق الباقية لخصت مايلي:

في ١٩٩٥/٥/٢٧ الارض تهتز تحت أقدامي بعنف وانا في مركزها مضمحلا تتقاذفني أساطير الرومان فانتزع ذاكرتي من كينونة الزمن فأعاني من الهوس، "الان الاعلى" وكأنه طائر الرعد يفسد الهدوء الروحي الذي حاولت ان اصطنعه، "أنا افكر اذن انا موجود" هذه العبارة الدكتارية كنت ابعث من خلالها وجودي فأحيا قلقل متوحدا بزمني فتلتهمني العرافة التي سرقت مني تعاويذ الرجل الذي التقيته ايام كنت هاربا مع أبي وفي ٢٨ و ٢٩ و ٣٠/٥/١٩٩٥ وجدتني ممزقة روي التي ابتليت بها وكأنني احملها حجرا فوق ظهري وفي الايام الاخيرة ثمة رجال ينزعون من فمي بقايا الحكمة التي تناسيتها وأنا في آخر ايام الرحلة التي تمنيت ان لاتطول، وعلى الباب كان الحرس يتلو القرار الاخير باطلاق سراح المدعو "طه ياسين جبر" بعد ان اثبتت التقارير الطبية اصابته بالشيزوفرينيا الحادة.

العراق - البصرة

كوكب حمزة وزمن الفنان المسروق

فاضل السوداني

(لم أعد أمد ذراعي خفية لأقيس المدى بيني وبينك)

سرجون بولص

لا يتناسب زمن المثقف غير المتكيف وبالذات الفنان المبدع مع زمن البرابرة، لأنه زمن يتعامل مع الجمال وعدم التباس الموقف السياسي والاجتماعي في الحياة. وما حدث في العراق كان وما زال استثناء تاريخيا، لذا فإن النظام عمد الى سرقة الفنان أو لا قبل أن يسرق زمن الناس الابداعي ليحولهم الى منفذين في آلة الحروب اللامجدية، ومن ثم سرقة ثروات العراق بما فيها ابداع علماءه وشعراؤه وفنانيه، وسلب عراقتهم بسن القوانين الاستثنائية متناسيا عدم فاعليتها امام المشاعر النبيلة والدافئة في الروح العراقية المتوهجة تواصل مع التراث الثقافي والفني الانساني. وتدل هذه القوانين والممنوعات على ان الفنان المبدع غير المتكيف، الملزم بقضية شعبه، يخيف أولئك الذين احتلوا العراق، فأصالة وصدق الابداع الفني العراقي يخلق نوعا من الحصانة الداخلية لدى الجمهور تساعد على التواصل سرا مع مبدعيه بحيث يتحول نتاجهم الى منشور سري.

لذا فإن تكريم الفنان العراقي في المنفى تقييم لتاريخه الفني، بعيدا عن سلطة الجهل، تصبح مهمة جوهرية في الوقت الحاضر. ويعتبر تكريم فنان وموسيقار مبدع مثل (كوكب حمزة) ذا أهمية كبيرة من قبل العراقيين في كوينهاغن (بدعوة من البيت العراقي)، بسبب قيام النظام بمنع الناس من سماع أغانيه منذ نهاية السبعينات، لأنه فنان امتلك القدرة على التعبير موسيقيا عن النشيج السري والحزن العراقي الخاص، وعن ذلك الفرح العراقي الذي يستشعره الانسان عندما تتفتح روحه في صباح ندي آمن. وكونه انبثق في بداية السبعينات من الالفية الثانية، كشعاع موسيقي ليلحن أغنية عراقية شعبية معبرة، هدفها مساعدة العراقي على تحمل وحشية انظمة الاستثناء ورفضه لها في ذات الوقت، وانسانية أغانيه هذه دفعته الى تحمل التهجول في المنافي ومعاناة شظف العيش أكثر من ربع قرن وحتى هذه اللحظة.

ولأن (كوكب حمزة) امتلك موقفا من الحياة عموما عبر عنه من خلال اغانيه الشعبية، ويتمثل هذا في:

* نقاء ونبيل الموقف السياسي والاجتماعي والالتزام بقضية الانسان العراقي والانسان عموما.

* تمايز موسيقاه بكونها تعمق شفافية روح الانسان، وتهذب الحس والذوق الجمالي لديه بعيدا عن التطريب المرتكز على اللحن الساذج الذي يميز الكثير من الاغاني التي كانت تُبث من الاذاعة آنذاك.

* الحرص على البحث الايقاعي في هارمونية المفردة الموسيقية لخلق موسيقى واغنية شعبية عراقية.

ويكمن تفرد كوكب حمزة فنيا ايضا في غنى روحه الموسيقية، والمصدر الحقيقي لهذا هو تنوع التراث الغنائي في مدن الجنوب العراقي، مدن الاساطير والتعاويذ والسحر، مدن مازالت

عبقة برائحة الازهار واخرى بمسك مزاقدها المقدسة. مدن على امتداد شواطئها نسمع حنين صوت داخل حسن، وبين سعف نخيلها وضياح المشاحيف وتوهانها في غابات القصب والبردي تنقل الريح الانين الابدي لسلطان المنكوب كأنه صدى لحشرات صوت الاله العراقي المذبوح تموز البابلي. إضافة الى أغاني الخشابة والتراث البصري المتوزع بين الايقاع الاقريقي العنيف والرقص الهندي السريع، وغناء بخارة السفن المحملة بالمسك والكافور والعبارة يم المحيطات المجهولة يتحول عادة الى همس حزين على شواطئ البصرة حتى عودتها المفاجئة.

وكذلك الايقاع السريع والمركب لموسيقى الهيوه الراقصة، والمهمة الفنية التي تقع على كوكب حمزة وزملاته الفنانين الذين يمكن ان يجعلوا منها عالمية التقبل والاستيعاب).

وبالتأكيد فان كل هذا لابد ان يشكل الحس الموسيقي الشعبي لديه ليخلق مفردة موسيقية وأغنية شعبية تؤثر في المدينة الحضرية قبل غيرها. إن لحن كوكب حمزة الموسيقي ليس له تأثير في وطنه وحسب وإنما يمتد الى خارجه، لأن موسيقاه تلتقي من خلال افقها الانساني وايقاعها الهارموني المركب، بالموسيقى الاقريقية وموسيقى (الراي)، واغاني وموسيقى (ثيودوراكس) و (فيكتور جارا) أو تلتقي بشحنها مع الموسيقى الهندية الاصلية، قبل ان تشوهمها الافلام التجارية الرديئة، اما عراقياً فانها مفردة عن جميع انواع الغناء العراقي الريفي أو المدني.

ويمكن ان يلمس المستمع في أغاني وموسيقى الفنان كوكب حمزة بعداً موسيقياً ومفردة موسيقية خاصة تجعل من مختلف سامعيه، حتى الذين لا ينطقون العربية يتذوقونها، والسبب هو أن المفردة الموسيقية مشحونة بمشاعر فنان أصيل وصادق مع نفسه وعالمه المحيط. وهذه الاصاله والصدق الفني هما الذين يجعلانها تلتقي مع مشاعر الانسان في عالم الآخر. وعلينا ألا نخاف من ذكر مفردة العالمية عند الحديث عن غنى الغناء العراقي، لأن كل فن صادق وأصيل في شعبيته ويمتلك القدرة على تعميم المشكلة المحلية بما فيها صدق المشاعر واتساع افقها لعموم البشر، يكون فناً عالمياً المنحى، كما هو الحال مع أغاني الراي المغاربية، والموسيقى والغناء اليوناني، وأغاني العجر العالمية، والفلامنكو الاسباني، وموسيقى الزنوج. وما أغاني كوكب حمزة مثل (ياطيور الطايه)، (بنادم)، (شوك الحمام)، (محطات)، (هوى الناس)، (البنفسج)، و (مضيعة بالضباب) وغيرها، الا موسيقى شعبية اصيلة تدخل في أعماق الناس وتستوقفهم في الطريق وتحفزهم على التفكير الجدي بتهذيب مشاعرهم وجعلها أكثر دفئاً والتصاقاً بالجمال والخير.

والفنان كوكب حمزة بحسه الشعبي وتذوقه الشعري يمتلك حساً درامياً حتم عليه التعامل مع نوع خاص من الشعر الذي تتميز مفردته بغنى في التأويل واتساع التأثير في مختلف حواس الانسان.

وقد توفر له شعراء يمتلكون احساساً خاصاً بالملحمية والتراجيديا العراقية وشمولية الرؤيا، مثل الشاعر (زهير الدجيلي)، و (رياض النعماني) و (ابو سرحان) الذي قُتل في الحرب الأهلية اللبنانية بسبب عدم وجود من يدفع الفدية عنه ليترك أسرته.

وعندما يمتزج الوعي الشعري - الدرامي واحساس الفجيرة العراقية، بهارمونية الايقاع الموسيقي لكوكب حمزة، تصبح أغانيه كأنها صدى لمشاعر انسان تائه، ضاع عمره بين

المحطات، إنسان ملهوف يبحث عنه أهله دون جدوى فيشعر بالمرارة، لكنه إنسان ملحاح في أسئلته، ليس فقط من أجل أن يجد طريقه إلى الذين أضاعوه وضيعهم، وإنما في أسئلته المصيرية الأخرى التي تصل حد السؤال الوجودي المقلق، كما هو الحال في أغنية (مضيعني بالضباب) لرياض النعماني وبنادم لأبي سرحان وأغنية محطات. ولابد لهذا الإنسان التائه أن يجد طريقه أحياناً، ولكنه في أحيان كثيرة سيعيش مع قلقه الدائم.

وانحياز الفنان كوكب حمزة لمثل هذا الشعر هو نتيجة طبيعية لاختناقه من غربته الداخلية أولاً، منذ كان في وطنه. لذا فإنه أكثر الملحنين العراقيين شعوراً بالغربة والقلق الدائم الذي لا يسمح له أن يستقر على حال، سواء في تنوع ألحانه أم في حياته. ففي أغاني مثل بنادم، محطات، هوى الناس، شوك الحمام، وياطيور الطائيرة، وغيرها هناك تكثيف موسيقي للتعبير عن الحزن والاحساس بالغربة العراقية، والتأكيد على أن شغاف الروح تتسلل كالهواء بين الأصابع، والفراة العراقية للتأسي على ذلك الفارس الذي سيأتي في يوم ما، أو رفيق الأحلام أو ذلك الصديق المنقذ (الطين الحري)، أو الحبيب الذي لم يحن طيفه بعد والذي يشعرونا فراقه بوحشة الطريق، كما في أغنية "شوك الحمام" لأبي سرحان: (ذبلن وعود العشك/بشفافك وماتن/وطيور حبنا رحلت/وي طيفك وتاهن/كل المهاجر رجع/وطيفك بعد ماحن).

ومن خلال هذه القصيدة المتماسك يعبر كوكب حمزة عن الغربة العراقية التي تبدو أبدية، ومن جانب آخر ليس سهلاً أن يكون، هوى الناس، قداح وشموس وعصافير، ولكن فنان مثل كوكب حمزة بشفافيته وصدقته وخياله اللحنى قادر على التعبير عن كل هذا موسيقياً.

أن تنوع الإيقاع والغنى الروحي لأغاني الفنان تعمقت نتيجة لتأثرها بالتراث العاشورائي والتعزية الحسينية، فعندما نتمتع في أغانيه شعراً ولحناً نكتشفها وكأنها تعاويد الحبيبة في لحظة تمنياتها وأنسياب أحلامها وقت الغروب، أو تبدو كدعوى الأمهات العراقيات المباركات وتمنياتهن في تحقيق المراد بعودة الغائب والمهاجر إلى دكة بيته. وصدى إيقاع الزنجيل والتطبير والطم العراقي الأبدى وهففة شعر العذارى أثناء ردهن في ليلة (عرس القاسم) في عاشوراء، يمكن أن نستشعرها ونستحضرها عندما نسمع أغنية مثل بنادم ومحطات، وبالرغم من محليتها إلا أن هنالك إحساساً بصداها الذي يعبر إلى العالم الآخر. ولهذا فإن بعض الأغاني من أجل التعبير عن قلق الإنسان العراقي ومحنته الدائمة تبدو كأنها إحاسيس موسيقية عنيفة تغزو أعماق المشاعر في روح الإنسان.

ومثل هذا الإيقاع والبعد التراثي وغنى التأويل في الكلمة واللحن أعطى لأغاني الفنان ومنذ الأولى منها مساهمة في تغيير أسلوب سماع الأغنية العراقية لدى العراقيين، لأنها فرضت مفردة موسيقية وقصيد شعبي متميز، تمثل هذا بفرض الإيقاع الهارموني المركب والمتعدد النغمات لتنوع الآلات الموسيقية، أي أنها فرضت ما يسمى بلغة الموسيقى بالإيقاع البوليفوني.

في الماضي من الزمن الرديء وفي غفلته حاول لا سرقة الزمن الإبداعي للفنان العراقي، وهم يحاولون الآن سرقة منافعنا، ولكننا نستطيع أن نحوله إلى تاريخ إبداعي فقط من خلال نقاء الموقف السياسي والاجتماعي غير المتكيف مع النظام، والعمل الإبداعي المتواصل في شتى مناحي الثقافة الذي يتميز بالوعي والعقل العراقي المتفرد.

شهادات

أوراق عراقية في زمن الحرب والاحتلال

تتشارك هذه الأوراق، جميعاً، في أنها تأثرت وتناثر، مثل العراق، بما جرى ويجري، وفي أن كتابيها لم يكتبوها في الاصل لتنتشر، بل ليصرخوا وكتابوا بذلك يتحاشون خطر الانفجار، غضباً أو حزناً.

هي، إذن، محاولات قصصية، ويوميات، "وأي ميلات"، قدر لي ان اساهم فيها، أو أن اطلع عليها، بحكم علاقتي المباشرة بالشهود، أو عبر الاطلاع Forward ومن هنا تكتسب أهميتها كشهادات عراقيات وعراقيين في زمن الحرب والاحتلال.

ابراهيم الحريري

من يوميات عراقية مهاجرة في زمن الحرب والاحتلال

1- يرعيني فحيح الافاعي الطالع من شاشات تلفاز القرن الامريكي الجديد.. فالعراق هو الفريسة شهية وحُللى بفرات ونفط وعسل..

2- أسير في شوارع مانهاتن.. طبول الحرب تقرر في رأسي والناس من حولي يحملون أكياساً تطفح بالطعام والفاكهة وأكواب قهوة هائلة الحجم.. والطبول المجنونة تقرر.. "حربكم أيها المتخمون قادمة على وطني الذي ين تحت وحشية أثني عشر عاماً من الحصار والمياه الملوثة وسرطان الأطفال الذي أهدتنا إياه قنابلكم الذكية.."

3- التصق في مقعدي، أرقب شاشات القرن المريكي الجديد.. قنبلة اخرى تسقط على جسد بغداد.. ثم يظهر دجلة.. حزاماً من بهاء مطراز بالنفيل.. فأشم رائحة لحمي تختلط برائحة الخوف الطالعة من أكباد الأطفال... ومن قبل اليوم، لم أكن أعرف ان للخوف في أكباد الأطفال رائحة تصل من شواطئ دجلة "التي كنا نمر عليها" الى قلب غرقتي في مانهاتن..

4- تقيل قلب نيويورك علي قلبي العراقي.. أقفز من سريري في الثالثة ليلاً.. أهرع الى التلفاز، فتطالعني الدبابات الامريكية، أفاع تزحف الهوينى في شارع السعدون، أنظر الى الشاشة وأغرق في لجة رعب بلا قرار..

قبل خمسة وعشرين عاماً، وقبل عيد الفطر بيومين خرجت عائلتنا الصغيرة لتشتري حذاء العيد لأنه ابنتي ذات الخمس سنوات.. وفي زحام ما قبل العيد تاهت الصغيرة منا، وإذ بحثت عنها، كنت اختنق في لجنة رعب لاقرار لها.. حتى احتضنتها الى صدري.. اترى هذا الرعب الذي يغرقني، وأنا أرى دبابات القرن الامريكي الجديد تزحف على شارع السعدون تشبه ذلك الرعب عندما تهات ابنتي. أم ترى الوطن أغلى من الولد؟

5- بالأمس.. داست الدبابات على أجساد البصرة والنجف و كربلاء والحلة وسدة الهندية.. وهامي اليوم تدوس على جسد شارع السعدون وبغداد أمامي، قريبة حتى لأكاد الثمها.. نفيل في كل مكان، وسماء صافية، وقبة جامع فيروزية ومزينة حتى الترف.. دبابات وجنود أصحاء

بعيون زرق وشعر أشقر..

6- سلطان النوم يأبى أن يمارس رحمته عليّ.... ستة وثلاثون ساعة لم أنم منها دقيقة واحدة، فلحمتي يحترق، ولا مهرب لي من وجع الحريق ولا من رائحة الخوف الطالعة من أكباد الأطفال.. وتحتلني.. كما تحتل الدبابات بلادي رغبة في الخلاص.. الحياة هي الجحيم.. أصرخ من لوعتي على الوطن.. وأخرج إلى بالكونة شقتي.. وأنظر إلى الشارع من تحتي.. ويناديني الموت لحظة واحدة.. ولا يعود ثمة وطن، ولا دبابات، ولا لجة رعب يلاقرار، ولا دجلة، ولا جحيم.. لكنك لا تملكين ترف الخلاص يا عراقية..

تقول الأخرى، وهي تقاوم بشراسة:

لكنك يا عراقية.. عراقية..

فكيف تختارين ترف الخلاص وأنت بنت دجلة الخير.. أم البساتين؟!

7- من نسغ عظامي تقوم، مثل رخ، ذاكرتي الضاربة سبعة آلاف سنة في ثرى التاريخ.. تضربني دون هوادة ذاكرتي.. فأستذكر سطور مسلة حمورابي وملحمة جلجامش وأوراق شجر ذهبية تحتضن رقبة شبعاد..

دون هوادة تضربني ذاكرتي.. تهترني من ترف الرغبة في الخلاص..

فأستذكر سطور المتنبي، والجاحظ، وأبو نؤاس، والحلاج وأبو العلاء، والجواهري، وبدر.. ونازك.. بدون هوادة.. تضربني ذاكرتي.. فأستذكر الشهداء.. أسما أسما، منذ ثورة العشرين، ولحين هذا اليوم.. بدون هوادة.. تضربني ذاكرتي.. فأستذكر جدي لامي، البغدادي الأصل، طويل القامة مثل نخلة، ونرجيلته، وكفه الملائن بالدخن، تأكل منها حمامة البيت حتى تشبع، فنظير إلى عشها فوق النارنجة في وسط الدار.. بدون هوادة.. تضربني ذاكرتي.. فأستذكر غرفة نومي في بيتنا القديم في الكرادة.. وصوت حكاية تحكي لنا قصة "لعابة الصبر".. تصرخ في وجه صاحبته.. "أنت صبر.. وأنا صبر.. كم دوب كلبى يصطبر"..

وأدرك اليوم.. أدرك أنني عراقية أكثر من أي وقت مضى.. وأنتي لا أملك ترف الخلاص.. بل فريضة الصبر.. وفريضة الاستمرار.. وفريضة المقاومة..

ميسون مالك

نيويورك - مانهاتن

أواخر نيسان / أواسط أيار ٢٠٠٣

مأساة

22 حزيران/ يونيو ٢٠٠٣

هذا مثال بسيط لما جرى ويجري في بلدنا الحبيب، ولأن المرسل الأصلي للرسالة يريد ان نشاركه مأساته وان نروي قصته، فأنتي أعممها عليكم:

أيها الأعزاء

أشعر بضرورة ان نتشارك معا هذه الرسالة التي وصلتني من صديق عزيز في بغداد يقيم الآن في الامارات العربية المتحدة. لقد أخبرني توأ بسوفاة والدته بضربة جوية أمريكية خلال الحرب.

لقد مستنا الحرب جميعا بطرق مختلفة، لكن لاشيء يعدل أن يفقد المرء عزيزا. إن فرحتنا بنهاية الدكتاتورية البشعة لايمكن أن تُبرر ماحدث، فصور تلك الفرحة تمتزج بالصور والحكايات والمآسي التي خلفتها الحرب.

إن رعب تلك اللحظة سيظل يطاردنا ليذكرنا ببشاعة العنف، بكل صورته واشكاله.

لكن لماذا ينبغي ان يدفع الناس العاديون - دائما- ثمن الحرب والدمار؟

عليكم السلام

الموضوع: مأساة

عزيزي عمر

كيف حالك يا أخي؟ وكيف حال العائلة في بغداد؟ أمل ان تكونوا جميعا بخير.

أحمل لك أبناء سيئة، بالآخرى سيئة جدا، عن عائلتي..

أخي العزيز..

لقد قُتلت والدتي بصاروخ أمريكي في السابع من نيسان.. انها لصدمة كبيرة وخسارة كبرى لنا جميعا.. لا أستطيع، حتى الآن، ان اصدقها..

لقد حدث الأمر في المنصور قرب مطعم الساعة (إني واثق انك سمعت بالأمر) ولقد كانت أمي في السيارة ذلك الوقت، وهي واحدة من خمسة عشر شخصا قُتلوا في ذلك الحادث..

أرجوكم أن تصلوا حتى تدخل والدتي الجنة..

أرجوكم ان تطلع كل العراقيين والمريكان الطيبين حتى يصلوا من أجل أمي.. إنك تعرفها.. هي لم تؤذ أحدا.. إني أو من بالله وأو من انه اختارها الى جانبه لكي يخلصها من هذه الحياة الشقية..

أرجوكم يا عمر ان تحكي لكل من تعرفه عن هذه "الحرب النظيفة"!! (كما يسمونها) وكيف قُتلت الأمهات والأطفال..

لن نتوقف عيناى عن سكب الدموع ولن يتعافى قلبي.. لقد جرح قلبي، كما هي بغداد جريحة الآن..

عمر عمم هذه الرسالة على الجميع، أرجوكم..

محمد

أين يداي

من رسالة:

...كندا ابريل/نيسان ٢٠٠٣

تم "تحرير" العراق!!

(لأنه) تُعاني من الكآبة في القاهرة، أختها كتبت لي انها ستعود الى بغداد لتفتح دكانا، وهي تعد بسأيام أفضل. أمها تعيش وحيدة في نيويورك تُعاني كيف يُغتصب بلادها على يد الجنود الامريكيين والبريطانيين.

"أنا أعيش في كندا أعاني كيف يُدمّر بلدي واشم رائحة دماء كل أولئك الذين قصفتهم موجات الصدمة والرعب (shock and awe).

إننا نشارك جميعاً بالشعور ذاته.. ان مهد الحضارة يتحول الى مقبرة.. ليايلنا طويلة ونحن مشلولون مصعقون..

(لأنه) تريد العودة الى بيتنا في "عرصات الهندية"... وان تنام، ولو لمرة، على السطح..
(بأنه) تريد العودة الى بغداد لتفتح دكانها الصغير.. أمها تريد ان تشتري ليلاكا أبيض وان تغرسه في حديقة بيتنا في (العرصات).. أنا اريد ان أغني اغنية عراقية قديمة..
(علي) * الراقد في سرير المستشفى ينظر الينا وكأنه يقول: وأنا من يعيد لي يدي..

نسرين/تورنتو/اواخر ابريل/نيسان ٢٠٠٣

* علي: الطفل العراقي الذي خسر ١٣ من أفراد عائلته ويديه في غارة أمريكية.

مخلوقات تراقب الحياة

حسن الفرطوسي



في نهاية شهر مارس الماضي، خرج الفنان العراقي سعد الموسوي وهو يتزعم مخلوقاته في معرضه الأخير في إحدى قاعات مدينة ميلبورن الاسترالية.. وكان المعرض يضم تشكيلة رائعة من اللوحات المنتمية إلى مراحل واساليب متعددة من مسيرة الفنان الموسوي وهذا بطبيعة الحال تابع من ارتباط الفنان بمراحله الفنية السابقة، دون المساس بالعلاقة الروحية بين هذه الأسلوبية الجديدة والاساليب السابقة. وأنا أقف أمام لوحة (كرنفال الماء) وهي لوحة لثلاث سمكات، الأولى تعزف على الناي والثانية تضرب على طبل صغير أما السمكة الثالثة فهي عروس قد أعدت بعناية لليلة زفافها، وهذا واضح من خلال القسوط الأنيق المتدلي من بين خصلات شعرها والمنقوش بنقوش شرقية، ومن خلال ملامح الخجل والغنج الواضحين على وجه العروسة "السمكة".. انتابني إحساس غريب، بأن هذه المشاعر وجميع المشاعر المتمثلة بالفرح والحزن والحسب والكرامية هي ليست إرهابات إنسانية فحسب إنما تشترك معنا فيها جميع المخلوقات،

وهذا يذكرني بفلسفة "أخوان الصفا وخلان الوفا" في رسالتهم السادسة من باب النفسيات العقلية، فهم يقولون: "أعلم يا أخي أن محبة النساء للرجال وعشقها، فإن ذلك في طباع أكثر الحيوانات التي لها سفاد. وإنما جعلت تلك في طبائعها لا ليدعوها للاجتماع والفساد، بل ليكون منها الناتج، والغرض منها بقاء النسل وحفظ الصورة في الهولي بالجنس والنوع". هناك جوانب كثيرة اجتمعت مع بعضها، لتتولد هذه الأسلوبية المتفردة للفنان سعد الموسوي، فبالإضافة إلى امكانيته الحرفية من ناحية اللون وقدرته العالية على تجسيد الشكل الخارجي للأشياء ومن خلال خبرته بالعلاقة السايكولوجية بين عين الإنسان والتأثيرات اللونية، فهناك جانب آخر وهو جانب مهم جداً في بناء الفنان التشكيلي ألا وهو ما يحمله الفنان من ثقافة ورؤية خصبة وعميقة للأشياء وللحياة بكل تفاصيلها.. فالفنان الموسوي مرتبط بعمق بحضارته السومرية باعتباره من أبناء مدينة الناصرية، ولطالما ذكر لي من باب المداعبة بأن زقورة أور قد استحوذت على معظم خلايا الدفترية في دماغه.. لذا فإنه اختار اللون الأزرق وعائلته كممثل شرعي لحضارته ويكاد أن يكون اللون الأزرق هو العامل المشترك بين جميع لوحاته وحتى أن أسلوبيته الجديدة لا تخلو من هذا اللون، وكأنه عشق أبدي.. وأكثر ما شدني من الفصيلة الزرقاء هي لوحة "توحد الكائنات" وقد نفذت بالزيت، وبقياس ١٢٠×١٠٠ سم وقد نفذ العمل في سنة

١٩٩٣ .. فكتلة الملك تستحوذ على اللوحة .. وهناك سمكة بشفتين لذيتين تعزف على الناي وعينها تنزف شفافية وكأنها مشط معقوف .. بينما الطائر يبدو مزهوا والتاج يعتلي راسه بلون ينم عن حوار طويل قد دار بينه وبين الملك الذي تخلى عن تاجه له مقابل بعض الريش للملك "الاله" لتتصب الريشات على راس الملك بلون لا يختلف عن لون الطائر الازرق .. والسمكة مستمرة بالعزف على الناي دون توقف باصابع قصيرة جدا .. ويبدو ان اللحن كان جميلا جدا، لان خلفية اللوحة مازالت تغني، لحسن العدالة والانصاف عبر التدرج اللوني للازرق وضمايره .. والكل منسجم بهناء ورخاء .. رغم ان راس الملك يبدو شامخا بخطوط عمودية نحو الاسفل منحرفة ذات اليمين وذات اليسار لتعانق الطائر والسمكة على حد سواء بحنان الهي جميل! مرة اخرى تظهر فلسفة ابن عربي في وحدة الكائنات وفلسفة (اخوان الصفا) في رسالتهم الثالثة حين يقولون: اعلم يا أخي ان العالم انسان كبير وقولهم ان الانسان عالم صغير، معنى ذلك ان العالم له جسم ونفس، يعنون به الفلك المحيط وما يحوي من سائر الموجودات من الجواهر والاعراض، وان حكم جسمه بجميع اجزائه البسيطة والمركبة والمولدة، يجري مجرى جسم انسان واحد .. او حيوان واحد، بجميع اعضاء بدنه المختلفة الصور، المفننة الاشكال. فالموجودات في العالم لها اصول، وتلك الاصول من اصول اخرى قبلها، الى ان تنتهي كلها كمثلي شجرة واحدة لها عروق واغصان، وفي تلك الغصون اوراق .. تلك الدنيا .. اما في لوحة "ثلاثية الانسان المعاصر" فتبرز التجريدية هنا واسعة الافق من خلال التدايعات اللونية والعلاقة بين الكتلة واللون، فالظل هنا، هو سيد الموقف وهو المستودع الحقيقي لكل الاسرار والاحلام والهواجس الانسانية وهذا واضح من خلال اللون والرموز الموجودة في الظل .. بينما يبقى الجسد كتلة مظلمة غير واضحة المعالم بعد ان فرغت من الاحاسيس والاحلام .. فهذه الوسيلة -وسيلة الاختباء في الظل- هي من انجح الوسائل للحفاظ على الجسد من الهلاك وقطع الراس في هذا الزمن الذي يعاقب فيه الانسان على ما يحمل راسه من احلام ومن افكار .. وجعل الجسد هو الهدف الاول للعقاب، كما فعل النظام العراقي السابق، باجساد العراقيين وحول البلد كله الى مقبرة جماعية كبيرة.

ملبورن / استراليا

2003 / 7 / 27

اصدارات وردتنا

حسن مطلق: قوة الضحك في اوراق، رواية، الدون كيشوت
للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٣.

عبد جعفر: سقوف المنازل، قصص قصيرة، دار الحكمة، لندن
٢٠٠٣.

خلف الزرزور: غريب يازمن!، قصص قصيرة، دمشق
٢٠٠٣.

